

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر
لويس الرابع عشر



قِصَّةُ الْحَضَارَةِ

وِل وَايرِئِيل دِيورَانْت

عَصْرُ لُؤْلُؤِ الرَّابِعِ عَشَرَ

تَارِيخُ الْحَضَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ
فِي عَصْرِ

بِسْكَال وِمولِيير وِكر وِمول وِملْتِن
وِبطْرِس الأَكْبَر وِنيوْتِن وِسِينُوزَا

١٧١٥ - ١٦٤٨

مُرَاجَعَةٌ
عَلِيّ أَدَهْم

تَرْجُمَةٌ
فُوَاد أُنْدَرُوس



تُونِس

الجزء الثالث من المجلد الثامن

٣٣



بَيْرُوت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلکس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار الحديث - بيروت - لبنان

الجنوب المراح ١٦٤٨ - ١٧١٥
١ - ايطاليا الكاثوليكية ٩١

صفحة

٩٧	٢ - الفن الايطالى
١٠٥	٣ - اوديسة كرسينا
١١١	٤ - من مونيتفردى الى سكارلاتى
١١٦	١٧٠٠ -	٥ - البرتغال ١٦٤٠ -
١١٩	١٧٠٠ -	٦ - انهيار اسبانيا ١٦٦٥ -

الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الاجنبية ١٥٦٤-١٧١٥ ...

[illegible]

الكتاب الرابع

المغامرة الفكرية ١٦٤٨ - ١٧١٥

الفصل السابع عشر

[illegible]

الفصل الثامن عشر

١٨٢	١٧١٥ - ١٦٤٨	البحث العلمى
١٨٢	١٧١٥ - ١٦٤٨	البحث العلمى
١٨٢	١٧١٥ - ١٦٤٨	البحث العلمى

صفحة	
١٩٢	٣ - الفلك
١٩٧	٤ - الأرض
٢٠٢	٥ - الفيزياء
٢٠٩	٦ - الكيمياء
٢١١	٧ - التكنولوجيا
٢١٣	٨ - الأحياء
٢١٨	٩ - التشريح والفسولوجيا
٢٢٢	١٠ - الطب
٢٢٧	١١ - النتائج

الفصل التاسع عشر

١٧٢٧ - ١٦٤٢	اسحاق نيوتن
٢٣٠	١ - الرياضي
٢٣٤	٢ - الفيزيائي
٢٣٧	٣ - أصل نظرية الجاذبية
٢٤١	٤ - كتاب المبادئ
٢٤٦	٥ - الأصل

الكتاب الثالث

مخطط القارة

١٦٤٨ - ١٧١٥

الفصل الثاني عشر

الصراع على البلطيق

١٦٤٨ - ١٧٢١

١ - السويد المغامرة : ١٦٤٨ - ١٧٠٠

ان التاريخ شظية من البيولوجيا - انه اللحظة البشرية فى موكب الأنواع . وهو أيضا وليد الجغرافيا - لأنه فعل الأرض والبحر والهواء ، وأشكالها ونتائجها ، وتأثيرها فى رغبة الانسان ومصيره . فلنتأمل هنا أيضا تلك المواجهة بين الدول المحيطة بالبلطيق فى القرن السابع عشر . فالسويد فى شماله ، واستونيا وليفونيا ولتوانيا فى شرقه ، ومن خلفها روسيا الباردة الجائعة ، وفى جنوبه بروسيا الشرقية وبولنده وبروسيا الغربية وألمانيا ، وفى غربه الدنمرك بموقعها الاستراتيجى على منافذ البلطيق الضيقة الى بحر الشمال والاطلنطى . لقد كان هذا سببا جغرافيا سيصطرع نزلاؤه على السيطرة على تلك المياه والمضايق ، والشواطىء والثغور ، ومسالك التجارة ودروب الهرب برا أو بحرا . هنا خلقت الجغرافيا التاريخ .

أما الدنمرك فقد لعبت الآن دورا صغيرا فى مسرحية البلطيق . ذلك أن نبلاءها الذين احتكروا الحرية لأنفسهم غلوا أيدى ملوكها وأرجلهم . وكانت قد نزلت عن سيطرتها على مضائق الاسكاجراك والكاتيجات (١٦٤٥) وبقيت النرويج خاضعة لها ، ولكنها فى ١٦٦٠ فقدت أقاليم السويد الجنوبية . وشعر فردريك الثالث (١٦٤٨ - ٧٠) بحاجة الى سلطة ممرزة تتصدى للتحديات الخارجية ، فأرغم النبلاء على أن ينزلوا له عن السلطة المطلقة والوراثية ، مستعينا على ذلك برجال الدين والطبقات الوسطى . وقد وجد ابنه كرستيان الخامس (١٦٧٠ - ٩٩) معينا له فى بيدر شوماخر ، كونت جريفنفلد ، الذى ظفر بثناء لويس الرابع عشر عليه وزيرا من أكفأ الوزراء فى عصر الدبلوماسية الذهبى ذاك . أصلح مالية الدولة ، ودفع التجارة والصناعة

قدما ، وإعاد تنظيم الجيش والبحرية . واستن الكونت سياسة السلم ، ولكن الملك الجديد كان تواقا لاستعادة القوة والأقاليم التي كانت الدنمرك تملكها فيما مضى . ومن ثم ففي ١٦٧٥ جدّد الحرب القديمة مع السويد ، ولكنه هزم ، وثبتت من جديد سيادة السويد على اسكندناوة .

وقد تعاقب على عرش السويد فى تلك الحقبة طائفة ممتازة من الملوك الأشداء ، وظلوا نصف قرن أعجوبة زمانهم لا ينافسهم فى ذلك منافس غير لويس الرابع عشر . ولو أتيح لهم سند أكبر من الموارد لبلغوا ببلدهم من القوة والمنعة مبلغ فرنسا ، ولاستطاع الشعب السويدى - بوحي من منجزات الجوستافين ، والكارلين الثلاثة ، ووزرائهم العظام - أن يمول ازدهارا ثقافيا يتناسب مع انتصاراتهم وتطلعاتهم . غير أن الحروب التى عززت قوتهم استنزفت ثروتهم ، فخرجت السويد من ذلك العهد مستنزفة القوى وان تكلفت بأمجاد البطولة . وانه لما يثير الدهشة أن تحقق أمة من الأمم هذا القدر الكبير من المنجزات فى الخارج على ما بها من ضعف شديد . فسكانها لم يجاوزوا مليوناً ونصفاً ، ينقسمون طبقات لم تتعلم الى ذلك الحين أن يعيش بعضها مع البعض فى سلام . وكان النبلاء يتسلطون على الملك ، ويقررون لأنفسهم شراء أراضي من أملاك التاج بشروط ميسرة ، والصناعة مقيدة محددة بحاجات الحرب تحديدا أعجزها عن تغذية التجارة التى أطلقت الحرب عقالها ، وكانت الأملاك الخارجية عبثا لا تبرره غير العزة القومية . ان حنكة الوزراء المخلصين وحدها هى التى دفعت عن البلاد خطر الافلاس الذى بدا أنه ثمن المجد .

كان شارل العاشر جوستافس ابن عم كرستينا الرهيبة ، ورفيق لعبها ، وعاشقها ، وخلفها بعد أن نزلت له عن العرش فى ١٦٥٤ . وقد درأ خطر الافلاس باكراه النبلاء على رد بعض الضياع الملكية التى سطوا عليها . واستطاعت الدولة بفضل هذا « الاختزال » للأملاك الاقطاعيين أن تسترد ثلاثة آلاف مسكن بأراضيها وتستعيد قدرتها على الوفاء بديونها . ورغبة فى استكمال النقص فى العملة الفضية والذهبية ، عهد شارل الى يوهان بالمسترو بإنشاء مصرف قومى وإصدار نقود ورقية

(١٦٥٦) - وهى أول ما صدر منها فى أوربا . وقد حفز ازدياد تداول العملة الورقية للاقتصاد حيناً ، ولكن المصرف أصدر منها فوق ما يستطيع الوفاء به نقداً عند الطلب ، فأوقفت التجربة . ونقل الملك المقدام أثناء ذلك صناعة الحديد والصلب التى اختصت بها ريجا الى السويد ، فأرسي بذلك أسس قاعدة صناعية أقوى تستند اليها سياسته العسكرية .

أما هدفه الذى جاهر به فكان توسيع رقعة ملكه . فالأمارات التى كسبها جوستافس أهولفس على أرض القارة تهدد بالثورة ، والحكومة البولندية تأبى أن تعترف بشارل العاشر ملكاً على السويد ، ولكن بولنده أضعفها تمرد القوزاق ، وقد خفت الروميا لنجدة القوزاق ، وكان الأمل ولا ريب يراودها فى شق طريق لها الى البلطيق . ثم ان للسويد جيشاً حسن التدريب خافت أن تسرحه ، وخير سبيل الى اعاشته أن يخوض حرباً ظافرة . ورأى شارل فى هذه الظروف كلها ما يزكى الهجوم على بولنده . وعارض الفلاحون ورجال الدين ، فاسترضاهم بالزعم بأن مشروعه ليس الا حرباً مقدسة لحماية حركة الاصلاح البروتستنتى وتوسيع نطاقها (١٦٥٥) (١) .

ولكن تبين أن بولنده بلد يسهل غزوه ، ويصعب اخضاعه . كانت مقاومتها فى الغرب ضعيفة لما حاق بها فى الشرق من خلل وما عانت من غارات العدو . ودخل شارل وارسو ، وهذا النبلاء البولنديين بوعده أن يبقى على امتيازاتهم الموروثة ، وتلقى ولاء البروتستنت البولنديين ، وعرض اللتوانيون أن يعترفوا بسيادته . ولما حاول فردريك وليم ، « ناخب براندنبورج الأكبر » الافادة من انهيار بولنده بالاستيلاء على بروسيا الغربية (وكانت يومها اقطاعاً بولندياً) ، سبّر شارل جيشه غرباً بسرعة نابليونية وحاصر الناخب فى عاصمته ، وأرغمه على توقيع معاهدة كونيجزبيرج (يناير ١٦٥٦) . وأعلن الناخب ولاءه لشارل فيما يتصل بروسيا الشرقية باعتبارها اقطاعاً سويدية ، ووافق على أن يؤدى للسويد نصف رسوم تلك الولاية وضرائبها ، ووعد بأن يمد الجيش السويدى بالف وخمسمائة مقاتل .

غير أن الخصومة الدينية التى أثارها شارل هزمته . ذلك أن البابا اسكندر السابع والأمبراطور فرديناند الثالث سخرا كل ما يملكان

من نفوذ ليؤلغا حلفا ضد السويد ، لا بل ان الدنمركيين والهولنديين البروتستنت انضموا الى الحلفاء فى تصميمهم على كبح جماح الفاتح الشاب مخافة أن يعدو بعد ذلك على ممتلكاتهم أو تجارتهم . فهرع قافلا الى بولنده ، وهزم قوة بولندية جديدة ، واحتل وارسو من جديد (يوليو ١٦٥٦) . غير أن بولنده امتشقت الآن الحسام لقتاله بعد أن ثارت حماسها الدينية ، وألقى شارل نفسه - وهو بلا صديق رغم انتصاره - وقد أحرق به الأعداء من كل حـدب . وهجره ناخب براندنبورج وتعهد بتقديم العون لبولنده . أما شارل - الذى كان خبيرا بكسب المعارك فقط لا بدعم فتوحه بصلح عملى - فقد اكتسح البلاد غربا فى هجوم على الدنموك ، وعبر الكاتيجات فوق ثلاثة عشر ميلا من الجليد (يناير ١٦٥٧) ، وهزم الدنمركيين ، وأكره فردريك الثالث على توقيع صلح روسكيلدى (٢٧ فبراير) . وانسحبت الدنمرك كلية من شبه الجزيرة السويدية ، ووافقت على أن تغلق مضيق الساوند فى وجه أعداء السويد . فلما تباطأ الدنمركيون فى تنفيذ هذه الشروط استأنف شارل الحرب ، وحاصر كوبنهاجن . وعقد العزم الآن على خلع فردريك الثالث ، وتوحيد الدنمرك والسويد والنرويج من جديد تحت تاج واحد .

ولكن القوة البحرية هزمته . ذلك أن إنجلترا والأقاليم المتحدة ، وهما أعظم أمم العصر البحرية آنذاك ، اتفقتا الآن - رغم ما بينهما عادة من عدااء - على ألا تقبض أى دولة من الدول على مفتاح البلطيق بالهيمنة على الساوند بين الدنمرك والسويد . وفى أكتوبر اقتحمت قوة هولندية الساوند ، ورفعت الحصار عن كوبنهاجن ، وسأقت أمامها الأسطول السويدى الصغير الى ثغوره فى أرض الوطن . وأقسم شارل أن يقاتل الى النهاية . ولكن الشدائد التى عاناها فى حملاته كانت قد فعلت فيه فعلها ، فبينما كان يخطب الديت السويدى فى جوتيبورج أخذته الحمى . وما لبث أن قضى نحبـه فى ربيع حياته (١٣ فبراير ١٦٦٠) .

وكان ابنه شارل الحادى عشر (١٦٠٠ - ٩٧) لا يزال فى الخامسة ، فاضطلع بالحكم مجلس وصاية أنهى الحرب بصلح اوليفا

ومعاهدة كوبنهاجن (مايو ، يونيو ١٦٦٠) . ونزلت الملكية البولندية عن دعاوها فى تاج السويد ، وثبتت تبعية ليفونيا للسويد ، ونالت براندنبورج الحق الكامل فى بروسيا الشرقية ، واحتفظت السويد بمقاطعاتها الجنوبية (سكانى) وأقاليمها على أرض القارة (بريمن ، وفيردن ، وبومرانيا) ، ولكنها انضمت الى الدنمرك فى ضمان حق السفن الأجنبية فى دخول البلطيق . وبعد عام وقعت السويد وبولنده فى كارديس صلحا فاترا مع قيصر الروس . واستمر الصراع على البلطيق خمسة عشر عاما بوسائل أخرى غير الحرب .

كانت هذه المعاهدات نصرا لا يستهان به للسويد ، ولكن البلاد أشرفت مرة أخرى على الإفلاس . وكافح عضوان من مجلس الوصاية هما جوستاف بوندى وبير براهى للحد من النفقات الحكومية ، ولكن المستشار ماجنس دى لا جاردى أضاف الى الديون القديمة ديونا جديدة ، وأتاح للنبل ولأصدقائه ولنفسه جنى المنافع على حساب الخزانة ، وفى سبيل تلقى المعونة المالية ربط السويد بحلف مع فرنسا (١٦٧٢) قبل أن ينقض لويس الرابع عشر على الاقاليم المتحدة ، خليفة السويد ، بأيام معدودات فقط . وما لبثت السويد أن وجدت نفسها تخوض حربا ضد الدنمرك ، وبراندنبورج ، وهولنده . وهزمت على يد الناخب الأكبر فى فيربيلن (١٨ يونيو ١٦٧٥) ، واجتاح أعداؤها أقاليمها القارية ، وغزا جيش دنمركى « سكانى » من جديد . ونكبت البحرية السويدية بكارثة تجاه أولاند « ١ يونيو ١٦٧٦ » .

وانقذ السويد ملكها الشاب شارل الحادى عشر ، الذى اضطلع الآن بزمام الأمر ، وذلك بسلسلة من الحملات ألهمت فيها بسالته الشخصية جنوده ، فدحروا الدنمركيين فى لوند ولانديسكرون . وبفضل هذين الانتصارين وتأييد لويس الرابع عشر استردت السويد كل ما فقدته . وتعاون بطل جديد من أبطال الدبلوماسية السويدية ، هو الكونت يوهان جيلنشتيرنا ، مع الكونت جريفنفلد - لا فى الترتيب لصلح بين السويد والدنمرك فحسب ، بل فى ابرام حلف عسكرى وتجارى بينهما . واتفقت الدولتان على عملة مشتركة ، وكانت الوحدة الاسكندنافية كلها قاب قوسين أو أدنى حين قطع هذا التطور موت

جيلنشتييرنا وهو فى الخامسة والأربعين (١٦٨٠) . وحافظت الأمتان على السلام عشرين عاما .

وكان جيلنشتييرنا قد علم الملك الشاب أن السويد لن تستطيع الأبقاء على مكانتها بين الدول العظيمة اذا مضى نبلاؤها فى التهام أراضي التاج ، وهو أمر يهوى بالملكية الى ذل الفقر وبالدولة الى درك العجز . وفى ١٦٨٢ اتخذ شارل الحادى عشر خطوة حاسمة . فاستأنف بتأييد من رجال الدين والفلاحين وأهل المدن ، فى تدقيق وشمول يحفزهما السخط « اختزال » أراضي النبلاء ، أى استرداد ما فقدته الملكية من ضياعها . ثم حقق فى فساد الموظفين وعاقبه ، وبلغ بإيرادات الدولة النقطة التى أتاحت للسويد القدرة من جديد على الاحتفاظ بممتلكاتها والاضطلاع بتبعاتها . ولم يكن شارل الحادى عشر بالملك المحبب جدا الى شعبه ، ولكنه كان ملكا عظيما . فلقد أثر انتصارات السلام الأقل ضجيجا على انتصارات الحرب ، وذلك رغم ما خلف فى الحرب من سجل يحسده عليه الكثيرون . وقد وطد حكم الملكية المطلق ، ولكن هذا النظام كان يومها البديل لاقطاعية رجعية فوضوية .

وفى هدوء هذه الهدنة الصافية ازدهرت علوم السويد وآدابها وفنونها . وبلغت العمارة السويدية أوجها فى القصر الملكى الفخم الضخم باستوكهولم ، الذى صممه (١٦٩٣ - ٩٧) نيقوديموس تيسين . وكان لارس يوهانسون للسويد بمثابة ليوباردى (الايطالى) ومارلو (الانجليزى) مجتمعين ، فهو يتغنى غناء شجيا بكراهية الانسان ، ويلقى حتفه بطعنات السلاح فى شجاريحان قضي عليه وهو بعد فى السادسة والثلاثين . وقد ألف جونو دالشتيرنا ملحمة شعرية ببحر دانتي سماها Kunga Skald (١٦٩٧) اشادة بمآثر شارل الحادى عشر . ومات الملك فى تلك السنة ، بعد أن أنقذ وعمر بلدا كاد يدمره من بعده ابنه الأشهر منه .

وكان هذا الابن ، شارل الثانى عشر ، قد بلغ الخامسة عشرة . ولما كانت خريطة أوربا يعاد رسمها آنئذ بالدم والحديد ، فقد درّب أولا وقبل كل شيء على فنون القتال . فهيأته العابه كلها للأعمال العسكرية ، وتعلم الرياضيات فرعا من العلوم الحربية ، وقرأ من اللاتينية ما يكفيه

لان يستوحى من سيرة الاسكندر التى كتبها كنتومس كورتىوس طمـوح
التفوق فى السلاح ان لم يكن الطمـوح لغزو العالم . واذ كان فارغ القامة ،
وسـيما ، قويا ، لا يثقل بدنه درهم زائد من لحم وشحم ، فقد استمتع
بحياة الجنـدى ، وتجلد لما فيها من حرمان ، وهزا بالخطر والموت ،
وتطلب هذه الصلابة عينها فى جنـده . ولم يابه كثيرا بالنساء ، فلم
يتزوج قط وان خطبت وده الكثيرات . وكان يصيد الدببة وسلاحه شوكة
خشبية ثقيلة لا أكثر ، ويركب خيله بسرعة طائشة ، ويمسح فى مياه
تغطى الثلوج نصفها ، ويلتذ المعارك الزائفة التى كاد هو وأصدقـاؤه
يلقون حتفهم فيها غير مرة . وقد رافقت بسالته العنيدة وحيويته البدنية
بعض فضائل الخلق والعقل : صراحة تزدرى الأعيـب الدبلوماسية ،
واحساس بالشرف تشوبه لحظات شاذة من القسوة الوحشية ، وعقل
يلتقط لب الأمور لتوّه ، ولا يطبق المداخل الملتوية فى التفكير أو
التدبير ، وكبرياء صموت . لم يغب عنها قط محتده الملكى ولم تعترف
قط بالهزيمة . وآية ذلك انه فى حفلة تتويجه توج نفسه بيده على طريقة
نابليون ، ولم يقطع على نفسه يمينا تحدد من سلطته ، فلما تشكك أحد
رجال الدين فى صواب خلع السلطة المطلقة على فتى لم يتجاوز
الخامسة عشرة ، حكم عليه شارل أولا بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى
السجن المؤبد .

كانت السويد يوم ارتقى عرشها دولة قارية كبرى ، تحكم فنلنده ،
واينجريا ، واستونيا ، وليفونيا ، وبومرانيا ، وبريمن ، وكانت تهيمن
على البلطيق وتقوم سدا حائلا بين روسيا وبين ذلك البحر . وراى روسيا ،
وبولنده ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، فى حادثة سن ملك السويد
فرصة لمد حدودها دعما لتجاريتها ومواردها . وكان « العامل الهدام »
فى هذا الحل الجغرافى فارسا ليقونيا يدعى يوهان فون باتكول ، انخرط
فى سلك الجيش السويدى بوصفه من رعايا السويد ، وارتقى الى رتبة
النقيب . وفى ١٦٨٩ و ١٦٩٢ احتج بشدة على « اختزال » شارل الحادى
عشر لضياـع النبلاء فى ليفونيا ، فاتهم بالخيانة ، وفر الى بولنده ، ثم
التمس من شارل الثانى عشر أن يعفو عنه فرفض ، وفى ١٦٩٨ اقترح
على أوغسطس الثانى ملك بولنده وسكسونيا تأليف حلف ضد السويد من
بولنده ، وسكسونيا ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، وروسيا . وراى

أوغسطس أن الخطة جاءت في أوانها ، فاتخذ الخطوة الأولى بالدخول في حلف مع ملك الدنمرك فردريك الرابع (٢٥ سبتمبر ١٦٩٩) . وذهب باتكول الى موسكو . وفي نوفمبر وقع بطرس الأكبر مع مبعوثي سكسونيا والدنمرك اتفاقا لتقطيع أوصال السويد .

٢ - بولنده وسويسكى : ١٦٤٨ - ٩٩

في مستهل هذه الحقبة أثر حدثان تأثيرا عميقا في تاريخ بولنده ففي ١٦٥٢ هزم عضو واحد من أعضاء البرلمان البولندى Sejm للمرة الأولى قانونا بممارسته حق « الفيتو المطلق » ، الذي كان يسمح لأي نائب في ذلك البرلمان بإبطال قرار أية أغلبية . ذلك أن النظام في الماضي كان يشترط موافقة جميع الأقاليم قبل اقرار أى قانون ، وكانت أقلية ضئيلة أحيانا تجعل التشريع مستحيلا ، ولكن فردا من الأفراد لم يؤكد الى ذلك الحين الحق في نقض اقتراح يقبله الباقون كلهم . وقد استطاع « الفيتو المطلق » لنائب واحد أن « ينسف » أو ينهى ثمانى وأربعين دورة من الدورات الخمس والخمسين التى عقدها البرلمان بعد ١٦٥٢ . وقد افترضت الخطة أنه ما من أغلبية تستطيع بحق أن تطغى على أقلية مهما صغرت . ولم يكن مبعثها النظرية الشعبية بل الكبرياء الاقطاعية ، اذ اعتبر كل مالك نفسه سيدا أعلى في أرضه . وأسفر هذا عن أكبر قدر من الاستقلال المحلى والعقم الجماعى . ولما كان الملوك خاضعين للبرلمان ، والبرلمان خاضعا للفيتو المطلق ، فقد كانت السياسة القومية المتسقة ضريبا من المحال عادة . وبعد تسع سنوات من الفيتو الأول تنبأ الملك جون كازيمير للبرلمان بنبؤة لافئة للنظر ، قال :

« أتمنى على الله أن يتبين أننى نبي كذاب ، ولكنى أقول لكم انكم ان لم تجدوا علاجا لهذا الشر (أى الفيتو المطلق) فستغدو الدولة فريسة للدول الأجنبية . سوف يحاول الموسكوفيون ان يقطعوا بالاتينانتا الروسية ربما الى الفستولا . وسوف يحاول البيت المالك البروسي الاستيلاء على بولنده الكبرى . وسوف تلقى النمسا بثقلها على كراكو . وسوف تؤثر كل من هذه الدول اقتسام بولنده دون الاستيلاء عليها كلها ولها هذه الحزبات التى تتمتع بها اليوم » (٢) .

وقد تحققت هذه النبوءة بحذافيرها تقريبا .

وكانت ثورة القوزاق فى أوكرانيا (١٦٤٨) حدثا لا يفوقه فى أهميته التاريخية سوى هذا الفيتو . ذلك أن دمج لتوانيا مع بولنده فى « اتحاد لوبلين » (١٥٦٩) أخضع اقليم أوكرانيا ، الذى يجرى فيه نهر الدنيبر ، لحكم غلب عليه العنصر البولندى ، وكان أكثر سكان الاقليم من قوزاق زابوروج الذين ألفوا الاستقلال وتمرسوا بالحرب . وحاول النبلاء البولنديون الذين ابتاعوا الأرض فى أوكرانيا أن يرسوا فيها أمس الأحوال الاقطاعية ، وثبّط الكاثوليك البولنديون ممارسة تلك الحرية التى كفلها اتحاد لوبلين للعبادة الارثوذكسية . وانبعثت ثورة من ثورات القوزاق من هذا المركب من أسباب السخط والتذمر ، وتزعّمها حيناً زعيم حربى (هتمان) غنى يدعى بوجدان شميلنيكى ، وناصرها تتار القرم المسلمون . وفى ٢٦ مايو ١٦٤٨ دحر التتار والقوزاق الجيش البولندى الرئيسى فى كورسون ، وسرت الحماسة للثورة بين الاغنياء والفقراء على السواء .

وقد خلفت وفاة لاديسلاس الرابع فى ٢٠ مايو عرش بولنده فى هذه الأثناء مثارا لنزاع بين النبلاء استمر حتى ٢٠ نوفمبر ، حين اختارت هيئة الديت الانتخابية جون الثانى كازيمير . أما شميلنيكى فقد خشي ألا تستطيع الثورة الصمود للجيش البولندية المعززة الا بقبول المعونة والسيادة الأجنبية ، فاخترت الاستنجاد بروسيا الارثوذكسية . وعرض أوكرانيا على القيصر الكسيس ، ورحبت الحكومة الروسية بالعرض وهى عليمة بأن معناه الحرب مع بولنده ، وبمقتضى « قانون بيرياسلاف » ١٨ يناير ١٦٥٤ ، انضوت أوكرانيا تحت الحكم الروسى . وكفل للاقليم الاستقلال الذاتى تحت حكم زعيم حربى ينتخبه القوزاق ويصدق على انتخابه القيصر .

وفى الحرب التى تلت ذلك بين بولنده وروسيا ، حول تتار القرم الذين أثروا أوكرانيا بولندية على أوكرانيا روسية - حولوا معونتهم من القوزاق الى البولنديين . وفى ٨ أغسطس ١٦٥٥ استولى الروس على فلنسو ، وذبّحو آلافا من الأهالى ، وأحرقوا المدينة وسوها بالتراب . وبينما كان البولنديون يدافعون عن أنفسهم على جبهتهم الشرقية ، قاد شارل العاشر

جيشا سويديا الى غربي بولنده واستولى على وارسو (٨ سبتمبر) .
وانهارت المقاومة البولندية . وأعلن النبلاء البولنديون ، بل حتى
الجيش البولندي ، الخضوع للفتح وأقسموا يمين الولاء له (٣) . وأرسل
له كرومويل تهانته لأنه قبض على أحد قرون البابا (٤) ، وأكد شارل
لـ « حامى الجمهورية » (كرومويل) أنه عما قليل لن يبقى فى بولنده
بابوى واحد (٥) ، ومع ذلك وعد بالتسامح الدينى فى بولنده .

على أن خططه أحبطها جيشه الظافر . ذلك أنه الجيش أفلت
زمامه ، فراح ينهب المدن ويذبح السكان ويسلب الكنائس والأديار . وقاوم
الحصار دير ياسنا جورا ، القريب من تشستوتشوا ، مقاومة باسلة ، وأثار
نجاحه الذى عد من المعجزات حماسة الجماهير الدينية ، وأهاب الكهنة
الكاثوليك بالامة أن تطرد الغزاة الكفار ، وبادر الفلاحون الى امتشاق
الحسام ، ففرت الحامية التى تركها شارل فى وارسو أمام الحشد الزاحف
وأعيد كازيمير الى عاصمته (١٦ يونيو ١٦٥٦) وانقلب التتار على
روسيا ، ووقعت روسيا هدنة مع بولنده مؤثرة جبرتها على جيرة السويد
(١٦٥٦) . وأفضى موت شارل العاشر فجأة الى صلح أوليفا (٣ مايو
١٦٦٠) الذى أنهى الحرب بين بولنده والسويد . وفى ١٦٥٩ استؤنف
الصراع مع روسيا . وبعد ثمانية أعوام من الفوضى والحملات وذبذبات
الولاء القوزاقى ، نالت روسيا بمقتضى صلح أندروسوفو (٢٠ يناير
١٦٦٧) سمولينسك ، وكيف ، وأوكرانيا شرقى الدنيير . وظلت تجزئة
أوكرانيا على هذا النحو سارية حتى التقسيم الأول لبولنده (١٧٧٢) .

ثم اعتزل جون كازيمير عرش بولنده (١٦٦٨) بعد أن أرهقته
الحرب وأضناه الفيتو مطلق ، واعتكف فى نيفير بفرنسا ، وعاش حياة
هادئة بين الدرس والصلاة الى أن مات (١٦٧٢) . وخاض خلفه ميخائيل
فسنيوفيكى حربا مدمرة مع العثمانيين ، وبمقتضى صلح بوكراكر
(١٦٧٢) اعترفت بولنده بالسيادة العثمانية على أوكرانيا الغربية ،
وتعهدت بأداء جزية سنوية للسلطين تبلغ ٢٢٠.٠٠٠ دوكاتية . وفى تلك
الحرب اكتشفت بولنده عبقرية جان سوبيسكى الحربية ، فلما مات
فسنيوفيكى (١٦٧٣) ، انتخب الديت أعظم ملوك بولنده قاطبة
(١٦٧٤) بعد أن ضيع وقتا ثميننا على عادته .

أما جان هذا - الذى يسمى الآن يوحنا الثالث - فكان يبلغ الرابعة والأربعين اذ ذاك . وقد حالفه الحظ فى مولده ، لأن أباه كان الحاكم العسكرى لكراكو ، أما أمه فكانت حفيذة القائد البولندى ستانسلاس زولكيفسكى الذى استولى على موسكو فى ١٦١٠ ، وكان حب الحرب ييمرى فى دم جان . وبفضل تعليمه فى جامعة كراكو وأسفاره فى ألمانيا والأراضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا ، حيث قضى بباريس قرابة عام ، أصبح رجلا مثقفا فضلا عن بسالته ومهارته الحربيتين . وفى ١٦٤٨ مات أبوه ، عقب اختياره ممثلا لبولنده فى معاهدة وستفاليا . وسارع جان بالعودة الى أرض الوطن ، وانضم الى الجيش البولندى فى قتال الثوار القوزاق . ولما غزا السويديون بولنده ، وفر جان كازيمير ، كان سوبيسكى واحدا من الموظفين البولنديين الذين ارتضوا شارل العاشر ملكا على بولنده ، وظل يخدم عاما فى الجيش السويدي . ولكن حين ثار البولنديون على الغزاة عاد سوبيسكى الى ولائه القومى ، وأبلى فى الدفاع عن وطنه بلاء رفعه الى منصب القائد العام للجيش البولندية فى ١٦٦٥ . وفى تلك السنة تزوج المرأة الممتازة التى أصبحت نصف حياته والمشكل لسيرته .

هذه المرأة ، واسمها ماريا كازيميرا ، التى كان يجرى فى عروقتها الدم الفرنسى الملكى ، ولدت فى نيفير عام ١٦٤١ ، وربيت فى فرنسا وبولنده . وفى وارسو يوم كانت فى الثالثة عشرة ألهب حشنها ومرحها عاطفة سوبيسكى وهو فى الخامسة والعشرين . ولكن سعود الحرب ونحوسها أقصته عنها ، فلما عاد وجدها زوجة لنبيل فاسق يدعى جان زامويسكى . واذا كانت ماريا مهملة من زوجها ، فقد قبلت سوبيسكى وصيفا مرافقا . ويبدو أنها حافظت على عهودها الزوجية ، ولكنها وعدت بالزواج من سوبيسكى حالما يفسخ زواجها من زامويسكى . على ان الزوج كفاها مئونة هذا الشرط بموته . وما لبث العاشقان أن تزوجا ، وأصبح غرامهما الطويل أسطورة فى التاريخ البولندى . وكان الكثير من النساء البولنديات ينافسن النساء الفرنسيات فى الجمع بين الجمال الكلاسيكى ، والشجاعة والذكاء القريبين من شجاعة الرجال وذكاؤهم ، والولع بصنع الملوك أو ارشادهم . وقد بدأت ماريا من يوم زواجها تخطط لى تبوىء سوبيسكى عرش بولنده .

وكان حبها أحيانا حبا لا يقيم وزنا لصوت الضمير كما قد يكون.
الحب . ففي ١٦٦٩ يبدو أن سويسكى قبل المال الفرنسي ليؤيد كريدنالا
فرنسيا ضد فسنيوفيكى . وبعد انتخاب ميخائيل انضم جان الى غيره من.
النبلاء فى مؤامرات تستهدف خلع الملك لانه جبان لا يصلح للدفاع عن
بولنده ضد العثمانيين ولا رغبة له فى هذا الدفاع . وقاد بنفسه رجاله الى
انتصارات أربعة خلال عشرة أيام . وفى ١١ نوفمبر ١٦٧٣ ، وهو اليوم
الذى مات فيه الملك ، دحر سويسكى العثمانيين فى خوتين ببسارابيا .
وجعله هذا النصر المرشح المنطقى لعرش لا قبل الآن بدفع الأعداء
المحدثين به من كل جانب الا لأصلب القتال وأشدّه تصميمًا . ولكى يدعم
المنطق حضر الى هيئة الديت الناخبة على رأس ستة آلاف مقاتل . ولعب
المال الفرنسي دورا فى انتخابه ، ولكن هذا كان يتفق وسنة العصر تمام
الاتفاق .

ولقد كان ملكا بجسمه وروحه كما كان باسمه . وصفه الأجانب بأنه
« من أكثر الرجال وسامة وأكملهم بنية » فى أوربا ، « له طلعة نبيلة
شماء ، وعينان تشعان نورا ونارا (٦) » قوى البدن، مثابر على الأنجاب،
متطلع العقل متيقظه . وقد حفز حبه الطبيعى للتملك اسراف حبيبته
ماريزنيكا ، ولكنه كثيرا ما عوض عن بخل البرلمان الشحيح بدفع رواتب
جنده من جيبه ، وبيع أملاكه ليشتري لهم البنادق (٧) . وقد استحق كل
ما أخذ ، لانه أنقذ بولنده وأوربا جميعا .

ذلك أن سياسته الخارجية كانت بسيطة فى هدفها ، وهو ردّ
العثمانيين الى آسيا ، أو على الأقل صد هجماتهم على معقل العالم
المسيحى الغربى بفيينا . وقد عاكس جهده هذا تحالف حليفته فرنسا مع
السلطان العثمانى ، ومحاولات الامبراطور أن يزوج به فى الحروب
التركية ، وكان ليوبولد الأول يأمل اذا وفق فى محاولاته هذه أن تطلق
يد النمسا فى تملك الأراضي الدانيوبية أو المجرية التى كانت كل من النمسا
وبولنده تدعى الحق فيها لنفسها . وبينما كان سويسكى يتحسس طريقه
غاضبا وسط هذه المتاهة ، تآقت نفسه لحرية تخطيط السياسة واصدار
الأوامر دون أن يكون خاضعا فى كل خطوة للبرلمان والفييتو المطلق .
وحسد لويس الرابع عشر والامبراطور على سلطتهما فى اتخاذ القرارات
بصورة قاطعة ثم اصدار الأوامر دون ابطاء .

وعقب انتخابه اضطلع باسترداد أوكرانيا الغربية من العثمانيين ، الذين تقدموا الآن شمالا حتى بلغوا لفوف . وهناك ، وبقوة لا تزيد على خمسة آلاف فارس ، هزم عشرين ألف تركي (٢٤ أغسطس ١٦٧٥) . وبمقتضى معاهدة زورافنو (١٧ أكتوبر ١٦٧٦) أكره العثمانيين على النزول عن حقهم المزعوم في الجزية ، والاعتراف بسيادة بولندية على أوكرانيا الغربية . ثم شعر بأن الفرصة مواتية لطرد القوة العثمانية من أربيا . فدعا الامبراطور للانضمام اليه في حرب ضروس يخوضانها مع الترك ، ولكن ليوبولد اعترض بأنه لا يملك تأكيدا بالآ يهاجمه لويس الرابع عشر في الغرب أن أرسل جيوشه الى الشرق ، ورجا سويسكى فرنسا أن تعطى النمسا هذا التأكيد ، ولكن لويس الرابع عشر أبى (٨) . وتحول سويسكى أكثر فأكثر الى التحالف مع النمسا . فلما حاول العملاء الفرنسيون رشوة البرلمان ضده فضح مؤامراتهم ونشر رسائلهم السرية . وفى رد الفعل التالى ضد فرنسا وقع البرلمان (١ أبريل ١٦٨٣) حلفا مع الامبراطورية ، واتفق على أن تحشد بولنده أربعين ألف مقاتل ، والامبراطورية ستين ألفا . فاذا حاصر العثمانيون فيينا أو كراكو ، خف الحليف لنجدة حليفه بقوته كلها .

وفى يوليو زحف العثمانيون على فيينا . وفى أغسطس غادر سويسكى والجيش البولندى وارسو بهذا الهدف المعلن ، وهو « أن يمضوا الى الحرب المقدسة ، وبردوا بعون الله الحرية القديمة لفينا المحاصرة ، فيعينوا بذلك جميع العالم المسيحى المتخاذل (٩) » . وبدا أن أنبل ما عرفت العصور الوسطى من فروسية قد بعث من جديد . ووصل البولنديون الى العاصمة المحاصرة فى الوقت المناسب ، لأن المرضى والجوع كادا يفتكان بأكثر المدافعين عنها . وقاد سويسكى بشخصه جيشي بولنده والامبراطورية المجتمعين فى معركة من أحسم المعارك فى التاريخ الأوروبى (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) . ولقى نصف البولنديين الذين تبعوه فى هذه الحرب الصليبية - وعددهم خمسة وعشرون ألفا - حتفهم فى المعركة أو فى طريقهم اليها .

ثم قفل الى بولنده مكللا بنصر يشوبه شعور الخيبة . واستقبلته وارسو فخورة به بطلا لأوربا ، ولكن الامبراطور كان قد خيَّب آماله فى
٢ - قصة الحضارة

تزويج ابنه من أرشيدوقة النمسا . ولكى يؤمن ملكا لابنه حاول فتح
ملدافيا ، وانتصر فى جميع المعارك الا معاركه مع الجو والقدر ، وعاد
الى بلده صفر اليدين .

ووسط ضجيج السياسة وصخبها ، وفى الفترات التى تخللت الحرب
جعل من بلاطه مركز احياء ثقافى . فلقد كان هو نفسه رجلا واسع الاطلاع:
درس جاليليو وهارفى ، وديكارت وجاسندى ، وقرا بسكال ، وكورنىي ،
وموليير . ومع أنه أيد الكنيسة الكاثوليكية باعتبار هذا التأييد سياسة
للدولة ، فإنه بسط الحرية الدينية والحماية على البروتستنت واليهود (١٠)
وأحبه اليهود كما أحبوا قيصر من قبل . وكان يريد ، وان لم يستطع ، أن
ينقذ من الموت رجلا من احرار الفكر أعرب عن بعض شكوكه فى وجود
الله (١٦٨٩) (١١) ، وكان هذا أول احراق لمهرطق فى تاريخ بولنده .
ثم مضت بولنده فى انجاب شعرائها ، ولكنها ظلت تستورد أكثر فنانيها
الافذاذ . فنظم فاكلاو بوتوكى ملحمة عن انتصار بولنده فى خوتين ،
وكتب فسبازيان كوشوفسكى ملحم مماثلة ، ومجموعة مزامير بولندية
فى نثر شعرى ، أما أندرزى مورزيتن ، فبعد أن ترحم « أمينتا » تاسو و
« سيد » كورنىي ، أظهر فى غنائياته تأثير الشعر الفرنسى والايطالى فى
بولنده . وقد شجع سويسكى التأثير الفرنسى ، لأنه كان معجبا بكل شيء
فى فرنسا الا سياستها . واستقدم المصورين والمثاليين الفرنسيين
والايطاليين ليعملوا فى وارسو ، واستخدم المعماريين ، ولا سيما
الأبطاليين منهم ، ليشيدوا قصورا بطراز الباروك فى فيلانوف ،
وزولكييف ، وبافوروف . وبنيت الكنائس الفخمة ابان حكمه : كنيسة
القديس بطرس فى فلنو وكنيسة الصليب المقدس والراهبات البندكتيات
فى وارسو . وأقبل أندرياس شلوتر من ألمانيا لحفر الخزارف للقصر
المبنى فى فيلانوف ، ولقصر كرازنسكى فى العاصمة . ووسط هذه
التأثيرات الغربية فى الفن ، غلب التأثير الشرقى فى اللبس والمظهر :
العباءة الطويلة والمنطقة العريضة الزاهية الالوان ، والشاربان المفتولان
الى أعلا كأنهما سيفان أحدهما .

وقد كدر صفاء شيخوخة الملك تمرد ولده يعقوب ، وعناد زوجته ،
وفشله فى جعل الملك وراثيا فى أسرته . وكان الفيتو المطلق سيفا مصلتا
فوق رأسه على الدوام . ولم يستطع أن يصلح من حال الفلاحين ، لأن

سادتهم سيطروا على البرلمان ، ولم يستطع اكراه الأغنياء على دفع الضرائب ، لأن الأغنياء كانوا هم البرلمان ، ولم يستطع السيطرة على النبلاء المشاغبين ، لأنهم أبوا أن يكون له جيش دائم . ومات من تبولن الدم فى ١٧ يونيو ١٦٩٦ ، لأكسير القلب كما زعمت الرواية ، بل أسفا على انحدار بلده الحبيب من قمة البطولة التى رفعه اليها .

وتخطى الديت ابنه وباع التاج الى فردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا ، الذى تحول فى غير عناء من البروتستنتية الى الكاثوليكية ليصبح أوغسطس الثانى ملك بولنده . وكان شخصية عجيبة فى ذاته . ويسميه التاريخ أوغسطس القوى ، لأنه كان الرياضي الشديد البأس فى جسمه وفراشه ، وقد نسبت اليه اسطورة انجاب ٣٥٤ طفلا غير شرعى (١٢) . وفى يناير ١٦٩٩ وقع فى كارلوفتز معاهدة نزلت بمقتضاها تركيا عن كل دعوى لها فى أوكرانيا الغربية . فلما شعر أوغسطس بالأمان فى الجنوب والشرق ، استمع الى باتكول ، وربط بولنده بحلف مع الدنمرک وروسيا لاقتسام السويد .

٣ - روسيا تتجه الى الغرب : ١٦٤٥ - ٩٩

استطاع كل من المتآمرين الثلاثة أن يخلق عذرا ويدعى استفزازا ما . فشارل العاشر ملك السويد كان قد حاصر كوبنهاجن وحاول فتح الدنمرک ، وغزا بولنده واستولى على عاصمتها ، وكان جوستافس ادولفس قد دعم قوة السويد فى ليفونيا واينجريا دعما أتاح له أن يتحدى روسيا أن تنزل زورقا فى البلطيق دون موافقة السويد . أما الدب الروسى الحبيس فكان يحرق الأرم لمراى المخارج كلها مغلقة فى الغرب ، والمنافذ الى البحر الأسود كلها يسدها التتار والترك . ولم يبق غير الشرق مجال لتحرك روسيا - الى سيبيريا ، وذلك يبدو الطريق الى الشدائد والهمجية . لقد كانت أسباب الراجة ومفاتن الحياة تومئ لروسيا أن تتجه غربا ، وكان الغرب مصمما على أن يبقى روسيا بلدا شرقيا .

وحين اعتلى الكسيس ميخايلوفتش رومانوف عرش القياصرة كانت روسيا لاتزال يطغى عليها طابع العبر الوسيط . فهى لم تعرف القانون الرومانى ، ولا انسانية النهضة الاوربية ، ولا اصلاح الحركة

البروتستنتية . وفى عهد الكسيس صيغ القانون الروسى من جديد (أولوزينى ١٦٤٩) لكن هذه الصياغة لم تكن أكثر من جمع وتنسيق للقوانين القائمة المبنية على الحكم المطلق واستقامة العقيدة الدينية . فمثلا ظل القانون يرى من الجريمة أن يتطلع انسان الى الهلال الجديد أو أن يلعب الشطرنج أو يغفل الذهب الى الكنيسة فى الصوم الكبير . وهذه الجرائم وعشرات غيرها تعاقب بالجلد . وكان الكسيس ذاته متعصبا فى دينه رغم ما فى طبعه من لطف وسماحة ، وكثيرا ما كان ينفق خمس ساعات كل يوم فى الكنيسة ، وقد انحنى فى احدى المناسبات ألفا وخمسمائة انحناء (١٣) . وكان يبتهج باطعام الشحاذين الذين يتجمعون حول قصره ، ولكنه كان يعاقب كل انشقاق سياسى أو دينى عقابا صارما ، ويفرض الضرائب الباهظة على شعبه ، ويسمح لاستغلال الفلاحين وفساد الحكومة أن يستشريا الى درجة أشعلت الثورة فى موسكو ، ونوفجورود ، ويسكوف ، وأهم من ذلك بين قوزاق نهر الدون . وقد ألف قوزاقى من هؤلاء يدعى ستينكا رازين عصابة لصوص ، وسلب الأغنياء وقتلهم ، ونصب نفسه سيدا على استراخان وزارتسين (التى أصبحت ستالنجراد) . ثم أقام جمهورية قوزاقية على الفولجا ، وهدد مرة بالاستيلاء على موسكو . وانتهى أمره بأن أسر وعذب حتى مات (١٦٧١) ، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملاك والحكومة .

على أن بعض المؤثرات العصرية سرت حتى الى هذه البيئة الوسيطة فقد اقتضت الحروب مع بولنده اتصالات أكثر مع الغرب . وأقبل الدبلوماسيون والتجار فى أعداد متزايدة من بلاد أطلق عليها الروس اسم « أوربا » . وشهد نهر دويينا وثغرا ريجا وأركانجل تجارة نامية مع الدول الغربية . ودعى الفنيون الأجانب لتطوير المناجم ، وتنظيم الصناعة ، وصنع السلاح . ونمت مستوطنة كاملة للمهاجرين حوالى ١٦٥٠ فى أحد أحياء موسكو ، وجلب الألمان والبولنديون مسحة من الأدب والموسيقى الغربيين الى هذه المستوطنة ، وزودوا الأسر الروسية بمحرمين خصوصيين للاتينية . وكان للكسيس نفسه أوركسترا ألمانى . وقد منح لوزيره أرتامون ماتيفيف باستيراد الآلات الغربى والعبادات الفرنسية ، الى حد اية اختلاط النساء بالرجال فى المجتمع ، ولمسا :

بعث السفير الروسي لدى دوق توسكانيا الأكبر الى الكسيس أوصافاً للدرامات والأوبرات والباليهات الفلورنسية ، سمح الكسيس ببناء مسرح فى موسكو ويعرض المسرحيات ، لا سيما المقتبسة من الكتاب المقدس .
وقد سبقت احداها ، وهى « استير » ، تمثيلية راسين التى تحمل هتفا الاسم بسبعة عشر عاما . ولما شعر الكسيس أنه أذنب باختلافه الى هذه الحفلات التمثيلية ، ذكرها لكاهن اعترافه ، فأباح له هذه المتع الجديدة (١٤) . وتزوج ماتيف سيدة اسكتلندية تنتمى لأسرة هاملتن الشهيرة ، وقد تبنيأ وربيا يتيمة روسية تدعى ناتاليا نارويشكينا ، وقد اتخذها الكسيس زوجة ثانية له .

على ان مغامرات التغريب هذه أثارت رد فعل وطنيا ، فشجب بعض الروس الارثوذكس دراسة اللاتينية باعتبارها شرا قد يغرى الشباب بالافكار غير الارثوذكسية . وأحس الجيل المخضرم أن أى تغيير فى العادات أو الايمان أو الطقوس يزيح حجرا فى بناء المجتمع ، ويقلقل الاحجار كلها ، وقد يهوى بعد حين بالبناء المزعزع كله ويحيله خرابا . وكان الدين فى روسيا يعتمد على الطقوس اعتماده على العقيدة . ومع أن قدرة الجماهير على تفهم الأفكار كانت الى ذلك الحين محدودة جدا ، فقد أمكن تدريبها على الطقوس الدينية التى اعان تكرارها المنوم على الاستقرار والسلام الاجتماعيين والنفسيين . ولكن التكرار يجب أن يكون دقيقا حتى يحدث الأثر المنوم ، وأى تغيير فى التتابع المألوف قد يحطم التعويذة المهدئة ، ومن هنا كان لابد من بقاء كل تفاصيل المراسم الدينية ، وكل كلمة من كلمات الصلوات ، على حالها كما كانت منذ قرون . وقد وقع خلاف من أشد الخلافات والانقسامات مرارة فى التاريخ الرومى حين أدخل نيكون ، بطريرك موسكو ، على الطقوس بعض الاصلاحات المبنية على دراسة للممارسات والنصوص البيزنطية . فقد دله الاكلييريكيون الذين درسوا اليونانية على اخطاء كثيرة فى النصوص التى تستعملها الكنيسة الروسية ، فأمر نيكون بمراجعة النصوص والطقوس وتنقيحها ، فمثلا تقرر أن يكتب اسم يسوع بعد ذلك *Iesus* بدلا من *Iesus* ، وأن ترسم علامة الصليب بثلاثة أصابع لا أصبعين ، وأن يخفض عدد المطانيات (الركعات) فى صلاة معينة من اثنتى عشرة الى أربع ، وأن تحططس الأيقونات التى يظهر فيها التأثير الايطالى ويستبدل بها أيقونات تتبع

النماذج البيزنطية . وتقرر بصفة عامة أن يطابق مطابقة أوثق بين الشعائر الروسية وأصولها البيزنطية . وقد أنزلت رتب بعض رجال الكنيسة الروس الذين أبوا قبول هذه التغييرات أو أوقع عليهم الحرم أو نفوا الى سيبيريا . وساعت القيصر أساليب نيكون الدكتاتورية ، فنفاه في ١٦٦٧ الى دير ناء . وانقسمت الكنيسة الروسية الى حزبين ، فاما الكنيسة الرسمية التي يؤيدها الكسيس فقد قبلت الاصلاحات ، واما المخالفون (راسكولنيكي) أو قدامى المؤمنين (ستاروفيرتسي) فقد تطوروا الى هيئة منشقة اضطهدتها الارثوذكسية الجديدة بالنار والحديد . وقد أحرق زعيمهم أفاكوم على الخازوق (١٦٨١) بأمر القيصر فيودور . وقتل كثيرون من قدامى المؤمنين أنفسهم مؤثرين الموت على دفع الضرائب لحكومة كانت في نظرهم عدوا للمسيح . وهذه الفوضى الدينية كانت بعض التركة التي ورثها بطرس الأكبر .

ومهد موت الكسيس (١٦٧٦) لصراع عنيف بين أبنائه . فقد خلف من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكى ولدا عليلا يدعى فيودور (المولود في ١٦٦٢) ، وآخر أعرج نصف أعمى ونصف معتوه يدعى ايفان (المولود في ١٦٦٦) ، وست بنات كانت أكفاهن وأشدهن طموحا صوفيا الكسيفنا (المولودة في ١٦٥٧) . وخلف من زوجته الثانية ناتاليا نارويشكينا ولده الأشهر بطرس (المولود في ١٦٧٢) . وورث فيودور العرش ، ولكنه مات في ١٦٨٢ . وأراد البويار (النبلاء الروس) أن يولوا بطرس عرش القيصرية ، بوصاية أمه ، لما رأوه من عجز ايفان الشديد . ولكن أخوات بطرس لأبيه كن يكرهن ناتاليا ويخشين أن يهملن تحت حكمها ، فحرضن جنود حامية موسكو (السترلتسي) ، تتزعمهن صوفيا ، على أن يغزوا الكرملين ويصروا على تنصيب ايفان . وناشد ماتفييف ، حاضن ناتاليا ، الجند أن ينسحبوا ، فانتزعوه من قبضة بطرس ، وقتلوه على مرأى من الصبي ذي العشرة الاعوام ، وقتلوا أخوة ناتاليا ونفرا من أنصارها ، وأكروهو البويار على قبول ايفان قيصرا ، يشاركه بطرس تابعا له ، وصوفيا وصية عليه . ولعل هذه الفظائع أسهمت في إصابة بطرس بتلك التشنجات التي نغصت حياته فيما بعد ، وهي على أي حال أعطته دروسا لا تنسى في العنف والوحشية .

واعتكفت ناتاليا مع بطرس فى احدى ضواحي موسكو المسماة
بريوريرازينسكى . وحكمت صوفيا البلاد بكفاية . وقد استنكرت عزل النساء
فى مساكنهن (التيريم اى الحريم terem) ، وظهرت امام الناس سافرة ،
ورأست فى غير خشية اجتماعات الرجال حيث راح الشيوخ يهزون
رعوسهم أسفا وحسرة على هذه الوقاحة ، ولكنها كانت قد تلقت من التعليم
أكثر من معظم الرجال المحيطين بها ، وكانت ميالة الى الاصلاح والى
الأفكار الغربية ، واختارت رئيسا لوزرائها ، وربما عشيقا لها ، رجلا
افتتن بحياة الغرب . وكان هذا الرجل ، وهو الأمير فازىلى
جوليتسين ، يكتب اللاتينية ، ويعجب بفرنسا ، ويحمل قصره بالصور
وقطع نسيج جويلان المرسومة ، ويقتنى مكتبة كبيرة تضم كتباً لاتينية
وبولندية وألمانية . والظاهر أن قدوته وتشجيعه كان لهما الفضل فى بناء
ثلاثة آلاف مسكن حجرى بموسكو فى سنوات وصايته السبع ، فى حين
كانت كل البيوت تشاد قبل ذلك بالخشب . ويبدو أنه كان يخطط لعتق
أرقاء الأرض (١٥) . وفى عهده ألغى الاسترقاق بسبب الدين ، وكفّت
الحكومة عن دفن القتلة أحياء ، وألغيت عقوبة الاعدام على التفوه
بعبارات التحريض . على أن جهوده فى الاصلاح أودى بها فشله فى قيادة
الجيش ، فقد أعاد تنظيمه وقاده مرتين ضد الترك ، وفى الحالتين أساء
ادارة تموين الجند ، فعادوا مهزومين متمردين ، وأعطى سخطهم
بطرس الاشارة للقبض على زمام السلطة .

٤ - بطرس يتعلم

كان يتلقى التعليم من أمه ، ومن معلميه الخصوصيين ، ومن جولاته
فى شوارع موسكو . ولم يكن مبكر النضج ، ولكنه كان تواقا الى العمل ،
طلعة ، ذكيا ، بهرته الآلات المجلوبة من الغرب كالساعات ، والاسلحة ،
والآدوات . وهفت نفسه الى روسيا تنافس الغرب فى فنون الصناعة
والحرب . وكان يحب لعب الألعاب الحربية مع رفاقه الخشنيين - كبناء
القلاع ، ومهاجمتها ، والدفاع عنها . وحلم بحرية روسية قبل أن يتاح
لروسيا الوصول الى بحر لا يتجمد ؛ فبنى قوارب أكبر فأكبر ، حتى
اضطر الى رحلة ثمانين ميلا من موسكو ليجد فى بيريسلافل بحيرة
يستطيع أن يعوم فيها أسطوله الصغير .

فلما اشتد عوده ازداد ضيقه بهيمنة أخت غير شقيقة ، اغتصبت مع
فازيلي جوليتسين سلطة ايفان وسلطته . وفى ١٨ يوليو ١٦٨٩ ، انضم
بطرس الى ايفان فى الموكب الذى كان يحتفل كل سنة بتحرير موسكو
من قبضة البولنديين . ومشت صوفيا فى الموكب على غير ما قضت به
التقاليد . فأمرها بطرس ، وقد بلغ الآن السابعة عشرة ، أن تنسحب ،
ولكنها أصرت على السير ، فغادر المدينة غاضبا ، وبحث عن حلفاء ضد
الوصية . فوجدهم فى « البويار » الذين لم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم
على الرضى بحكم امرأة ، وفى حامية موسكو (الستريلتسي) ، التى كان
رجالها على استعداد للخدع الحربية والاملاب بعد أن صدتهم صوفيا غير
مرة . وحرك بوريس جوليتسين ، ابن عم الوزير ، الانقلاب بارساله
رسالة مزورة الى بطرس زعمت أن صوفيا تدبر القبض عليه . وفر بطرس
وتبعته أمه ، وأخته ، وزوجته التى تزوجها مؤخرا ، الى دير ترويتسكو
- مرجيفسكايا ، على خمسة وأربعين ميلا من موسكو . ومن هناك أرسل
الأوامر لكل كولونيل فى الحامية بالذهاب الى الدير المذكور . ونهتهم
صوفيا عن الذهاب ، ولكن كثيرين ذهبوا . وسرعان ما أقبل زعماء
الأشراف ، ثم يواقيم بطريرك موسكو . واستدعى فازيلي جوليتسين ،
فخضع ، ونفى الى قرية قريبة من أركانجل . وقبض على نفر من مؤيدي
صوفيا ، وعذب بعضهم ، وأعدم آخرون . وكتب بطرس لايفان يستأذنه
فى تقلد زمام الحكم ، فأعطى ايفان الاذن أو افترض أنه أعطاه ، وأمر
بطرس صوفيا أن ترحل الى دير للراهبات ، فاحتجت ، وتمردت ، ثم
استسلمت . وهناك زودت بكل أسباب الراحة وبالخدم الكثيرين ، ولكن
حظر عليها أن تبرح الدير . وفى ١٦ أكتوبر ١٦٨٩ دخل بطرس موسكو ،
ورحب به ايفان ، فتقلد زمام السلطة العليا . واعتزل ايفان الحياة العامة
فى لباقة ، ومات بعد سبع سنوات .

على أن بطرس لم يكن قد تهيأ بعد للحكم . فترك الحكومة لبوريس
جوليتسين المتزمت الرجعى ، وليواقيم ، وغيرهما ، بينما انفق هو
كثيرا من وقته فى المستوطنة الأجنبية . وهناك صنع أصدقاء جددا كانوا
ذوى أثر قوى فى تطوره . ومن هؤلاء باتريك جوردون الاسكتلندى ،
المقاتل المغامر الذى كان الآن ضابطا فى الجيش الرومى وهو فى الخامسة
والخمسين ، ومنه تعلم بطرس المزيد عن فنون الحرب . ثم فرانسوا

ليفور ، الذى ولد فى جنيف ، وكان الآن لواء فى الرابعة والثلاثين . وقد ابتهج القيصر الشاب بحسن طبعته وسرعة خاطره وأساليبه اللطيفة ، وكان يتناول الطعام معه مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، الأمر الذى أفرز أهل موسكو ، فهم ينظرون الى جميع الأجانب نظرتهم الى المهرطقين للشرار . وقد فضل بطرس هشة هذين الأجانبين على عشرة الروس ، لأنه رآهما أكثر تحضرا وإن لم يقلا عن الروس أمرا فى الشراب ، وقد تأق الروس كثيرا فى معارفهما الصناعية والعلمية والحربية ، وكان حديثهما أرقى وملاهيتهما أرفع . ولاحظ بطرس تسامحهما المتبادل فى أمور الدين - فجوردون كان كاثوليكيًا ، وليفور بروتستانتيا - ووقف فى ابتسام عرابا للأطفال الكاثوليك والبروتستانت على السواء عند جرن المعمودية . ثم تعلم من لغتى اللسان والهولنديين ما يكفى لتحقيق أهدافه .

أما أهدافه هذه فهي أن يجعل روسيا شديدة البأس فى الحرب ، منافسة للغرب فى فنون السلم . لقد تعلم من النزيل الهولندى ، البارون جون كيلر ، كيف حافظ الهولنديون على ثروتهم وقوتهم ببناء السفن الجيدة . وتاقت نفسه لإيجاد منفذ الى البحر ، ولبناء أسطول بحرى . ولم يكن له منفذ بحرى الا فى أركانجل ، التى كان يكتنفها الجليد نصف العام . ومع ذلك اتخذ طريقه اليها فى ١٦٩٣ . واشترى سفينة حربية هولندية رأسية فى الميناء ، فلما تغلب على خوفه من البحر وأبحر على هذه السفينة أسكرته الفرحة ، وكتب الى ليفور يقول : « ستقودها أنت ، وسأخدم أنا بحارا بسيطا فيها (١٦) » . وارتدى سترة قبطان هولندى ، واختلط مغتبطا بالبشارة الهولنديين فى حانات الثغر . لقد كان الهواء المالح الذى هب عليه من ذلك البحر البارد نسمة منعشة من الغرب ، من ذلك الاقليم ، اقليم الصناعة والمنعة والعلم والفن ، الذى كان يناديه فى أغراء يزداد قوة يوما بعد يوم .

وكان هناك طريقان عمليان الى الغرب : أولهما طريق البلطيق الذى تسده السويد وبولنده ، وثانيهما طريق البحر الأسود ، الذى يمدّه التتار والترك . وكان التتار والترك يسيطران عند أزوف على مصب الدون ، ويغيران المرة بعد المرة على الأراضي الموسكوفية ، ويأسران الروس - أحيانا عشرين ألفا فى سنة واحدة - لبييعوهم عبدا فى

الاستانة . وفى ١٦٩٥ أمر بطرس جيشه أن ينتقل من التلمى بالألعاب الى التمرس بالحرب ، وأن يزحف مخترقا السهوب ، ويبحر هابطا الأنهار ، ويهاجم آزوف . واضطلع ثلاثة قواد بالقيادة قسمة بينهم - جولوفين ، وجوردون ، وليفور . وعمل بطرس بتواضع مدفعيا برتبة رقيب فى فوج بريوبرازينسكى . وأسست ادارة العملية ، وكان الجند سيئى التدريب ، وبعد أربعة عشر أسبوعا من التضحيات ألقع الروس عن الحصار ، وعاد بطرس الى موسكو وهو يقسم ليدرب جيشا أفضل ويعيدن الكرة .

وبنى فورونيز أسطول ناقلات وبوارج . وفى مايو ١٦٩٦ أبحر هابطا الدون على رأس ٧٥٠٠٠ رجل ، واستأنف حصار آزوف . وفى يوليو ، ويفضل بسالة قوزاق الدون على الأخص ، استولى الروس على المدينة . وعلى الفور أمر بطرس ببناء أسطول كبير فى فورونيز ليعمل فى البحر الاسود . وفى سبيل هذا الهدف فرضت الضرائب على روسيا كلها بما فيها كبار ملاك الأراضى ، وجند العمال ، وجلبت الآلات الاجنبية . وبعث خمسون من أشرف الروس على نفقتهم الى ايطاليا ، وهولنده ، وانجلترا ، ليتعلموا فن بناء السفن . وفى ١٠ مارس ١٦٩٧ تبعهم بطرس .

ولو خطر ببال روسيا أن القيصر سيمضى الى بلاد تدنسها الهرطقة لأفزعته الفكرة وروعته . لذلك نظم سفارة من خمسة وخمسين نبيلًا ومائتى تابع ، يرأسها ليفور ، لتزور « أوروبا » وتبحث عن حلفاء ضد الترك . وكان من هؤلاء المبعوثين الخمسة والخمسين صف ضابط لا يدعى الا باسم بطرس ميخايلوف ، ويستعمل ختما عليه صورة نجار سفن وهذه العبارة « رتبتي تلميذ ، وأنا فى حاجة الى معلمين (١٧) » فلما خرج بطرس من روسيا ، لم يدقق فى الاحتفاظ بهذا التذکر ، فقد استضافه ناخب براندنبورج فردريك الثالث ، والملاك وليم الثالث فى انجلترا ، والامبراطور ليوبولد الأول فى فيينا ، بوصفه قيصر روسيا . ولقد صدم أهل القصور ، حتى وهو يمسح عن مقامه الملكى ، بجلافه سلوكه وحديثه ، وبقذارته واهماله ، وبغزوفه عن استعمال السكين والشوكة (١٨) . ولكنه شق طريقه .

ولقيت السفارة المصاعب - التي لم ينسها بطرس قط - فى سفرها الى ريجا مختربة ليفونيا السويدية . ومن هناك أسرع الى كونيغزبيرج . حيث وقع مع الناجب معاهدة تجارة وصداقة . وفى براندنبورج درس المدفعية والتحصين على يد مهندس حربى روسى اعطاه شهادة بتقدمه . وفى كوينبروجى أقنعتة صوفيا ، ناختبة هانوفر الارملة ، وابنتها صوفيا شارلوت ، ناختبة براندنبورج ، هو ويطانته بالعشاء والرقص معهم وقد وصفته الناختبة الارملة فيما بعد بهذه العبارات :

» ان القيصر رجل فارغ الطول ، دقيق الملامح ، رائع السميت ، له ذهن شديد الحيوية ، وبديهة حاضرة وليت عاداته اقل جلافة كان مرحا جدا ، كثير الحديث ، وقد كونا صداقة حميمة فيما بيننا اخبرنا أنه يعمل فى بناء السفن ، وأرانا يديه ، وجعلنا نلمس المواضع القاسية التى خلفها بهما العمل انه رجل شديد الغرابة طيب القلب جدا ، نبيل العاطفة الى حد عجيب ولم يشرب حتى يثمل فى حضرتنا ، ولكن ما ان بارحنا المكان حتى عوض أفراد بطانته عن قصده فى الشراب وهو حساس لغاتن الجمال ولكنى لم اجت فيه ميلا للتودد للنساء وفى أثناء الرقص حسب الموسكوفيون عظام الحوت المصنوعة منها مشداتنا عظامنا ، وأبدى القيصر دهشته بقوله ان للنساء الالمانيات عظاما قاسية الى حد رهيب (١٩) « .

ومن كوينبروجى ، أبحرت السفارة هابطة الرين الى هولند ، وترك بطرس ونفر من أخصائه أكثر الجماعة فى امستردام ، ومضوا الى زاندام ، وكانت يومها مركزا كبيرا لبناء السفن (١٨ أغسطس ١٦٩٧) . فقد سمع الكثير ، حتى فى روسيا ، عن مهارة بناء السفن فى هذه المدينة الجميلة . وتعرف فى شوارعها على صانع عرفه فى موسكو ، اسمه جيريت كيست . وطلب اليه بطرس أن يتسّر على تنكره ، واقترح ان يسكن كوخ كيست الخشبى الصغير . وهناك مكث أسبوعا يرتدى زى عامل هولندى ، وينفق نهاره فى مراقبة نجارى السفن وهم يشتغلون ، ويجد فى ليله متسعا لمنازلة فتاة تخدم فى حانة الحى . وفى سنوات لاحقة زار جوزف الثانى وناپليون هذا الكوخ كأنه مكان مقدس ، وجعله القيصر اسكندر الاول بلوحة رخامية ، وكتب شاعر

مولندى على الحائط بيتا مشهورا : لا شيء يصغر فى نظر الرجل العظيم (٢٠) » .

فلما ضاق بطرس بالجموع التى تبعته فى كل خطوة بزاندام ، عاد الى أمستردام وسفارته . وهنا أيضا أصر على التبرك ، ولكنه سمى نفسه الآن « النجار بطرس الزاندامى » . واقنع شركة الهند الشرقية الهولندية بأن تسمح له بالانخراط فى سلك عملها بأحواض السفن فى أوستنبورج وهناك اشتغل بهمة مع عشرة من أتباعه طوال شهور أربعة ، وعاونوا فى بناء سفينة وانزالها الى الماء . ولم يسمح بأى تفرقة بينه وبين العمال الآخرين ، وحمل على كتفه الأخشاب كما حملها سائرهم . وكان فى الليل يدرس الهندسة ونظرية بناء السفن ، وتبين مذكراته مبلغ دقة هذه الدراسات . ووجد متسعا من الوقت لزيارة المصانع ، والورش ، ومتاحف التشريح ، والحدايق النباتية ، والمسارح ، والمستشفيات . وقابل الطبيب وعالم النبات العظيم بويرهافى ، ودرس المكروسكوبيا على ليوفينهويك ، واصطحب بطانته الى مدرج تشريح بويرهافى . ودرس الهندسة الحربية على البارون فان كويهورن ، والعمارة على شينفويت ، والميكانيكا على فان درهيدن . وتعلم كيف يخلع الأسنان ، ولقى بعض مساعديه عنقا من جراء حماسته فى علاج الأسنان . ودخل منازل الهولنديين ليدرس حياتهم الأسرية وتنظيم بيوتهم . واشترى فى الأسواق ، وخالط الناس ، وتعجب من حرفهم المتنوعة ، وتعلم أن يصلح ملابسه ويرقع حذاءه . واحتفى الجعة والنبيد مع الهولنديين فى مشاربهم . وأغلب الظن أن التاريخ لم يشهد رجلا أشوق منه الى تشرب الحياة وتذوقها .

وفى هذا النشاط كله لم تغب روسيا عن نظره . فوجه برسائله أعمال حكومتها النائبة عنه . واستخدم وأرسل الى روسيا عدة قباطنة بحريين ، وخمسة وثلاثين ملازما ، واثنين وسبعين مرشدا ، وخمسين طبيا ، وأربعة طباطخين ، و ٣٤٥ بحارا . وبعث الى روسيا على عجل ٢٦٠ صندوقا من البنادق ، وقماش القلوع ، والبوصلات ، وعظم الحوت والفلين ، والمراسي ، والعدد ، وحتى ثمانى قطع من الرخام ليشتغل عليها النحاتون الروس (٢١) . ولكن اهتمامه كان يفتر اذا اتصل الأمر بتهديب العادات ، أو لطائف المجتمع ، أو دقائق الفكر ، ولم يكن لديه

متسع من الوقت للميتافيزيقا أو المراقص أو الصالونات ، وعلى أية حال ، لا ضير فى أن ترجأ هذه الأشياء غير الملموسة . أما الآن فمهمته أن يدخل صنائع الغرب وعلومه العملية الى روسيا « حتى اذا تمكنا منها تمكنا كاملا استطعنا عند عودتنا الى الوطن أن ننتصر على أعداء يمسوع المسيح (٢٢) » وهو يقصد الاستيلاء على الآستانة واطلاق روسيا من سجنها لتعبر البوسفور الى العالم .

وبعد أن قضى فى هولنده أربعة شهور طلب الى وليم الثالث الاذن له بزيارة انجلترا ، شبه متنكر أيضا . وبعث وليم باليخت الملكى لياضى به ، ووصل بطرس الى لندن فى يناير ١٦٩٨ . ومع أن الوقت كان شتاء فانه زار أرسففة الموانىء والمؤسسات البحرية ، والجمعية الملكية ، ودار ضرب النقود ، ولعله التقى بنيوتن هناك . وقلب ايفلين بيته وهيا أرضه بعناية فى دبفورد لبطرس وجماعته ، وقد منحت الحكومة الانجليزية السرجون بعد ذلك ٣٥٠ جنيهها ليصلح التلف الذى أحدثه الروس . وأدهش القيصر جيرانه بالذهاب الى فراشه مبكرا ، والاستيقاظ فى الرابعة ، والسير الى أحواض السفن يحمل على كتفه بلطة وفى فمه « بيبة » . واتخذ ممثلة كبيرة خلية له ، وقد شكت من ضالة المال الذى نقدها اياه . وتسلم درجة الدكتوراة فى القانون فى اكسفورد ، وحضر الخدمات البروتستنتية فى لياقة توقع معها القساوسة الانجليز أنه سيحول روسيا الى حركة الاصلاح البروتستانتى . وحاول الاسقف بيرنت التأثير عليه ، فوجده محبا للاستطلاع ولكنه لا يلتزم بموقف متميز ، وحلص الى أن القيصر « هياته الطبيعية فيما يبدو لأن يكون نجار سفن أكثر منه ملكا عظيما (٢٣) » .

وأبحر بطرس عائدا الى أمستردام بعد أن أنفق أربعة أشهر فى انجلترا ، وانضم الى بعثته ، وواصل معهم رحلته الى فيينا مرورا بليبنزج ودرسدن (٢٦ يونيو ١٦٩٨) . وعبثا حاول ، طوال شهر نفذ خلاله صبره ، أن يضم الامبراطور اليه فى حلف ضد تركيا . وقد تلطف مع اليسوعيين الذين بدأوا يحلمون بروسيا الكاثوليكية الرومانية . وبينما هو على وشك مغادرة فيينا ، وصلته رسالة تنبئه بأن حامية موسكو تمرحت ، وانها تهدد بالاستيلاء على موسكو وعلى مقاليد الحكم . فخف

من فوره الى روسيا ، ولكن قرب كراكو وصله تأكيد بأن الثورة أخمدت .
ولبت أربعة أيام فى رافا مع أوغسطس الثانى ملك بولنده . وأدهشه
رأبهنجه ن يجد ملكا يستطيع أن يباريه فى قوة البدن ، وصيد الوحوش ،
والاسراف فى الشراب . وقد أحب أحدهما الآخر ، وتعانقا ، وتناقشا فى
أى البلدين يجب أن يكون أول ضحية لصداقتهما ، السويد أم تركيا .
وفى ٤ سبتمبر وصل بطرس الى موسكو بعد ثمانية عشر شهرا من رحلة
عينت فى رأى ماكولى « حقبة فى التاريخ - لا تاريخ بلده فحسب ...
بل تاريخ العالم (٢٤) » . لقد اكتشفت روسيا أوربا ، واكتشفت أوربا
روسيا . وبدأ لينينتز يدرس الروسية .

على أن بطرس كان لا يزال له طبع مسكوفى القرن السابع عشر .
انه لم يغتفر قط لحامية موسكو اشتراكهم فى قتل أخواله وماتيف ، وفى
تمكين صوفيا من اغتصاب السلطة . ولم يكن فى خططه لتنظيم جيش
جديد كان لهذا « الخرس الامبراطورى » المثير للمتابع . فلما نرى
اليه أن صوفيا فاوضتهم من ديرها ليعيدوها الى الحكم ، وأنهم هددوا
ليغور وغيره من أهل « المستوطنة الألمانية » ، وأنهم أذاعوا الشائعات
بأنه يخون ديانة روسيا فى ولعه بالغرب ، استحال غضبه تشنجا يطلب
الانتقام . فامر بتعذيب نفر كبير من الحامية ليخمنهم على الاعتراف
بدور صوفيا فى تمردهم ، ولكنهم تجلدوا لأروع ضروب العذاب دون أن
يحملوها أى تبعة ، وأمر بتعذيب أتباعها بنفس الهدف والنتيجة .
وأكرهت صوفيا على أن تقطع على نفسها نذر الرهينة ، وأحكم حبسها
فى ديرها ، حيث ماتت بعد ست سنوات . ثم أعدم ألفا من رجال الحامية
قتل بطرس منهم خمسة بيده ، وأكره مساعديه على أن يقتلوا به ، ولكن
بيغور أبى . وما وافى عام ١٧٠٥ حتى كانت حامية موسكو (السترتسي)
قد اختفت من التاريخ .

وشرع بطرس من فوره فى بناء جيش جديد . وكان الجيش القديم
قوامه رجال الحامية ، والمبرتزة الاجانب ، والمجنودون من الفلاحين
جمعهم الاشراف . فاستبدل بطرس بهذا الخليط جيشا دائما عدته
٢١٠٠٠ مقاتل بتجنيد رجلا من كل عشرين أسرة من أسر الفلاحين .
والبس هؤلاء الجنود سترات عسكرية « أوربية » ودربوا على تكتيك
المغرب . اما مدة الخدمة لجميع الرتب فهي مدى الحياة . فضلا عن

هذا دعا بطرس ١٠٠ر٠٠٠ قوزاقى للخدمة . وبنيت السفن على عجل على البحيرات ، والانهار ، والبحار ، فما وافى عام ١٧٠٥ حتى كان للبحرية الروسية ثمان وأربعون بارجة ، وثمانمائة سفينة أصغر منها ، و ٢٨ر٠٠٠ بحار .

كان هذا كله لا يزال فى طريق التنفيذ ، ناقصا لم يكتمل بعد ، حين جاء باتكول الى موسكو واقترح أن ينضم بطرس الى فردريك الرابع ملك الدنمرك وأوغسطس الثانى ملك بولنده ليطردوا السويد من أرض القارة وينتزعوا منها الهيمنة على البلطيق . ورأى بطرس أن كل هذه السفن التى يجرى بناؤها تتوق لأن تمخر عباب البحر ، وهى تؤثر البحر المتوسط الدافىء - ولكن الامبراطورية العثمانية كانت لا تزال قوية الى حد يفت فى العتد . وكانت الاستانة عصية على الهجوم ، والنمسا وفرنسا الآن صديقتين للاتراك . فعلى روسيا اذن أن تتطلع الى الباب الآخر ، وأن تلتمس لها منفذا فى الشمال . وكان من سوء التوقيت أن يحضر المبعوثون السويديون الى موسكو قبيل ذلك ويحصلوا على موافقة بطرس على تجديد معاهدة كاردس التى تعاهدت فيها روسيا والسويد على السلام . ولكن الجغرافيا والتجارة تهزان بالمعاهدات . ثم ألم يكن ساحل البلطيق بين نهري نيفا ونارفا - ولايتا اينجريا وكاريليا - من قبل ملكا لروسيا ، ولم يسلم للسويد فى ١٦١٦ الا لأن روسيا كانت فى فترة شدتها تلك عاجزة عن المقاومة ؟ فلم لا تسترد القوة ما أخذ بالقوة ؟ وعلى ذلك ، وفى ٢٢ نوفمبر ١٦٩٩ انضم بطرس الى الحلف ضد السويد ، واتخذ أهبته لشق طريقه الى البلطيق . وفى ٨ أغسطس ١٧٠٠ أمن جبهته الجنوبية على قدر ما تستطيع معاهدة تأمينها ، وذلك بإبرامه صلحا مع تركيا . فى ذلك اليوم بعينه أمر جيشه بالزحف على ليفونيا السويدية .

٥ - شارل الثانى عشر والحرب الشمالية الكبرى :

١٧٠٠ - ٢١

ونمى الى استوكهولم نيا غامض عن اتفاق الحلف . فالتام المجلس الملكى ليناقدش اجراءات الدفاع . وكان الرأى الغالب وجوب فتح باب المفاوضات مع أحد الحلفاء لعقد صلح منفرد معه . واستمع شارل

مليا وهو صامت ، ثم انتفض قائما وقال : « أيها السادة ، لقد عقدت
الدية على ألا أخوض حربا ظالمة ما حييت ولكنى ... لن أنهى حربا
عادلة الا بالقضاء المبرم على أعدائى (٢٥) » . ثم طلق كل لهو وترف
واتصال بالنساء ومعاقرة للخمر . وكان جيشه وبحريته مستعدين ،
فغادر معهما استوكهولم فى ٢٤ أبريل ١٧٠٠ ليبدأ واحدة من أروع السير
الحربية فى التاريخ . ولم يشهد عاصمة ملكه بعدها قط .

ويدأ بمهاجمة الدنمرك ، فقد كان عليه أن يحمى ولايات السويد
الجنوبية من هجمات الدنمرك وهو يواجه بولنده وروسيا . ثم قاد سفنه
عبر مضيق الساوند - المفترض أنه لا يصلح للملاحة - بما عهد فيه من
جرأة وسرعة ، رغم اعتراض أميرال بحريته ، ورما على سيبيلاند ، التى
لا تبعد عن كوبنهاجن سوى أميال (٤ أغسطس ١٧٠٠) . وسارع فردريك
الرابع ملك الدنمرك الى ابرام صلح ترافندال معه (١٨ أغسطس) خشية
أن تسقط عاصمته ، ودفع تعويضا قدره ٢٠٠.٠٠٠ ريال دنمركى ، وأقسم
انه لن يهاجم السويد أبدا .

وفى مايو ١٧٠٠ حاول أوغسطس الثانى الاستيلاء على ريجا .
ولكن هزمه الكونت ايريك دالبيرج ، القائد السويدى البالغ من العمر
خمس وسبعين عاما ، والذى اكتسب لقب « فويان السويد » لمهارته
فى فن التحصين . وتقهقر أوغسطس وناشد بطرس أن يخفف عنه
بغزوه اينجريا . واستجاب بطرس بأن أمر أربعين ألف مقاتل بحصار
نارفا . وأراد شارل الثانى عشر أن يساعد دالبيرج ، فنقل جيشه بالبحر
الى برناو (بارنو) ، على خليج ريجا ، ولكنه حين وجد ذلك المقاتل
منتصرا ، اتجه شمالا . واخترق المناقع والممرات الخطرة ثم ظهر فجأة
فى مؤخرة جيش بطرس . واخذ القيصر على غرة ، فبدر منه ما بدا
جنبنا معيبا ، اذ ترك الجيش (الذى كان يخدم فيه ملازما فقط) ،
وفتر الى نوفجورود وموسكو . وأغلب الظن أنه عرف أن مجنديه الغشم
سينهارون فى أول امتحان لهم ، ولم يكن فى وسعه أن يترك العدو
ياسره ، لأنه رأى نفسه أعظم قيمة لروسيا حيا منه ميتا . أما الجيش
الروسي ، الذى بلغ أربعين ألفا ، والذى كان يقوده الامير المجرى
كارل يوجين ديكروا قيادة عاجزة ، فقد هزمه جنود شارل الثمانية
الآلاف فى موقعة نارفا (٢٠ نوفمبر ١٧٠٠) ، وكانت أول نكسة فى
حياة بطرس بعد صباه .

والح القواد السويديون على شارل فى أن يزحف على موسكو ويجهاز على بطرس . ولكن جيش شارل كان صغيرا ، والشتاء حل ، وكل شجاعة ، حتى شجاعة هذا النابليون الشاب ، لابد أن تتردد أمام مسافات روسيا المترامية فضلا عن مشكلة اطعام الجيش فى أرض معادية . ثم (ما دامت العهود والمواثيق حبرا على ورق) هل يستطيع أن يركن الى ملك الدنمرك ، أو ملك بولنده ، فى ألا يغزو أحدهما السويد وجيشها الرئيسى وقائدها نائبيان عن أرض الوطن ؟ وبعد أن أعاد شارل تنظيم حكومة ليفونيا ودفاعها ، سار جنوبا الى بولنده ، واحتل وارسو دون عناء (١٧٠٢) على نحو ما فعل جده قبل سبعة وأربعين عاما ، وخلع أوغسطس ، ونصب ستانيسلاس ليزكزنسكى ملكا على بولنده (١٧٠٤) . لقد هزم الآن كل حليف من الحلفاء ، ولكن الدب الروسى لم يكد يبدأ النزال .

ذلك أن بطرس لم يفق من رعبه فحسب ، بل نظم جيشا آخر وجهزه . ولكى يزوده بالمدافع أمر بأن تصهر أجراس الكنائس والأديار، وصنع ثلاثمائة مدفع ، وأنشئت مدرسة لتدريب رجال المدفعية . وسرعان ما أخذت القوات المجنذة الجديدة فى احراز الانتصارات ، وتقدمت كتيبة مدفعية بطرس غيرها فى الاستيلاء على نينسكانس ، عند مصب نيفا (١٧٠٣) ، وهنا شرع القيصر لتوّه فى بناء « بطرسبرج » دون أن يدرك الى ذلك الحين أنها ستكون عاصمة ملكه ، ولكنه صمم على أن تكون أحد منافذه الى البحر . وبينما كان شارل مشغولا فى بولنده ، ظهر بطرس ثانية أمام نارفا . وكان شارل قد ترك فيها حامية ضئيلة ، واقتحم الروس القلعة الكبيرة (٢٠ أغسطس ١٧٠٤) ، وثأر المنتصرون لأنفسهم من فشلهم السابق بمذبحة رهيبية ، وضع لها بطرس حدا فى النهاية بأن قتل بيديه اثنى عشر من الروس المتعطشين للدماء .

وفى بولنده بدا أن انتصار شارل كامل . فقد وقع أوغسطس المخلوع معاهدة اعترف فيها بلزكزنسكى رلكا ، وتخلّى عن أحلافه ضد السويد ، وأسلم لشارل الرجل الذى نظم الحلف أولا ، فحطم جسده يوهان فون باتكول على دولاب التعذيب ثم قطع رأسه (١٧٠٧) . ووجد بطرس نفسه وحيدا أمام هذا الارهاب السويدي الشاب . فحاول ٣ - قصة الحضارة

أن يرشو الوزارة الانجليزية لترتب له صلحا ، ولكنها رفضت أن تتدخل . ومضي عامل بطرس رأسا الى ملبره ، فوافق على الوساطة لقاء اماره فى روسيا (٢٦) ، وعرض عليه بطرس كييف أو فلاديمير أو سيبيريا ، وضمانا من خمسين ألف طالبير فى العام ، و « ياقوته ماسية لا يملك نظيرها أى ملك أوربى » (٢٧) ، ولكن هذه المفاوضات أخفقت . وتعاطف الساسة الغربيون مع شارل ، واحتقروا أوغسطس ، وخافوا من بطرس ، وكانت حجة بعضهم أنه لو سمح لروسيا بالتوسع غربا ، فإن أوربا كلها سترتعد بعد قليل أمام فيضان سلافى (٢٨) .

وفى أول يناير ١٧٠٨ عبر شارل الفستولا فوق جليد غير مأمون على رأس ٤٤٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان . فوصل الى جرودنو فى اليوم السادس والعشرين بعد أن رحل عنها بطرس بساعتين فقط . ذلك أن رأى القيصر استقر على الدفاع بالعمق والتخريب . فأمر جيوشه بأن يتفقهروا ، وتستدرج شارل ليوغل داخل الفرشة الروسية أبعد فأبعد ، وتحرق كل المحاصيل أثناء مسيرتها ، وأمر الفلاحين بأن يخفوا قمحهم فى باطن الأرض أو تحت الثلوج ، ويشتتوا ماشيتهم فى الغابات والمستنقعات . وعهد الى الزعيم القوزاقى ايفان مازيبا بمهمة الدفاع عن « روسيا الصغيرة » وأوكرانيا . وكان مازيبا قد نشيء وصيفا فى البلاط البولندى ، وبأمر من نبيل بولندى أغوى ايفان زوجته ربط عريانا على حصان أوكرانى وحشى ، وأرهب الحصان عمدا بضربات سوط واطلاق مسدس عند أذنه (كما سيروى بيرون) ، واندفع الحصان خلال الأخراج والغابات الى مسارحه الأولى ، ولكن مازيبا ظل على قيد الحياة وان تمزق لحمه وسال دمه ، وارتقى حتى أصبح زعيما لقوزان زابوروج . وتظاهر بالولاء لبطرس ، ولكنه كره أوتقراطية القيصر ، وترقب الفرصة للثورة . فلما سمع بأن بطرس يتفقهروا وشارل يتقدم ، قرر أن فرصته قد حانت . فأرسل الى شارل يعرض عليه التعاون معه .

ولعل هذا العرض هو الذى حدا بشارل الى المضي فى زحفه المتهور داخل روسيا . وبدأت سياسة « الأرض المحرقة » تؤتى ثمارها ، فلم يجد السويديون غير برية متفحمة فى طريقهم وأخذوا يتضورون جوعا . وكان شارل قد اعتمد على تعزيزات انتظر وصولها من ريجا ،

وقد حاولت أن تصله ولكن الروس دمروها نصف تدمير فى طريقها .
وعلى شارل نفسه بأن مازيبا سينضم اليه بالامداد وقوة قوزاق الدنيبر
كاملة ، ولكن بطرس ، الذى توجس من خيانة مازيبا ، جرد جيشا
بقيادة الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ليقبض عليه ، وفوجىء الزعيم
قبل أن يستطيع ايقاظ فرسانه ، ففر الى شارل عند هوركى جالبا معه
ألفا وثلاثمائة رجل فقط . وزحف شارل جنوبا ليستولى على عاصمة
مازيبا ، واسمها باتورين ، وياخذ مؤننها ، ولكن منشيكوف سبقه اليها ،
وأحرق المدينة وسواها بالتراب ، وعين زعيما مواليا لروسيا . واستعمل
بطرس كل سلاح ، فثنى القوزاق عن الانضمام الى السويديين
بمنشورات وصفت الغزاة بأنهم مهرطقون « ينكرون عقائد الدين
الصحيح ويصفون على صورة العذراء المقدسة » (٢٩) . ولم يبق
لشارل من أمل الا فى أن يخف التتار والتترك لنجدته انتقاما لاستيلاء
بطرس على آزوف .

ولكن أحدا لم يأت ، وكان شتاء ١٧٠٨ - ٩ عدوا رهيبا
للسويديين . كان شتاء قارسا جدا فى كل أرجاء أوربا ، فتجمد البلطيق
الى عمق سمح لعربات النقل الثقيلة أن تعبر الساوند على الجليد ،
وفى ألمانيا ماتت أشجار الفاكهة ، وغطى الجليد الرون فى فرنسا ،
والقنوات فى البندقية . وفى أوكرانيا كست الثلوج الأرض ، من أول
أكتوبر الى ٥ أبريل ، وسقطت الطيور نافقة أثناء طيرانها ، وتجمد
اللعاب فى طريقه من الفم الى الأرض ، وتجمد النبيذ والمسكرات
فأصبحت كتلا صلبة ، واستحال اشعال الحطب فى العراء ، وكانت
الريح ماضية كالمدى فى هبوبها على السهول المنبسطة وعلى وجوه
الناس . واحتمل جنود شارل فى تجلد صامت بينما لقى ألفان منهم
حقتهم جوعا أو بردا . قال شاهد عيان « كنت ترى بعضهم بغير أيد ،
وبعضهم بغير أرجل ، وبعضهم بغير آذان أو أنوف ، وكثيرين يزحفون
فى سيرهم على نحو ما تفعل ذوات الأربع (٣٠) » وأمرهم شارل
بالسير قدما ، أملا فى أنهم لن يلبثوا أن يباغتوا جيش بطرس الرئيسى
فى مكان ما ويظفر بروسيا كلها فى نصر ساحق واحد . وكان أينما
التقى بالعدو ، فى هولوفكزين ، وسركوفا ، وأوبرسيا ، ينتصر بفضل
التفوق فى القيادة والشجاعة ، على قوات كثيرا ما بلغت عشرة أضعاف

قواته . ولكن حين انتهى ذلك الشتاء ، كان جيشه قد تقلص من ٤٤ر٠٠٠ الى ٢٤ر٠٠٠ مقاتل .

وفى ١١ مايو وصل الى بلطاوه الواقعة على فرع من فروع الدنيبر على خمسة وثمانين ميلا جنوب غربى خركوف . هنالك لمح شارل أخيرا جيش بطرس ، وكانت عدته ثمانين ألف مقاتل . وبينما كان فى احدى جولاته الاستطلاعية أصابته رصاصة فى قدمه . فلم يعبأ بالجرح . وانتزع الرصاصة فى هدوء بسكينه ، ولكنه حين عاد الى معسكره أغمى عليه ، فلما عجز عن قيادة جيشه بشخصه ، وكل بها الجنرال كارل رينسكيول ، وأمره بأن يهاجم العدو قى الغد (٢٦ يونيو) . وفى بداية المعركة اكتسح السويديون كل شيء أمامهم ، وهم الذين لم يخسروا قط معركة تحت إمرة شارل . ورغبة فى استنفار جنوده أمر شارل أن يحمل الى ساحة القتال على محفة ، ولكن نيران العدو حطمتها من تحته . وركب بطرس الى المقدمة رغم أنه مازال رسميا مجرد ملازم فى الجيش ، مستنهضا هم جنده ، ولكن رصاصة مرقت خلال قبعته ، وثانية صدها صليب ذهبى على صدره . وأسعفته الآن سنواته التى أعد فيها المدفعية ودربها ، فكانت مدافعه تطلق خمس مرات مقابل مرة يطلقها السويديون . فلما نضبت ذخيرة السويديين فتكت المدفعية الروسية بالمشاة السويديين على بكرة أبيهم ، واستسلم الفرسان السويديون حين رأوا الموقف ميئوسا منه . أما شارل فقد امتطى جوادا وفر مع مازيبا وألف مقاتل عبر الدنيبر الى أرض تركية . وفقد السويديون أربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، والروس ٤٣٥ر٤ ولكنهم أسروا ١٨٦٧٠ فيهم قائدان وضباط كثيرون . وعامل بطرس الضباط معاملة كريمة ، ولكنه استخدم الأسرى فى التحصينات والأشغال العامة . وأشاد ليبتنر بانسانيته واستنتج من ضخامة الكتائب الروسية أن الله يقف فى صف الروس (٣١) . ووافقه بطرس ، وكتب يقول : « الآن بعون الله أرسيت أساسات بطرسبرج وأمنتها الى الأبد (٣٢) » .

وكان للمعركة نتائج بعيدة المدى لا حصر لها . فقد فر ليزكنسكى الى اللزاس ، واعتلى أوغسطس الثانى عرش بولنده من جديد ، واستولت روسيا على امارات البلطيق وكل أوكرانيا . وعادت الدنمرك

الى الحلف ضد السويد ، وغزت سكاني ، ولكنها ردت على أعقابها .
واستولى فردريك وليم ملك بروسيا على ستتين وهولشتين وجزء من
بومرانيا . وارتفع شأن روسيا وازدادت عزة وكبرياء . وعرض لويس
الرابع عشر التحالف مع بطرس ، فرفضه هذا ، ولكنه رضي أن يستقبل
مبعوثا للويس .

أما شارل فانه لم يعترف بأنه هزم هزيمة ساحقة . وأغدق الأتراك
الشاكرون صنيع أى انسان يثير القلاقل لروسيا على لاجئهم الملكى كل
أسباب التكريم ، باستثناء الامتيازات الملكية . ففى بندر (وهى اليوم
تيغينا) القريبة من الدنيستر ، احتفظ ببلاطه ، وتلقى من السلطان
أحمد الثالث المئونة له ولآلئه وثمانئة سويدي بقوا فى خدمته . وحالما
التأم جرح قدمه استأنف التمرينات العسكرية ودرب جيشه الصغير .
وشاع عنه أنه اعتنق الاسلام لزهده فى الخمر واختلافه الى الصلاة العامة
باننتظام . ولم يدخر وسيلة ليقنع السلطان أو الصدر الأعظم بشن
الحرب على روسيا ، وبهذا الأمل رفض أن تعيده الى السويد سفن
فرنسية وضعت تحت تصرفه . وبذلت محاولة لتسميمه ، ولكنها كشفت
فى أوانها . وطالب بطرس بأن يسلم اليه مازيبا باعتباره مواطنا
روسيا خائنا ، ولكن شارل أبى أن يسمح بهذا ، وقطع مازيبا العقدة
بأن مات (١٧١٠) .

ان كل انتصار يولد أعداء جددا أو يلهب الأعداء القدامى . وقد
استطاع شارل أن يقنع السلطان بأن قوة روسيا المتزايدة ، التى
لا يكبحها الآن كابح فى الشمال ، ستتحدى هيمنة الترك على البحر
الاسود والبوسفور ان عاجلا أو آجلا . فاعلن السلطان الحرب على
روسيا ، وجرد عليها ٢٠٠.٠٠٠ مقاتل بقيادة الصدر الأعظم . وأخذ
بطرس على غرة ، فلم يستطع أن يحشد أكثر من ٣٨.٠٠٠ مقاتل فى
الجنوب ليصد هذا السيل الجارف . وخذله حلفاؤه البلغار والصرب .
فلما التقى الجيشان على نهر بروت (وهو اليوم حد رومانيا الشرقى)
اضطر بطرس لمنازلة للترك ، لأن الاقليم المحيط به كان قد دمر . ولم
يكن لديه غير مئونة يومين . وتوقع الهزيمة والموت ، فأرسل تعليماته
الى موسكو لانتخاب قيصر جديد اذا تحققت مخاوفه ، ثم اعتكف فى
خيمته ومنع أى انسان من الدخول عليه . ولكن زوجته الثانية كاترين

اتفقت مع قواده على أن الاستسلام خير من الانتحار الجماعى .
وواجهت غضب بطرس اذ حملت اليه خطابا طلبت اليه التوقيع عليه ،
يطلب فيه الى الصدر الأعظم شروط الصلح . ووقع بطرس يائسا .
وجمعت كاترين كل مجوهراتها ، واقترضت مالا من الضباط ، وبعثت
بطرس شافيروف نائب المستشار ، مسلحا بـ ٢٣٠.٠٠٠ روبل ،
ليفاوض الوزير فى شروط الصلح . وأخذ الوزير الروبيلات
والمجوهرات ، وسمح لبطرس بأن يسحب جيشه وعتاده دون عائق ،
شريطة أن يسلم أزوف ، ويجرد القلاع والسفن الروسية هناك من سلاحها
ويسمح لشارل بالعودة الى السويد فى أمان ، وألا يتدخل بعدها فى
شئون بولنده . ولم يتردد بطرس فى بذل هذه الوعود (أول أغسطس
١٧١١) وانصرف بجنوده . وأقبل شارل مستعدا لخوض المعركة ،
ولكنه استشاط غضبا حين وجد الصلح أمامه . فحمل السلطان على
طرد الوزير المسالم وواصل جهوده لاستئناف الحرب ، ولكن شافيروف ،
الذى حمل معه ٨٤.٩٠٠ دوكاتية ، أقنع الوزير الجديد بتثبيت
معاهدة بروت .

وأعيت السلطان هذه العقد ، فطلب الى شارل أن يرحل عن
تركيا ، ولكنه أبى . فأرسل السلطان قوة تركية عدتها اثنا عشر ألف
رجل لاجلائه ، واستطاع شارل بأربعين رجلا أن يصمد لهم ثمانى
ساعات ، قتل خلالها عشرة أتراك بشخصه ، وأخيرا قهره اثنا عشر
انكشاريا (أول فبراير ١٧١٣) . فنقل الى ديموتيكيا قرب أدرنه ،
ولكن سمح له بأن يمكث فيها عشرين شهرا بينما كان وزير جديد يفكر
فى مقابلة روسيا . فلما تضاعف هذا الأمل وافق شارل على العودة
للسويد . فزود بالحرس العسكريين والهاديا والأموال . وغادر ديموتيكيا
(٢٠ سبتمبر ١٧١٤) ، وأخترق الأفاق وترانسلفانيا والنمسا ، وفى
منتصف ليلة ١١ نوفمبر وصل الى بومرانيا وثغرها وحصنها
سترالسوند ، على ساحل البلطيق جنوب السويد مباشرة . وكانت هى
وفيسمار الى الغرب آخر القلاع السويدية على أرض القارة .

وكان اصرار شارل قبيل ذلك على حكم السويد من تركيا ،
ورفضه بذل أى تنازلات لبطرس ، قد جرا الخراب على الامبراطورية

(السويدية . ففي أول أغسطس ١٧١٤ كان جورج ناخب هانوفر قد أصبح جورج الأول ملك إنجلترا . فلما عقد العزم على استخدام قوته الجديدة في ضم بريمين وفيردين الى هانوفر ، جمع بين بريطانيا وبين الدنمرك وبروسيا في حلف جديد ضد السويد ، وعزز الأسطول الانجليزي الأسطول الدنمركي في المضائق . ووجد شارل نفسه حبيسا في سترالسوند ، في حرب مع انجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبروسيا ، وروسيا . وظل يقاوم الحصار هناك اثني عشر شهرا بستة وثلاثين ألف مقاتل ، يقود حاميته المرة بعد المرة في هجمات بطولية عقيمة . فلما حطمت مدافع المحاصرين المدينة وأسوارها ، ولم يكن مفر من التسليم ، قفز شارل في سفينة صغيرة ، وأبحر بها وسط نيران العدو ، وبلغ كارلسكرونا على ساحل السويد (١٢ ديسمبر ١٧١٥) .

وانتظرت استوكهولم وصول بطلبها اليائس ، ولكنه أبى أن يعود اليها الا قائد ظافرا . فأمر بتجنيد قوات جديدة حتى من الغلمان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة ، وصادر جميع السلع الجديدة ليبنى بها أسطولا جديدا ، وفرض الضرائب على كل شيء تقريبا يستعمله شعبه حتى شعورهم المستعارة . فاذعنوا صامتين ، ظنا منهم بأنه ربما قد جن ، ولكنه مع ذلك عظيم . وجاهد البارون جيورج فون جورتز ، كبير وزرائه الآن ، ليحطم الحلف . ولاحظ أن جورج الأول مختلف مع بطرس على تقسيم الأسلاب ، فحاول أن يعقد صلحا بين السويد وروسيا ، ويعين ثورة أسرة ستيوارت في انجلترا ، ولكن خططه باءت بالفشل . وما وافى خريف ١٧١٧ حتى كان شارل قد حشد جيشا من عشرين ألف مقاتل . في تلك السنة ، ثم في ١٧١٨ ، غزا النرويج ، أملا في أن يكسب أرضا تعوضه ما فقد على أرض القارة . وفي ديسمبر حاصر قلعة فريديركستين . وفي اليوم الثاني عشر رفع رأسه لحظة فوق متراس الخندق الأمامي وإذا رصاصة نرويجية تصيبه في صدغه الأيمن فتريديه قتيلا لفوره . وكان يومها في السادسة والثلاثين .

لقد مات كما عاش ، مشدوها ببسالتها . كان قائدا مغوارا ، كسب انتصارات لا تصدق في ظروف معاكسة جدا ولكنه عشق الحرب عشق

المخمر بها ، ولم يشبع من الانتصارات ، وفى سبيل البحث عن انتصارات جديدة راح يدبر الحملات الى حد أشرف على الجنون . وقد أفسدت الكبرياء كرمه وسماحته ، كان يعطى كثيرا ، ويطلب أكثر ، ولقد عاق السلام غير مرة برفضه تنازلات ربما أنقذت امبراطوريته وماء وجهه . ولكن التاريخ يغتفر له أخطائه ، لأنه لم يكن البادئ بـ « الحرب الشمالية العظمى » ، هذه الحرب التى أبى أن يختمها الا بالانتصار .

أما الحكومة السويدية ، التى ندر أن جنحت الى التطرف ، فقد سارعت بمفاوضات الصلح . وبمقتضى معاهدتى استوكهولم (٢٠ نوفمبر ١٧١٩ و ١ فبراير ١٧٢٠) نزلت عن بريمين وفيردين لهانوفر ، وعن ستيتين لبروسيا ، ورفضت أول الأمر مطالب بطرس بجميع الأراضي السويدية فى البلطيق الشرقى ، فغزت الجيوش الروسية ثلاث مرات هذه الدولة التى استنزفت الحروب دمائها ، وخربت أراضيها الساحلية ومدنها . وأخيرا ، وبمقتضى معاهدة نىستاد (٣٠ أغسطس ١٧٢١) حصلت روسيا على ليفونيا ، واستونيا ، واينجريا ، وجزء من فنلنده . وهكذا ترك الصراع على البلطيق روسيا ظافرة ، وجعل منها « دولة عظمى » .

أما القيصر المكدود ، المكتهل ، الظافر رغم ذلك ، والذى وصل الى بطرسبرج ومعه نبا السلام ، وهتاف السلام ، السلام « مير ! مير ! » فقد حياه شعبه أبا لوطنه ، وامبراطورا لاقاليم روسيا كلها ، ولقبه ببطرس الأكبر .

الفصل الثالث عشر

بطرس الأكبر

١٦٩٨ - ١٧٢٥

١ - الهمجى

أراد فولتير « أن يعرف ما الخطوات التى انتقل بها الناس من الهمجية الى المدنية (١) » فلا عجب إذن أن أثار بطرس اهتمامه ، لأنه كان يجسد على الأقل ذلك الجهد ، ان لم يكن تلك العملية ، فى بدنه وروحه وشعبه . أو استمع الى ملك « أكبر » آخر ، هو فردريك الثانى ملك بروسيا ، يكتب الى فولتير عن بطرس فى شيء من الخلط :

« لقد كان الملك الوحيد المتعلم حقاً . ولم يكن مشرع وطنه فحسب ، بل كان يفهم جميع العلوم البحرية فهما تاماً . وكان معمارياً ، ومشرحاً ، وجراحاً . . . وجندياً خبيراً ، واقتصادياً بارعاً . . . ولم يعوزه الا تعليم أقل همجية وضراوة (٢) ليكون المثل لجميع الملوك » .

ولقد لاحظنا ذلك التعليم الهمجى الضارى ، وما اكتنف طفولة بطرس من عنف وسفك للدماء ، مما هز جهازه العصبى وعوذه الشراسة . وكان حتى فى شبابه يعانى من تقلص عصبى لا ارادى فى عضلاته ربما استفحل بعد ذلك بالأفراط فى الخمر وبالمرض السرى (٣) . كتب بيرنيت بعد أن زاره بانجلترا فى ١٦٩٨ (٤) يقول : « انه عرضة لتشنجات تصيب بدنه كله » . وقال روسي من أهل القرن الثامن عشر « من المشهور أن هذا الملك . . . كان عرضة لنوبات مخية قصيرة متكررة من نوع عنيف بعض الشيء . وكان ضرب من التشنج يعتريه ، يحدث به فى فترة قد تمتد ساعات حالة من الاكتئاب تجعله لا يطيق النظر الى انسان ولو كان أقرب أصحابه . وكان يسبق هذه النوبة دائماً التواء شديد فى العنق نحو الجانب الأيسر ، وتقلص عنيف فى عضلات

الوجه (٥) « . ومع ذلك كان متين البناء قوى البدن . وروى أنه حين التقى بأوغسطس الثانى تباريا فى ثنى الأطباق الفضية فى أيديهما . وقد صورته نيلر عام ١٦٩٨ شابا يتقلد السلاح وشعارات الملك ، غاية فى اللطف والبراءة ، بعد ذلك نجده مصورا تصويرا أكثر واقعية ، فهو عملاق محدودب ، طوله ستة أقدام وثمانى بوصات ونصف ، ذو وجه تام الاستدارة ، وعينين واسعتين وأنف كبير ، وشعر بنى يتساقط فى خصل لا تقص الا نادرا . ولا تكاد نظرفته الأمرة الناهية تنسجم وثوبه المهمل المهوش ، وجواربه الخشنة المرفوة ، وحذائه المرقع ترقيعا بدائيا . ومع أنه نظم أمة بأسرها الا أنه كان يترك محيطه المباشر فى فوضى أينما ذهب . ذلك أن الجهود الكبيرة استغرقته استغراقا ضمن معه على التوافه بأى وقت .

وأما عاداته فكانت كلباسه لا تعمل فيها ولا تأنق حتى لتحسبه فلاحا لا ملكا - لولا أنه كان خلوا من صبر الفلاحين الروس المتبلد . بل لقد كانت عاداته أحيانا أسوأ من عادات الفلاحين لأنه لم يكبحه خوف من سيد أو خشية من قانون . مرة رأى تمثالا لآلة الذكر فى مجموعة عادات ببرلين ، فأمر زوجته أن تقبله ، فلما رفضت كاترين هدها بضرب عنقها ، ولكنها أصرت على الرفض ، ولم يهدىء من ثائرتة الا تقديم التحفة هدية له يزين بها حجرته الخاصة (٦) . وكان فى أحاديثه ورسائله يبيح لنفسه استعمال أنكر الالفاظ وأفحشها . وكثيرا ما كان يعنف أخص أصدقائه بضربات من قبضته الهائلة ، ومرة ضرب منشيكوف على أنفه فأسال دمه ، ومرة ركل ليفور . وكان ولعه بـ « المقلب » يتخذ أحيانا صورا قاسية ، من ذلك أنه ألزم أحد مساعديه بأن يأكل السلاحف ، وآخر بأن يشرب قارورة كاملة من الخل ، وفتيات صغيرات بأن يبتلعن حصة جندى من البراندى . وكان يجد لذة شادة فى تطبيب الأسنان ، وكان على المقربين منه أن يحذروا من أن تبدر منهم أقل شكوى من ألم فى أسنانهم ، فكلابته دائما فى مقتناوله . ولما شكا اليه تابعه من أن زوجته تحتج بالم مزعوم فى ضررها لتحرمه من متع الزواج ، أرسل فى طلبها ، وخلع لها ضرسا سليما ، وقال لها أن تنتظر المزيد اذا ظلت عزباء (٧) .

ولقد جاوزت قسوته الفاجرة النقطة التى يمكن أن يعتذر عنها

بانها طبيعية أو ضرورية فى زمانه ومكانه . حقا لقد ألف الروس القسوة ، ولعلمهم كانوا أقل حساسية للألم من ذوى الأعصاب الأكثر رهاقة ، وربما كانوا فى حاجة الى تأديب صارم ، بيد أن قيام بطرس شخصيا .تقريبا بذبح حامية موسكو يوحى بلذة سادية بالقسوة ، وشبق للدماء ، وما كان هناك ضرورة من ضرورات الدولة تقتضى تقطيع اثنين من المتأمرين شرائح حتى يموتا (٨) . لقد كان فى بطرس مناعة ضد الرحمة أو الحنان ، وأعوزه ذلك الاحساس بالعدالة الذى كبج نزوات لويس الرابع عشر أو فردريك الأكبر . أما انتهاكاته لوعوده القاطعة فكانت تنسجم تماما وسنة العصر .

وكان يرى ككل فلاح روسي أن السكر استعفاء معقول من واقع الحياة . فلقد اضطلع بكل أعباء الدولة ، وبمهمة أخطر بكثير هى مهمة تحويل شعب شرقى الى الحضارة الغربية ، ومن ثم بدا الشراب والقصف مع أصحابه تخففا يستحقه . وكان يتقبل من كل قلبه حكمة الفلاحين التى تزعم أن الشراب فرحة الروسي . وكان مما يقيس به قدر الرجل قدرته على احتمال الشراب . وحين كان فى باريس راهن على أن كاهن اعترافه يستطيع أن يشرب أكثر ، ويظل أثبت جنانا ، من الكاهن أمين سر الوزارة الفرنسية ، ومضت المباراة ساعة ، فلما تدحرج الأب الفرنسي تحت المائدة ضم بطرس كاهنه اليه لأنه « أنقذ شرف روسيا (٩) » . وحوالى عام ١٦٩٠ ألف بطرس وخلصاؤه فرقة سموها « جماعة المخمورين من الحمقى والمهرجين » (السويور) . وانتخب الأمير فيودور رومودانوفسكى قيصرا للسويور ، وقبل بطرس منصبا أدنى (كما فعل فى الجيش والبحرية) ، وكثيرا ما كان فى الحياة الواقعية يتظاهر بأن رومودانوفسكى هو قيصر روسيا . وكان « سويور » السكارى هذا مكرسا رسميا لعبادة باخوس وفينوس ، وكانت له شعائر معقدة ، تقلد فى سوقية وفحش شعائر الكنيستين الأرثوذكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية ، والكثير من هذه الشعائر الساخرة كان من وضع بطرس نفسه . وشارك السويور فى كثير من احتفالات الدولة الرسمية . فلما تزوج بطريركه الهزلى نيكيتا زاتوف ، البالغ من العمر أربعة وثمانين عاما ، عروسا فى الستين ، صمم بطرس وأدار احتفالا بذيئا مزيئا (١٧١٥) ، يشارك فيه نبلاء البلاط ونبيلاته جنبا الى جنب مع الديبة والغزلان والتيوس ، ويعزف السفراء على الناي أو الأرغن اليدوى ، ويدق بطرس على الطبل (١٠) .

كان حبه الفكاهة صخابا لا يعرف القيود ، وكثيرا ما أسف حتى استحال تهريجا . وكان بلاطه يعج بالمرجين والاقزام الذين كانوا عنصرا لا غنى عنه لكل احتفال . وذات مرة ركب القيصر ، الذى ناهز سبعة أقدام طولاً وراح يلعب دور جليفر أمام النيليبوتيين ، فى موكب على رأس أربعة وعشرين قزما راكبين . وكان يقتنى فى فترة من الفترات اثنين وسبعين قزما فى بلاطه ، ويقدم بعضهم على المائدة فى فطائر هائلة الحجم . كذلك كان عنده عمالقة ، ولكن أكثرهم أرسلوا هدية لفردريك وليم ملك بروسيا لينخرطوا فى جيش عمالقاته « المسلات » . وقد أهدى الى بطرس عدة زنوج وكان يقدرهم تقديرا كبيرا ، وبعث بعضهم الى باريس ليتعلموا ، وأصبح أحدهم قائدا روسيا ، وهو الجد الأكبر للشاعر بوشكين .

الى الآن صورنا بطرس رجلا ما زالت تغلب عليه الفطرة الهمجية ، رجلا من طراز ايفان الرهيب ولكنه مرح ، تواقا الى التحضر ولكنه يحسد الغرب - لا على لطائفة وفنونه بل على جيوشه وأساطيله ، وعلى تجارته وصناعته وثروته . وكانت فضائله موجهة الى هذه الغايات باعتبارها مقومات الحضارة . ومن هنا فضوله الذى لا يشبع . فهو يريد أن يعرف عن كل شيء كيف يسير ، ثم كيف السبيل الى تسييره سيرا أفضل . وقد أضنى مساعديه أثناء رحلاته بالجرى هنا وهناك ليرى هذا وذاك حتى أثناء الليل . كان فى غمرة من أفكاره ، فأذهل بذلك ليينتز ، الذى كان فى غمرة أخرى من أفكاره ، ولكن أفكار بطرس كانت نفعية لاختفاء فيها . فقد كان له عقل مفتوح لاي شيء قد يعين وطنه على اللحاق بالغرب . وفى وسط أمة متدينة تدينا عابسا ، معادية بتعصب للعقائد الغربية ولأساليب الحياة الدخيلة ، كان مبرا من التحيز كانه الطفل أو الحكيم ، يجرب الكاثوليكية ، والبروتستنتية ، وحتى الالحاد . كان مقلدا أكثر منه مبتكرا ، نقل الأفكار المجلوبة أكثر مما تصورها ، ولكن فى محاولته لرفع أمته الى مستوى المنافسة مع الغرب ، كان من الأحكم أن تستوعب هذه الأمة خير ما يستطيع الغرب تعليمه أولا ، ثم تحاول التفوق عليه . ان المحاكاة لم تكن قط بمثل هذه الأصالة .

وقد رفعه تفانيه الدعوب فى سبيل هذا الهدف من الهمجية الى

العظيمة . وإذا كان قد سخر وأفنى ملايين الروس لتحقيق غاياته فإنه أفنى نفسه أيضا في محاولته إعطاء روسيا جيشا عصريا ، وحكومة أكفا ، وصناعات أكثر تنوعا وانتاجا ، وتجارة أوسع ، وثغورا تستطيع أن تتصل بالعالم . كان يتوخى القصد في كل شيء إلا الحياة البشرية ، التي كانت السلعة الوحيدة التي تزخر بها روسيا . وكان أول إجراء له تقريبا حين تقلد زمام الحكم أنه طرد جيش الخدم وموظفي القصر الذين غص بهم البيت المال ، وباع ثلاثة آلاف جواد من المرباط الملكية ، وأطاح بثلاثمائة من الطهاة وصبيانهم ، وخفض عدد الجالسين إلى مائة الملك حتى في الأعياد إلى ستة عشر على الأكثر ، واستغنى عن الاستقبالات والمراقص الرسمية ، وحول إلى الدولة المبالغ التي كانت إلى ذلك الحين مخصصة لهذه الكماليات . وكان أبوه ألكسيس قد خلف له من الممتلكات الشخصية ١٠٠٧٣٤ ديسياتينا (٢٨٩٨٢ فدان) من الأرض المزروعة وخمسين ألف بيت ، تغل ريعا قدره ٢٠٠.٠٠٠ روبل في العام . فنزل بطرس عن هذا كله تقريبا لخزانة الدولة ، ولم يحتفظ لنفسه إلا بالميراث القديم لأسرة رومانوف - وهو ثمانمائة « نفس » في إقليم نوفجورود . وعلى عكس لويس الرابع عشر ، خفض أعظم قيصر تبوأ عرش روسيا حاشيته في الواقع إلى بضعة أصدقاء ، مع احتفال بين الحين والحين ، غير رسمي وأحيانا صاخب ، ليضفى بعض الحيوية على جو موسكو الرتيب . وكثيرا ما استحال اقتصاده شحا شديدا . فكان يبخس موظفي قصره أجورهم ، ويقتر في حساب نفقة القصر اليومية من الطعام ، ولا يدعو أصدقاءه لغداء أو عشاء بل لرحلات خلبية يدفع فيها كل منهم نصيبه ، ولما اشتكت البغايا اللاتي يرفهن عنه من ضالة أتعابهن أجاب بأنه ينقذهن قدر ما ينقد رامي القنابل اليدوية ، وهو رجل تفوق خدماته خدماتهن قيمة .

أما النساء فكان أحوالهن غريبة قليلة الخطر في حياته باستثناء واحد . ذلك أنه لم يكن مرهف الحس بالجمال . نعم كانت له حاجات جنسية ، ولكنه أشبعها دون احتفال . ولم يكن يحب أن ينام وحيدا ، ولكن لا شأن لهذا بالجنس ، وكان أحد الخدم يقاسمه فراشه عادة ، ولعله كان يحتاج إلى شخص قريب منه إذا دهمته تشنجاته في الليل . وحين بلغ السابعة عشرة ، ورغبة في تهدئة أمه ، تزوج يودوكسيا لوبوخينا ، التي وصفت بأنها « جميلة غبية » ، فلما وجد أحدي

الصفيتين أكثر دواما من الأخرى أهملها ، وعاد الى أصحابه ومراكبه .
واتخذ سلسلة من الخليلات العابرات ، كن فى الكثير الغالب وضيعات
الاصل رقيقات الحال . ومرة كان فردريك الثانى ملك الدنمرك يمزح
معه فى أمر اتخاذه محظية فأجابه بطرس « ياأخى ، ان عاهراتى
لا يكلفننى الكثير ، أما عاهراتك فيكلفنك آلاف الكراونات التى تستطيع
أن تنفقها فى وجوه أفضل (١١) » . وقد عمل ليفور ومينشيكوف
قوادين له ، ونزل مينشيكوف عن خليلته لتكون زوجة بطرس الثانية .
ولا بد أن هذه المرأة أوتيت قدرة فذة رفعتها - كما رفعت تيودورا خلية
جستنيان من قبل - الى عرش الامبراطورية بعد أن كانت موسا .

أما هذه المرأة ، التى ستصبح كاترين الاولى ، فقد ولدت حوالى
١٦٨٥ بليفونيا من أسرة وضيعة . ولما تينمت رباها الراعى اللوثرى
جلوك خادمة فى مارينبورج ، وعلمها مبادئ المسيحية ولكنه لم يعلمها
الأبجدية ، ولم تتعلم القراءة قط . وفى ١٧٠٢ حاصر جيش روسي يقوده
شيريميتيف مارينبورج . فلما يئس قائد الحامية من الدفاع قرر أن
ينسف القلعة وهو فيها . ونمى الى القس جلوك ما نوى القائد ، فأخذ
أسرته وخادمتة وفر الى المعسكر الروسي . فأرسل الى موسكو ، ولكن
كاترين أبقيت لترفيه عن الجنود . وارتقت منهم الى شيريميتيف ،
فمينشيكوف ، فبطرس . فى تلك الحروب والأخطار كان على المرأة
الفقيرة أن تتلطف لتأكل . ويبدو أن كاترين ظلت حينما تخدم كلا من
مينشيكوف والقيصر . وقد أحباها لأنها كانت نظيفة ، بشوشة ، لطيفة ،
متفهمة ، فهى مثلا لم تصر على أن تكون الخلية الوحيدة ، ووجد
بطرس فيها ترفيها مرحا بعد ضجيج السياسة أو الحرب وغضبات
المخططات النغورات ، ورافقته فى حملاته ، وعاشت عيشة الجنود ،
وقصت شعرها ، وافترشت الأرض ، ولم تجفل حين رأت الرجال
يصرعهم الرصاص الى جوارها . فإذا دهمت بطرس إحدى نوبات
تشنجه وخاف الجميع أن يلمسوه ، كانت تتحدث اليه ملاطفة ، وتربته ،
وتهدىء روعه ، وتدعه ينام وزاسه على صدرها . وإذا افترقا كتب الى
« كاترينوشكا » حبيبته رسائل تفيض حنانا معابثا ولكنه مخلص . ثم
غدت ضرورة لا غنى له عنها . ولم يحل عام ١٧١٠ حتى كانت زوجته
فى كل شيء الا شرعا . وولدت له عدة أطفال . وفى ١٧١١ عاونت على
انقاده فى البروث . وفى ١٧١٢ اعترف بها زوجة له علانية . وفى
١٧٢٢ توجهها امبراطورة .

وكان تأثيرها عليه طيبا من نواح كثيرة . فهذه الصبية الفلاحة هذبت من طباع ذلك الملك اللفظ . لقد حدثت من ولعه بالمسكر ، وفى عدة مناسبات كانت تدخل الحجرة التى يعاقر فيها الخمر ويقصف مع أصحابه وتأمرة بهدوء قائلة : « عد الى البيت أيها الأب الصغير » فيطيعها . وكانت تغضي عن مغازلاته بعد الزواج . ولم تبذل محاولة للتأثير عليه فى مجرى السياسة ، ولكنها حرصت على أن يدبر القيصر أمر مستقبلها ، ومستقبل أقبائها ، وأصدقائها . وتغلبت على الاستياء العام من جراء رفعها من أصلها الوضع بسلوها مسلك ملاك الرحمة ، وفى حالات عديدة أنقذت أشخاصا من العقوبات التى أراد بطرس أن ينزلها بهم ، فاذا أصر على الصرامة كان عليه أن يخفى الأمر عنها . وقد استغلت سلطانها عليه ببيع وساطتها ، وبهذه الطريقة جمعت ثروة فى الخفاء ، استثمرت بعضها بحكمة تحت أسماء مستعارة فى همبرج أو أمستردام . فهل نلومها لأنها نشدت شيئا من الضمان فى زمن كل شيء فيه رهن بنزوة رجل واحد ، وكل روسيا فيه فى تقلب وتغير ؟ .

٢ - الثورة البطرسية

ورث بطرس السلطة المطلقة ، وتقبلها قضية مسلمة ، ولم يتطرق اليه قط شك فى ضرورتها . فالحكم بمجلس تشريعى (دوما) من النبلاء (البويار) سيعيد الانفصالية الاقطاعية والفوضى القومية أو الركود ، والحكم بمجلس ديمقراطى مستحيل فى بلد مازال بدائيا من الناحيتين الفكرية والخلقية ، ووافق بطرس كرومويل ولويس الرابع عشر على أن تركيز السلطة والمسئولية هو وحده القادر على تنظيم الخليط البشرى المتنافر ليؤلف منه دولة لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على أهواء الشعب وصد هجمات الأعداء المتعطشين للأرض : ولم ينظر الى نفسه نظرتة الى حكم مستبد بل الى خادم للأمة ومستقبلها ، وكان هذا الى حد كبير ايمانا مخلصا ، نصف صادق على الأقل .

ولقد عمل بهمة لا تقل عن همة أبسط الفلاحين فى مملكته ، فكان عادة يستيقظ فى الخامسة صباحا ويكد أربع عشرة ساعة فى اليوم . لا ينام أكثر من ست ساعات فى الليل ، ولكنه يتقيل . ومثل هذا البرنامج لم يكن بالأمر غير العملى فى صيف سانت بطرسبورج ، حيث النهار يبرز فى الثالثة صباحا ويستمر الى العاشرة مساء ، أما فى الشتاء

فكان لابد من مواصلة الكثير من هذا البرنامج أثناء الليل الذى يبدأ حوالى الثالثة عصرا ويستمر الى التاسعة من صباح الغد .

وكانت سانت بطرسبورج الرمز ونقطة الارتكاز الارخميدية لثورة لم تكن موقعا مثاليا لعاصمة دولة نظرا لشدة قربها من الساحل ، ولكنها مع هذا كانت تبعد خمسة وعشرين ميلا من البحر ، فى نقطة يتفرع فيها نهر نيفا الى فرعين ، وكان بطرس يأمل أن يحميها بقلعة كرونستاد التى شادها (٧١٠) على جزيرة فى مدخل الخليج . أما المدينة نفسها فقد أسست فى ١٧٠٣ على غرار أمستردام . واذ كان الكثير من هذا الموقع تغمره المستنقعات (وكلمة نيفا باللغة السويدية معناها الوحل) فقد بنيت سانت بطرسبورج على دعامات - أو فى عبارة روسية حزينه ، على عظام آلاف العمال الذين جندوا قسرا لارساء هذه الأسس وتشيد المدينة . وفى ١٧٠٨ أرسل نحو ٤٠.٠٠٠ رجل للقيام بهذا العمل ، وفى ١٧٠٩ أرسل ٤٠.٠٠٠ آخرون ، وفى ١٧١١ أرسل ٤٦.٠٠٠ ، وفى ١٧١٣ أرسل ٤٠.٠٠٠ فوق ما سبق . وكانوا ينقدون نصف روبل فى الشهر ، لم يكن بد من أن يستكملوه بالتسول أو السرقة . وكان أسرى الحرب السويديون الذين استخدموا فى البناء يموتون بالآلاف . واذ لم يكن هناك عجلات يدوية ، فقد كان الرجال ينقلون المواد فى قفاطينهم المرفوعة . كذلك صودر الحجر ، فحرم مرسوم صدر فى ١٧١٤ تشييد بيوت بالحجر فى أى مكان بروسيا الا فى سانت بطرسبورج ، أما فى المدينة نفسها فقد أمر كل شريف فى البلاد بأن يبني له مسكنا من الحجر . وفعل الأشراف محتجين ، اذ كرهوا مناخ المدينة ولم يشاركوا بطرس عشقه للبحر . أما بطرس فكلف بعض مهرة الصناع الهولنديين بأن يقيموا له كوخا كالأكواخ التى رآها فى زاندام ، بحيطان من جذوع الشجر ، وسقف من الحصباء ، وحجرات صغيرة . وكان يكره القصور ، ولكنه سمح ببناء ثلاثة منها للمناسبات الرسمية فى بيترهوف (وهى الآن بترودفوريتس) على المشارف الجنوبية للمدينة . وقد دمر هذا « القصر الصيفى » فى الحرب العالمية الثانية . وفى ضاحية قريبة تدعى تسارسكو سيلو (وهى الآن بوشكين) ، شاد كوخا صيفيا لحبيبته كاتيرينوشكا .

ولم يكن قصده أول الأمر أن يجعل سانت بطرسبورج عاصمة بالإضافة الى كونها ميناء ، فقد كانت شديدة القرب الى عدوته السويد .

ولكنه قرر اجراء هذا التغيير بعد انتصاره على شارل الثانى عشر فى بلطاوه . وكان تواقا الى الهرب من جو موسكو الكنسي القائم وروحها القومية الضيقة ، وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهب عليهم من الغرب . وعليه فقد جعلها عاصمة له فى ١٧١٢ . وحزن أهل موسكو ، وتنبأوا بأن الله مدمر عما قريب تلك المدينة نصف الوثنية . كتب بوشكين يقول : « ان موسكو أحنت رأسها أمام العاصمة الجديدة ، كما تنحنى أرملة الامبراطور أمام امبراطورة شابة (١٢) » . لقد كان فى بطرس من شدة الشوق الى تغريب روسيا ما دفعه الى تحويلها صوب البلطيق وكأنه يجرها اليه جرا ، ثم أمرها أن تتطلع من خلال «نافذته على الغرب X» . وفى سبيل هذا الهدف ، وفى سبيل توفير قاعدة لأسطوله وميناء للتجارة الخارجية ، ضحى بكل الاعتبارات الأخرى . صحيح أن الميناء سيحيط بها الجليد خمسة أشهر فى السنة ، ولكنها ستواجه الغرب وتلمس البحر . وكما أن الدنيبر جعل روسيا بيزنطية ، والفلوجا جعلها آسيوية ، فكذلك سيغريها النيفا بأن تكون أيرية (١٤) .

وكانت الخطوة التالية بناء بحرية تحرس مسالك التجارة الروسية خلال البلطيق الى الغرب . وحقق بطرس هذه الغاية فترة ببناء ألف سفينة كبيرة خلال حكمه ، ولكنها كانت مبنية على عجل بناء سيئا . فتالفت أخشابها ، وتحطمت صواريخها فى الريح ، وبعد موته استسلمت روسيا لقضائها الذى حكمت عليها به الجغرافيا ، وهى أن تكون بلدا حبيسا فى اليابس مغلقا دون الاطلنطى ، منتظرا غزو الفضاء ليقفز متجاوزا حواجزه الى العالم . وبهذا المعنى كانت موسكو على حق : فقرة روسيا ودفاعها كان يجب أن يكونا على اليابس ، بجيوشه ورقعته الواسعة . وعليه فقد ثارت موسكو لنفسها فى ١٩١٧ وأصبحت العاصمة من جديد .

أما أعظم اصلاحات بطرس دواما فهو اعادته تنظيم الجيش .

X الظاهر أن هذه العبارة استعملوا أول مرة الكونت فرانسكر الجساروتى فى ١٧٣٩ (١٣) .

وكان قبله يعتمد على قوات مجندة من الفلاحين يقودهم ساداتهم الاقطاعيون الذين لهم عليهم حسق الولاء أولا ، وكانوا يفتقرون الى النظام ، ويعوزهم السلاح الجيد . وقد قوض بطرس سلطان النبلاء حين أنشأ جيشا دائما مدده من التجنيد الاجبارى ، وعтаده من أحدث أسلحة الغرب ، وضباطه رجال ارتقوا من تحت السلاح ودرّبوا على الهدف الجديد ، هدف خدمة روسيا فى فخر لا خدمة أقليم ضيق واقطاعى بغىض . والضرورة الحربية هى التى أملت على بطرس ثورته ، فما كان فى استطاعته تطوير روسيا دون أن يفتح لها طريقا الى البلطيق أو البحر المتوسط ، وما كان فى استطاعته أن يفعل هذا بغير جيش عصى ، ولا أن يحتفظ بجيش كهذا دون أن يغير اقتصاد روسيا وحكومتها ، ولا أن يغير هذين دون أن يعيد صنع الشعب الروسى من حيث عاداته وأهدافه وروحه . لقد كان عملا ينوء بحمله رجل واحد أو جيل واحد .

وقد استهله على طريقته المندفعة الهوائية بلهى الرجال المحيطين به وزيتهم . وفى ١٦٩٨ ، عقب عودته من الغرب ، خلق لحيته الخفيفة ، وأمر كل الذين يريدون الاحتفاظ برضائه أن يحذوا حذوه ، باستثناء بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية ، وبعد قليل أرسل مرسوم الى جميع أرجاء روسيا يقضى بأن يحلق جميع العلمانيين لحاهم ، ولهم أن يبقوا على شواربهم . وكانت اللحية أشبه برمز دينى فى روسيا ، أطلقها الأنبياء والرسل من قبل ، وقبل ثمانية أعوام فقط شجب البطريرك أوربان الجالس على كرسي البطريركية آنذاك خلق اللحية بوصفه عملا مهرطقا خارجا على الدين . وقبل بطرس التحدى : فخلق اللحية سيكون رمزا على الحداثة ، وعلى الرغبة فى دخول الحضارة الغربية . وأباح للعلمانيين الذين يشعرون بالحاجة الماسة الى الاحتفاظ بعوارضهم أن يحتفظوا بها لقاء ضريبة سنوية تبدأ من كوبك واحد للفلاح حتى تبلغ مائة روبل للتاجر الغنى . يقول كتاب تاريخ قديم « كان الكثير من شيوخ الروس يحرصون على شعر لحاهم أشد الحرص بعد حلقه ليوضع فى نعوشهم مخافة ألا يسمح لهم بدخول الجنة يحونهُ (١٥) » .

وبعد اللحية جاء دور الزى الروسى . هنا أيضا شعر بطرس أن

المقاومة الداخلية للتغريب ستخف بارتداء الزى الغربى . فقطع بنفسه
الأكمام الطويلة التى يلبسها من يمثل أمامه من ضباط الجيش . وقال
لأحدهم « انظر ، هذه الاشياء تعوق حركتك . فلا أمان لك فى أى مكان
ما دمت تلبسها . تارة تقلب كوبا ، وتارة أخرى تغمسها سهوا فى
الصلصة . أوص بصنع غطاء لحذائك منها (١٦) . وعليه صدر أمر
(يناير ١٧٠٠) يقضى على جميع رجال الحاشية والموظفين فى روسيا
باتخاذ الزى الغربى . وكان على الوافدين على موسكو أو الراحلين
عنها أن يختاروا بين قص قفاطينهم عند الركبة - وكانوا يرسلونها الى
الكاحل - وبين دفع غرامة . كذلك حثت النساء على ارتداء الزى
الغربى ، وكانت مقاومتهن أقل من مقاومة الرجال ، فالنساء فى عالم
الازياء دعاة للثورة فى كل عام .

وقضى بطرس على حجاب المرأة الروسية بقدوة أسرته أكثر مما
تقضى عليه بالقوانين . وكان أبوه الكسيس وأمه ناتاليا سباقين فى هذا
الطريق ، ثم وسعته أخته لأبيه صوفيا . أما بطرس فقد دعا النساء
لللقاءات الاجتماعية وشجعهن على أن ينزعن براقعهن ، ويرقصن ،
ويعزفن ، ويطلبن العلم ولو على يد المعلمين الخصوصيين . ثم أصدر
المراسيم التى تحظر على الآباء تزويج بنيتهم وبناتهم على غير إرادتهم،
وتشترط مضي ستة أسابيع بين الخطبة والزواج ، وفى هذه الفترة ينبغى
السماح للخطيبين باللقاء المتكرر ، وبفسخ الخطبة ان أرادا . وابتهجت
النساء بالخروج من الحريم « التيريم » وبدأن سباقا فى اتخاذ الازياء
الجديدة ، وكان بعض الزيادة فى ولادة الاطفال غير الشرعيين حجة
تذرع بها رجال الدين ليقولوا ثورة بطرس .

ولقد كانت مقاومة الدين له العقبة الكؤود فى سبيله . ذلك أن
رجال الاكليروس أدركوا أن أصلاحاته ستنتقص من مكانتهم وسلطتهم .
فناحوا وولولوا على تسامحه مع المذاهب الغربية فى روسيا ، وخامرتهم
الظنون فى ايمانه بأى عقيدة دينية . وسمعوا فى اشمئزاز شديد
بالتقليدات الساخرة التى كان هو وخلصاؤه يهزأون فيها بالطقوس
الارثوذكسية . وكان بطرس من ناحيته يغيظه تحويل القوى البشرية
الى الاديان الشاسعة التى لا حصر لها ، ويشتهى الموارد الهائلة التى

لتمتع بها هذه المؤسسات . فلما مات البطريرك أوريان (أكتوبر ١٧٠٠) ، امتنع بطرس عمدا عن تعيين خلف له ، وأصبح هو نفسه رئيسا للكنيسة على نحو ما فعل هنرى الثامن فى انجلترا ، وتزعّم حركة اصلاح دينى فى روسيا . وظل منصب البطريرك شاغرا احدى وعشرين سنة ، فحرمت الكنيسة الارثوذكسية زعيما يتصدى لاصلاحات بطرس . وفى ١٧٢١ ألغى المنصب كله ، وأحل مكانه « مجمعا مقدسا » من رجال الكنيسة يعينه القيصر ويخضع لوكيل عثمانى . وفى ١٧٠١ نقل ادارة الممتلكات الكنسية الى احدى مصالح الحكومة ، واختزل اختصاص المحاكم الكنسية ، وأخضع تعيين الاساقفة لتصديق الحكومة . ومنعت مراسيم أخرى رسامة المتصوفين أو المتعصين ، وحدت من عدد مراكز صنع المعجزات . وقضى على الرجال الا يقطعوا على أنفسهم نذور الرهبنة قبل الثلاثين ، وعلى النساء الا ينذرن أنفسهن نهائيا للرهبنة قبل الخمسين (١٧) . وتقرر الزام الرهبان بالقيام بعمل نافع . وأجرت الحكومة تعدادا للممتلكات والايرادات الديرية ، وترك بعض الايراد للاديار ، وخصص الباقي لانشاء المدارس والمستشفيات (١٨) .

واستسلم معظم الاكليروس لحركة الاصلاح الدينى الروسى هذه ، وهو اصلاح لم يمس العقيدة كما لم يمسا هنرى الثامن . وندد بعض المخالفين ببطرس عدوا للمسيح ، وأهابوا بالشعب أن يرفضوا طاعته ودفع الضرائب له . فأمر بالقبض على زعماء هذا التمرد ، وتصرف معهم بطريقته العادية . فجلد البعض ونفوا الى سيبيريا ، وسجن البعض مدى الحياة ، ومات أحدهم من التعذيب ، وأحرق اثنان منهم حرقا بطيئا حتى الموت (١٩) .

وفى غير هذا كان بطرس متمشيا مع الغرب فى التسامح الدينى . فحمى المخالفين من الاضطهاد ما داموا بعيدين عن السياسة . وفى سانت بطرسبورج ، وبهدف تشجيع التجارة ، سمح ببناء الكنائس الكلفتية واللوثرية والكاثوليكية على « النيفسكى بروسبكت » ، الذى أصبح يلقب « مكان التسامح (٢٠) » وحمى الرهبان الكبوشيين الذين دخلوا روسيا ، ولكنه نفى اليسوعيين (١٧١٠) لمثايرتهم الشديدة على

اندعوة لكنيسة روما • وكانت اصلاحات بطرس الدينية بوجه عام ابقى
اصلاحاته كلها ، فقد أنهت العصور الوسطى فى روسيا •

ثم غيرت عملية ضخمة من العلمنة حياة روسيا وروحها ، من
نحكم الكهنة وملاك الاراضي الى حكم الدولة الذى كاد يصل الى حد
التنظيم العسكرى الصارم • فقد أخضع بطرس النبلاء لارادته ،
واكرهمهم على خدمة الشعب ، واعاد تنظيم مراتب المجتمع حسب أهمية
لخدمة الاجتماعية التى تؤدى • فنبتت أرستقراطية جديدة ، تتألف من
موظفى الجيش والبحرية ودواوين الدولة • ورأس الحكومة مجلس
نيوخ من تسعة رجال (زيدوا بعد ذلك الى عشرين) يعينهم القيصر ،
وكان يديرها تسع هيئات أو « كليات » تختص بالضرائب والدخل ،
والمصروفات ، والحسابات والرقابة ، والتجارة ، والصناعة ، والعلاقات
الخارجية ، والحرب ، والبحرية ، والقضاء ، وكان حكام الاقاليم الاثنا
عشر ، أو « الجوبيرنيا » والمجالس التى تحكم المدن ، مسئولين أمام
مجلس الشيوخ • وقسم سكان كل مدينة الى طبقات ثلاث : التجار
والاغنياء والمهنيين ، والمدرسين والحرفيين ، والاجراء والعمال ،
والطبقة الاولى وحدها هى التى يجوز انتخابها للمجلس البلدى
(الماجسترا) ، والطبقتان الاوليان وحدهما لهما حق التصويت ،
ولكن لكل دافعى الضرائب الذكور الحق فى الاشتراك فى اجتماعات
المدينة • وظهر « المير » أو مجتمع القرية ، لا بوصفه مؤسسة
ديمقراطية ، بل هيئة مسئولة بجمليتها عن ضريبة الرعوس التى أدخلت
فى ١٧١٩ • وحد الاشراف المركزى من الاستقلال المحلى ، ولم يكن
هناك أى تفكير فى النظم الديمقراطية ، لأن التغيير السريع الذى
أخبطه بطرس لا سبيل الى تحقيقه - ان كان هناك سبيل على الاطلاق -
لا بالسلطة الدكتاتورية •

ووجب أن يشمل ذلك التغيير الاقتصاد كما شمل السياسة ، لأن
مجتمعا زراعيا خالصا لا يمكن أن يحتفظ باستقلاله طويلا أمام دول
أغنتها الصناعة وزودتها بالسلاح • وقد أورد اقتصادى المانى عاصر ذلك
العهد رأيا سيثبت صوابه القرنان التاليان له - وهو أن الامة التى
لا تصدر فى الأكثر غير الخامات والحاصلات الزراعية لن تلبث أن

تخضع للدول المنتجة والمصدرة للمسلع المصنوعة أولا (٢١) . وعلى ذلك لم يوجه بطرس للزراعة الا القليل من اهتمامه . وبدلا من أن يخفف من رق الأرض طبقه على الصناعة . وقد علم الفلاحين بقدوته الشخصية كيف يحصدون غلتهم وأمر بأن يستبدل بالمنجل ذات المقبض القصير sickles مناجل ذات مقبضين seythes . وقد ألف الروس حرق أراضي الغابات للحصول على رماد مخصب للتربة ، فحظر بطرس هذا العمل ، لأنه احتاج للألواح الخشب لسفنه ، وللأشجار لصواريه . وأدخل زراعة التبغ ، والتوت ، والكروم ، وافتتح تربية الخيل والغنم فى روسيا .

على أن هدفه الأهم كان التصنيع السريع . وكانت أولى مشاكله توفير الخامات . فشجع نشر التعدين ، ومنح المكافآت الحافزة لرجال مثل نيكيتا ديميدوف والكسندر ستروجانوف أبدوا الجرأة والمهارة فى التعدين وتشغيل المعادن ، وحث ملاك الأراضي على أن يشجعوا أو يسمحوا باستخراج المعادن من أراضيهم ، فان قصروا فى هذا فلغيرهم أن يستخرجوها لقاء رسم اسمى فقط يؤدونه لهم . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كفت روسيا عن استيراد الحديد ، وقبل موت بطرس كانت تصدره (٢٢) .

تم استقدم مهرة الصناع ومديرى الصناعة الأجانب ، وحض الروس من جميع الطبقات على تعلم الفنون الصناعية . وافتتح انجليزى بموسكو مصنعا لدبغ الجلود وصنع الأحذية ، وأمر بطرس كل مدينه فى روسيا بأن تبعث وفدا من الحذائين الى موسكو لتعلم أحدث طرق صناعة الأحذية بنوعيتها الواطىء والعالى ، وهدد المتمسكين بالأساليب العتيقة فى هذه الصناعة بتشغيلهم فى سفن العبيد . ورغبة فى تشجيع صناعة النسيج الروسية لم يلبس غير المنسوجات الوطنية بعد أن نشطت صناعتها ، وحظر على المسكوفيين شراء الجوارب المستوردة . وما لبث الروس أن صنعوا المنسوجات الجيدة . وروع اميرال بحرى أصحاب التقاليد ، وأبهج القيصر ، بصنعه المقصبات الحريرية . وصنع فلاح طلاء (لاكمه) يفوق أى نظير له فى « أوربا » باستثناء الطلاء البندى وقبل أن ينتهى حكم بطرس كان فى روسيا ٢٢٣ مصنعا ، بعضها

لا يستهان بحجمه ، واستخدمت صناعة الحرير بموسكو ١٨٦٢ عاملا ، واستخدم أحد مصانع التسيج ٧٤٢ رجلا ، وآخر ٧٣٠ ، ووظفت مؤسسة للتعيين ٦٨٣ شخصا (٢٣) . نعم كان فى روسيا مصانع قبل بطرس ، ولكن ليس على هذا النطاق . وكثير من المصانع الجديدة بدأتها الحكومة ثم سلم للأهالى ليديره ، ولكنهم مع هذا كانوا يتلقون اعانات من الدولة ، ويخضعون لأشراف دقيق من الحكومة . وكانت الرسوم الجمركية المرتفعة الحامية درعا يقى الصناعة الوليدة من المنافسة الأجنبية .

ولجأ بطرس الى تجنيد الرجال قسرا ليزود بهم المصانع . ولم يتوفر من العمال الا القليل ، فحول الفلاحين صنعا طوعا أو كرها . وخول لرجال الصناعة أن يشتروا الأقدان من ملاك الأراضى ويشغلهم فى المصانع . وزودت المشاريع الكبرى بفلاحين منقولين من أراضى الدولة ومزارعها (٢٤) . وحدث ما يحدث فى معظم المحاولات الحكومية للتصنيع السريع ، اذ لم يستطع القادة الانتظار ريثما تتغلب غريزة التملك على العادات والتقاليد ، وتقود العمال من ميادين وأساليب عتيقة الى أعمال وأنظمة جديدة . فطورت قنية صناعية ، على كره من بطرس بوجه عام ، وعن عمد من خلفائه . واعتذر بطرس عنها فى مرسوم ١٧٢٣ ، فقال :

« ألا يصنع كل شيء (أول الأمر) بالاكراه ؟ أما أن الراغبين فى الاشتغال بالصناعة قلة فصحيح ، لأن شعبنا أشبه بالأطفال ، يأبون البدء بتعلم الأبجدية ما لم يكرههم عليها معلموهم . ويبدو لهم هذا التعلم غاية فى الصعوبة أول الأمر ، ولكنهم ما ان يتعلموها حتى يحمداوا لمعلميهم صنيعهم ، ونحن نسمع اليوم الكثير من آيات الحمد والشكر على الإصلاحات التى أتت أكلها فعلا ... فعلينا فى مسائل الصناعة أن نعمل ونلزم ، ونعين بالتعليم (٢٥) » .

ولكن الصناعة لا تتطور الا بتجارة تبيع منتجاتها . ولكى يشجع بطرس التجارة رفع المكانة الاجتماعية لطبقة التجار . وفرض نمو صناعة كبيرة لبناء السفن فى أركانجل وسانت بطرسبورج . وحاول إنشاء بحرية تجارية تحمل السلع الروسية فى سفن روسية ولكنه أخفق

لأن الفلاح الروسي الذى ضربت جذوره فى الأرض وانغلق فيها لم يقبل على البحر برغبة أو كفاية . وفى داخل روسيا نفسها كانت المسافات الشاسعة والطرق الوعرة تعوق التجارة . ولكن الأنهار كانت وفيرة ، تغذيها ثلوج الشمال وأمطار الجنوب ، فاذا نجمدت الأنهار فى صلابة تتحمل بفضلها الانتقال شأنها شأن الطرق المجمدة . وكانت الحاجة ماسة لربط هذه الأنهار بقنوات - تصل النيفا والدوينا بالفولجا ، والفولجا بالدون ، فيربط البلطيق والبحر الأبيض بالبحر الأسود ويحر قزوين . وأرسى بطرس الأساس لهذه المجموعة الكبيرة ، وافتتح فى ١٧٠٨ القناة الموصلة بين النيفا والفولجا ، ولكن كان لا بد أن تنفضى عهود ملكية عديدة قبل أن تكتمل هذه الشبكة ، وقد لفى الآلاف من العمال حنقهم فى هذه المحاولة .

وأكرهت الحرب والمشروعات المتنوعة بطرس على جمع رأس المال بمقادير لم يسبق لها نظير فى روسيا . وقد حصل على بعضه باعطاء الحكومة احنكار انتاج وبيع الملح ، والتبغ ، والقار ، والدهون ، واللبوتاس ، والراتنج ، والغراء ، والراوند ، والكافيار ، وحتى التوابيت المصنوعة من البلوط . وكانت هذه التوابيت تباع بربح بلغ ربعمائه فى المائة ، أما الملح فتواضع ربحه الى مائة فى المائة ، ولكن لفبصر أدرك أن الاحتكارات تعوق الصناعة والتجارة ، فبعد أن أبرم الصلح مع السويد ألغاهما بجرة قلم وأطلق التجارة الداخلية من عقالها . وبقيت التجارة الخارجية حاضعة لرسوم التوريد والتصدير ، ولكنها كادت تبلغ عشرة أضعافها بين ١٧٠٠ وموت بطرس فى ١٧٢٥ . وكان كثرها تنقله سفن أجنبية ، وما بفى منها فى أيد روسية كانت تعرقله لرشوة التى استشرت بحيث لم تجد فيها حتى عقوبات بطرس الوحشية .

أما نظام الضرائب فكان ساملا . فقد كلفت هيئة خاصة عينتها الحكومة بوضع نظام لضرائب جديدة وإدارته . وفرضت الضرائب على القبعات والأحذية ، وخلايا النحل ، والحجرات ، وأقباء الخمور والمؤن ، والمداخن ، والمواليد ، والزيجات ، واللحى . أما الضريبة على الأسر فقد عطلتها الهجرات الجماعية غير المنظمة ، فاستبدل بها

سفرس ضريبة على « الأنفس » أينما وجدت ، ولم تطبق هذه الضريبة على النبلاء أو الاكليروس . وارتفعت إيرادات الدولة من ١٤٠٠.٠٠٠ روبل فى ١٦٨٠ الى ٨٥٠٠.٠٠٠ فى ١٧٢٤ - خصص خمسة وسبعون فى المائة منها للجيش والبحرية . ونصف هذه الزيادة كانت غير واقعية بسبب انخفاض قيمة العملة بمقدار النصف فى عهد بطرس ، لأنه لم يستطع مقاومة اغراء الريج المؤقت بغش العملة .

وكان افتقار الجميع - من الملك الى الفلاح - للنزاهة معطلا لسير الاقتصاد ، وجمع الضرائب ، وأحكام القضاء ، وتنفيذ القوانين . وقد قرر بطرس الحكم بالأعدام على جميع الموظفين الذين يقبلون « الهدايا » ولكن احد مساعديه نبهه الى أنه ان نفذ هذا القانون فلن يجد بعد حين غير موظفين أمواتا . ومع ذلك قتل بعضهم . من ذلك ان الأمير مانفى جاجارين ، حاكم منبيرييا ، أثرى ثراء صارخا ، فزين تمثاله المصنوع للعدراء بمجوهرات بلغت قيمتها ١٣٠.٠٠٠ روبل ، وأراد بطرس أن يعرف كيف حصلت عليها العدراء ، فلما عرف شنق جاجارين . وفى ١٧١٤ قبض على عدد من كبار الموظفين بتهمة سرقة الحكومة والشعب ، وكان من بينهم نائب حاكم سانت بطرسبورج ، ورئيس تموين الدولة ، ورئيس الأميرالية ، وحاكما نارفا وريفيل ، وعدد من أعضاء السنااتو . وشنق بعضهم ، وحكم على بعضهم بالسجن مدى الحياة ، وجذعت أثواب البعض ، وجلد البعض بالعصي . ولما مر بطرس بوقف الجلد توصل اليه الجنود الذين كانوا يقومون به قائلين « اسمح لنا يا أبناؤنا أن نجلدهم أكثر قليلا لأن هؤلاء اللصوص سرقوا كل شيء حتى خبزنا (٢٦) » . واستشرى الفساد ، وزعم مثل روسي أن المسيح نفسه كان من الجائز أن يسرق لولا أن يديه شدتا الى الصليب .

وفى وسط هذا النضال ، نضال ارادة واحدة تريد تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية لنصف قارة ، وجد بطرس وقتا حاول فيه احداث ثورة ثقافية أيضا . لقد كان يكره الخرافة ، ويتوق الى أن يحل محلها التعليم والعلم . وكان الروس الى عهده يؤرخون من خلق العالم كما لفترضوه ، ويبدأون السنين بشهر سبتمبر . وفى ١٦٩٩ جعل بطرس

التقويم الروسي يتفق مع التقويم اليولياني ، كما تستعمله الدول البروتستنتية ، فتقرر أن تبدأ السنة بعد ذلك بيناير ، وتؤرخ من مولد المسيح . وتذمر الشعب ، فكيف يختار الله منتصف الشتاء زمانا للخلقة ؟ وأنفذ بطرس ما أراد ، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق التقويم الجريجورى ، الذى قبلته أوربا الكاثوليكية فى ١٥٨٢ ، فحذف عشرة أيام كما اقتضته تلك « الحيلة البابوية » كان يسلب عدة قديسين أرثوذكس أعيادهم المقدسة .

ووفق القيصر الذى لم يهدأ له بال فى مشروع آخر لا يقل عننا ، هو اصلاح الأبجدية . ذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعمل الأبجدية السلافونية القديمة ، ولكن الطبقات الصناعية والتجارية اقتبست أبجدية أساسها الحروف اليونانية . فأمر بطرس بأن تطبع بها كل الكتب غير الدينية . واستورد المطابع واستقدم الطباعين من الأراضى المنخفضة ، وبدأ (١٧٠٣) أول جريدة روسية ، وهى « جازيتة سانت بطرسبورج » ، وأمر بنشر كتب فى التكنولوجيا والعلوم ، ومول النشر ، وأسس مكتبة سانت بطرسبورج ، وأنشأ المحفوظات الروسية بأن جمع فى المكتبة مخطوطات الأديار وسجلاتها وأخبارها . وفتح عدة معاهد تقنية وأمر بأن يلتحق بها أبناء الطبقة الارستقراطية . وحاول أن ينشئ فى كل إقليم « مدرسة للرياضيات » ، وفى موسكو أنشأ مدرسة ثانوية « جمنازيوم » على غرار المدارس الألمانية لتعليم اللغات والأدب ، والفلسفة ، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها طول البقاء . وفى ١٧٢٤ نظم أكاديمية سانت بطرسبورج ، وجلب إليها علماء أفذاذا كجوزيف دليل ليعلم الفلك ، ودانيال برنوللى ليعلم الرياضيات . وبالحاح من لابينتز كلف (١٧٢٤) فيتوس بيرنج ، الملاح الدنمركى ، بأن يرأس بعثة الى كمشتكا ليتبين هل آسيا وأمريكا متصلتان طبيعيا . وقد أقلع بيرنج بعد وفاة بطرس .

أما المسرح الروسي فكان على عهد الكيسس لايقدم غير الحفلات الخاصة . فرخص بطرس مسرحا على الميدان الأحمر وفتحه للجمهور ، واستقدم الممثلين الألمان ، فمثلوا خمس عشرة مأساة وملهاة ، منها بعض ملاحى مولير . وجلب الموسيقيين الأجانب لتأليف الأوركسترات . وأدخلت فى روسيا السوناتا والكونشرتو ، واتخذت الموسيقى العلمانية

الروسية أشكالاً أوربية من تألف الألحان وامتزاجها . وأوصى بطرس بشراء اللوحات والتماثيل ، ولا سيما الإيطالية منها ، وجمعها هي وغيرها من الآثار الفنية في متحف للفن في سانت بطرسبورج فتحه لجميع الزوار مجاناً ، وأمر بتقديم المشروبات الخفيفة لهم (٢٧) . ووفد المصورون الأجانب ليرسموا لوحات الأشخاص بأسلوب الغرب . وبُنيت بعض الكنائس أيام الكيسيس ، ولكن قل منها ما بنى أيام بطرس . ووجد المعماريون الآن أنه أريح لهم أن يبنوا القصور .

ولم يزدهر أدب عظيم خلال هذه الثورة التي اقتلعت القديم من جذوره ، فلأبد من انقضاء وقت حتى يمكن الاحساس بدفعة بطرس في الشعر . وقد صدر كتاب جرىء قبل وفاته بعام ، وهو « كتاب الفقر والغنى » بقلم ايفان بوسوشكوف الذي وبخ الروس على همجيتهم وأميتهم ، وظاهر بقوة اصلاحات القيصر . وقد جاء في الكتاب « من سوء الحظ أن مليكنا العظيم يكاد يقف وحده ، ومعه عشرة أشخاص ، في محاولة رفع الأمة في حين يحاول الملايين خفضها (٢٨) » . وندد ايفان بظلم الفلاحين ، وطالب بقضاء نزيه تجريه محاكم متحررة من السيطرة الطبقية ، وصدّم القيصر بأن طلب جمع ممثلين لجميع الطبقات ليكتبوا دستوراً جديداً ومدونة قوانين لروسيا . وقبض على بوسوشكوف بعد موت بطرس ببضعة شهور ، ومات في السجن في ١٧٢٦ .

٣ - العقابيل

ازدادت المقاومة لاصلاحات بطرس من سنة الى سنة . ذلك أن الروس ألفوا الفقر ، والعذاب ، والاستبداد ، ولكنهم لم يسبق لهم قط - حتى تحت حكم ايفان الرهيب - أن أثقلوا بمثل هذه الأعباء ، أو دفعوا مثل هذه الضرائب ، أو ماتوا بمثل هذه الكثرة لا في ساحة القتال فحسب بل في أشغال السخرة جوعاً وبردًا وإعياء ومرضا . كتب ليفور صديق بطرس المحبوب في ١٧٢٣ يقول « ان الشقاء يشتد من يوم الى يوم ، والشوارع تمتلئ بناس يحاولون بيع 'طفالهم' . . . والحكومة لا تدفع مالا لا للجنود ، ولا لرجال البحرية ، ولا لموظفي الادارات

الحكومية ، ولا لأحد (٢٩) » . وحير القيصر ازدياد الفقر وسط
اصلاحاته ، فجعل التسول أو التصدق على المتسولين جريمة ، وأقام
ستين منظمة لتوزيع الصدقات .

ولكن التسول استمر ، والجريمة انتشرت . وكاد يسيطر على
الطريق الأقنان الآبقون من الرق ، والجنود والعمال المسخرون الذين
هجروا معسكراتهم معرضين أنفسهم للموت . ونظموا أنفسهم أحيانا
أفواجا عدتها مئات حاصرت المدن واستولت عليها . ذكر قائد فى
١٧١٨ « ان موسكو مباءة للسطو ، وكل شيء فيها خرب ، وعدد
الخارجين على القانون يتضاعف ، واعداد المذنبين لا يتوقف أبدا » .
وأقام المواطنون المتاريس فى بعض شوارع موسكو ، وأحاطوا بعض
البيوت بأسوار عالية اتقاء اللصوص . وحاول بطرس منع السرقة
بالعقاب الصارم ، فأمر بأن يشنق قطاع الطرق الذين يقبض عليهم ،
وأن تجدد أنوف الساطين على المنازل ، الخ . ولكن هذه العقوبات لم
تردع المجرمين . فقد شقت الحياة على الفقراء حتى لم يصبح هناك
فرق يذكر فى نظرهم بين عقوبة الأعدام وبين السجن المؤبد الذى
يفضونه راسخين فى أغلال القنية أو السخرة ، واحتملوا أبشع ضروب
العذاب بتجلد من ماتت أعصابهم .

واشتد كره الناس لبطرس حتى لقد عجب الكثيرون أن أحدا لم
يقتله . كرهه النبلاء لأنه أرغمهم على خدمة الدولة ، ولأنه رفع
الطبقات الصناعية والتجارية مقاما وثراء ، وكرهه الفلاحون لأنه
سخرهم فى عمل اقتلعهم من أوطانهم ، ومن أسرهم فى كثير من
الحالات ، وكرهه رجال الكنيسة لأنه الوحش الوارد ذكره فى سفر
الرؤيا ، والذى جعل المسيح ذاته خادما للحكومة ، وارتاب فيه كل
الروس تقريبا لاختلاطه بالأجانب واستيراده الأفكار « الوثنية » ،
وخافت روسيا كلها بأسه لعنفه ولعقوباته الوحشية . ان روسيا لم ترد
غذا التغريب ، انها تمقت الغرب مقتا شديدا ، والاحتفاظ بروحها
القومية كان يقتضيها أن تكون « سلافية الميول » ونشبت حركات تمرد
بأية بموسكو ١٦٩٨ ، وبأستراخان فى ١٧٠٥ ، وعلى طول الفولجا
فى ١٧٠٧ ، وفى أوقات متفرقة فى أرجاء الامبراطورية وخلال
العهد كله .

أما بطرس فقد رمز الى الصراع وزاده حدة بالعودة الى الغرب مرتين . ففي خريف ١٧١١ ذهب الى ألمانيا ليرأس فى تورجو مراسيم زواج ابنة . وهناك استقبل ليبنتز ، الذى اقترح عليه انشاء أكاديمية روسية كان يرجو الفيلسوف المتعدد المواهب أن يرأسها . وعاد القيصر الى سانت بطرسبورج فى يناير ١٧١٢ ، ولكنه فى أكتوبر ، وسط حملة شنها الى السويد ، استشفى بمياه كارلسباد ، وزار فتنبرج . وأخذ بعض القساوسة اللوثرين الى البيت الذى قذف فيه لوثر محبرة على الشيطان ، وأروه الحبر على الحائط ، وطلبوا اليه أن يكتب تعليقا عليه ، فكتب « ان الحبر جديد تماما ، فواضح اذن أن القصة غير صحيحة (٣٠) » . وعاد بطرس الى عاصمته الجديدة فى أبريل ١٧١٣ . وفى فبراير ١٧١٦ انطلق الى الغرب مرة أخرى ، فزار ألمانيا وهولندا ، وفى مايو ١٧١٧ بلغ باريس آملا أن يزوج ابنته اليزابيث للويس الخامس عشر . ولما التقى بطرس بالملك الصبى ذى السبعة الأعوام ، رفعه ليقبله ، وبعد أيام ، حين كان لويس يستقبله أمام القصر الملكى ، رفعه بطرس كأنه طفل وحمله صاعدا السلم مما جعل أفراد الحاشية يرتعدون . وأنفق فى باريس ستة أسابيع متفرجا ، مستوعبا كل جوانب الحياة فى المدينة - السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية . وصوره الرسامان ريجو وناتيهيه . وزار مدام دمانتنون العجوز فى سان - سير . ومن باريس ذهب الى سبا ، وظل خمسة أسابيع يشرب المياه هناك ، لأنه كان اذ ذاك يشكو عللا كثيرة - ولحقت به زوجته كاترين فى برلين . واكتشفت أن له خلية ، ولكنها اغتصرت ذلك جريا على أرقى تقاليد البيوت المالكة الأوروبية . فلما وصل الى سانت بطرسبورج (٢٠ أكتوبر ١٧١٦) واجه أزمة من أسوأ الأزمات فى حياته .

ذلك ان ابنة الكسيس ، الذى كان يرجو أن يورثه ملكه ويترك له المضي قدما فى اصلاحاته ، انتهى الى كره الكثير من تلك البدع ، وكره الأساليب التى كانت تفرض بها فرضا . وكان فى بدنه وعقله ابن يودوكسيا أكثر منه ابن بطرس . وكان ضيئل الجسم ، هيايا ، ضعيفا ، ولوعا بالكتب ، مخلصا للكنيسة الارثوذكسية ، لأنه ربى على التقوى بينما كان بطرس منطلقا الى الحرب والغرب . وحين بلغ الكسيس

التاسعة رأى أمه تقصي الى الدير (١٦٩٩) ، فلما بلغ الحادية عشرة سمع الكهنة يتحسرون على صهر أجراس الكنيسة لصنع المدافع ، وسأل أباه لم يذهب الروس خارج روسيا للقتال فى سبيل مدينة نائية كنارفا ، واتشماز بطرس حين وجد أن وريثه لا يستطيع سفك الدماء .

وبينما كان بطرس مشغولا ببناء سانت بطرسبورج ، مكث الكسيس بموسكو ، وأحب كنائسها وأساليب حياتها القديمة . وقد كره تمزيق البطريركية ومصادرة الدولة للممتلكات الديرية . وعلمه كاهن اعترفه أن بدافع عن الكنيسة دائما أيا كان الثمن . وغدا الكسيس المعبود ومعقد الآمال للجماعات الكنسية والارستقراطية التى أبغضت علمنة بطرس لروسيا وتغريبها ، وانتظرت بفارغ الصبر الوقت الذى يجلس فيه على العرش ذلك الفتى المتدين المطواع . وكان بطرس لا يراه الا لماما ، فاذا رآه وبخه عادة ، وضربه أحيانا ، كما فعل حين اكتشف القيصر أن الصبى زار أمه خفية فى ديرها . وأوشك استياء الفتى أن يكون كرها . واعترف لكاهنه اجناتيف أنه يتمنى لو مات أبوه . ولم ير اجناتيف فى هذا اثما ، فقال للكسيس « ان الله سيغفر لك فكلنا نتمنى موته ، لأنه حمل الشعب أحمالا ثقالا (٣١) » .

وفى ١٧٠٨ بعث بطرس ابنه الى درسدن ليدرس الهندسة وفن التحصين . وفى ١٧١١ تزوج الكسيس بمدينة تورجو شارلوت كرسطينا صوفبا ، أميرة برنزويك - فولننبوتل . ولم يستطع أن يغتفر لها رفضها التخلّى عن مذهبها اللوثرى واعتناق المذهب الأرثوذكسي الروسى . واتخذ الخليلات حتى من المواخير ، وأفرط فى الشراب . وعقب أن ولدت له شارلوت طفلا زارها بصحبة مومس (٣٢) . وبعد عام ماتت زوجته وهى تلد (١٧١٥) . واستدعاه بطرس الى سانت بطرسبورج بخطاب غاضب حوى عبارات تنذر بالويل والثبور « اننى لا أضن بحياتى ، ولا بحياة أحد من رعاياى ، ولن استثنيك من هذه القاعدة ، فعليك أن تصلح من حالك ، وأن تجعل نفسك نافعا للدولة ، فإن لم تفعل حرمتك من الميراث (٣٣) » . وحاول الكسيس تهدئه نائرة أبيه بالتخلّى عن حقوقه فى العرش ، وقال انه سيقنع بالعيش عيشة هادئة فى الريف . وشعر بطرس بأن هذا ليس حلا . وفى ٣٠ يناير ١٧١٦ كتب الى الكسيس يقول :

« لا أستطيع تصديق يمينك ... لقد قال داود ان كل البشر كذابون ، فحتى لو شئت الوفاء بها لثناك عن ذلك ذوو اللحن الطويلة ... فكل الناس يعرفون أنك تكره أعمالى التى أعملها فى سبيل هذه الأمة ، غير ضنين بصحتى ، وأنتك بعد موتى ستقضى عليها ، ولهذا السبب فان بقاءك كما تريد أن تبقى ، بغير وجهة محددة ، ضرب من المحال . وعليه فاما أن تغير من خلقك ، وتصبح دون نفاق خلفى الكفة ، أو تصبح راهبا . فأجبنى فورا ... فان لم تفعل عاملتك كما عامل المجرمين (٣٤) » .

وأشار عليه أصدقاؤه بالرهبانية ، وقال أحدهم ، « ان قلنسوة الراهب لا تسمر فوق انسان ، ففى الامكان خلعهها » وكتب الكسيس لابيه بأنه راغب فى الرهبانية . ولانت قناة بطرس ، وأمهله نصف سنة ليستقر على رأى . ووصل القيصر الى الغرب (فبراير ١٧١٦) . وفى ٢٩ يونيو نصحت ناتاليا ، اخت بطرس ، الكسيس بأن يرحل عن روسيا ويضع نفسه فى حمى الامبراطور . وفى سبتمبر كتب بطرس لابنه من كوينهاجن يقول ان نصف العام قد انتهى ، وان على الكسيس أن يدخل الدبر فورا ، أو يلحق بأبيه فى الدنمرك مستعدا للخدمة العسكرية . وتظاهر الكسيس بأنه ذاهب الى أبيه ، وحصل على المال من منشيكوف ومجلس الشيوخ ، ثم انطلق لا الى كوينهاجن بل الى فيينا (١٠ نوفمبر) . وهناك التمس من نائب المستشار الامبراطورى أن يحصل له على حماية الامبراطور شارل السادس قائلا « ان أبى غضوب محب للثأر الى حد لا يصدق ، وهو لا يرحم أحدا ، ولو ردنى الامبراطور الى أبى لكان فى هذا حتفى (٣٥) » . وأرسله نائب المستشار الى قلعة ابرنبيرج بالتيرول . وهناك ظل مختبئا متنكرا ، تحت الرقابة ولكنه مزود بكل أسباب الراحة ، وسمح له بالاحتفاظ بخيلته أفروسينيا مرتدية ثياب الوصيف . وتتعبه جواسيس بطرس الى مخبئه ، وأنذر الكسيس ففر الى نابلى حيث كان تحت الحراسة فى « كاستيل سانتيلمو » . وعثر عليه عملاء بطرس والحواء عليه فى العودة الى روسيا واثقا من رافة أبيه به . فقبل شريطة أن يأذن له بطرس بالعيش مع أفروسينيا معتزلا فى الريف . ووعد بطرس بهذا فى خطاب بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٧١٧ . ورتب الكسيس أن تظل أفروسينيا بايطاليا حتى تضع مولودها . وكان أثناء رحلته الطويلة الى روسيا يبعث لها بأرق الرسائل .

ووصل موسكو فى آخر يناير . وفى ٣ فبراير استقبله بطرس فى اجتماع مهيب ضم كبار رجال الدولة والكنيسة . والتمس الكسيس العفو من أبيه وهو جاث ودموعه تسيل . ومنحه بطرس العفو ، ولكنه حرره من وراثة العرش ، وأعلن ابن كاترين ، بطرس بتروفيتش ، البالغ من العمر ثلاث سنين ، وريثا للعرش . وأقسم الكسيس يمين الولاء لولى العهد الجديد . وعلق بطرس عفوه الآن على شرط ، هو اعتراف الكسيس بشركائه فى مقاومة اصلاحات أبيه . وورط الكسيس الكثيرين ، فقبض عليهم وعذبوا لانتزاع المزيد من التفاصيل منهم ، ونفى عديدون الى سيبيريا ، وأعدم البعض بعد أن عذبوا أبشع تعذيب . أما الكسيس ، الذى ترك حرا فى الظاهر ، فقد أسكن بيتا قريبا من قصر القيصر فى سائت بطرسبورج ، ومنح معاشا سنويا قدره أربعون ألف روبل . وكتب الى أفروسينيا يقول ان أباه يحسن معاملته وأنه دعاه الى مأدته ، وكان يتطلع الى مجيئها ، وإلى الحياة السعيدة معها فى هدوء الريف .

ووصلت فى أبريل ، فقبض عليها قورا ، ولم تعذب ولكنها امتحنت امتحانا صارما ، فانهارت ، واعترفت بأن الكسيس اغتبط لنبا حركات التمرد على أبيه ، وأنه أعرب عن نيته حين يعتلى العرش فى هجران سائت بطرسبورج والبحرية ، وخفض عدد الجيش الى ضرورات الدفاع . ولم يكن هذا شرا مما كان بطرس يعلمه من قبل ، فترك الكسيس طليقا شهرين آخرين . ثم أثارت مفاجآت جديدة لا علم لنا بها ، فأعلن أنه سحب عفوه عن الكسيس ، لأن هذا العفو افترض اعترافه الكامل ، وقد توافر لديه الدليل الآن على أن الاعتراف كان غير مخلص وغير كامل . وفى ١٤ يونيو قبض على الكسيس وسجن فى قلعة القديسين بطرس وبولس .

وفى ١٩ يونيو ١٧١٨ ، وبعد أن فحصته محكمة القضاء العليا ، عذب لأول مرة ، فجلد خمسا وعشرين جلدة . واعترف بأنه تمنى موت أبيه ، وبأن كاهنه قال له « اننا جميعا نتمنى موته » . ثم ووجهه بأفروسينيا ، التى أعادت ما قالتها للقيصر من قبل ، ومع ذلك أقسم أنه سيحبها حتى الموت . وقال معترفا « شيئا فشيئا أصبح شخص أبى ذاته ، لا كل شيء عنه فحسب ، بغیضا فى عيني » واعترف بأنه لو اقتضاه الامر لاستعان بالامبراطور « فى قهر التاج بالقوة (٣٦) » . وفى ٢٤ يونيو عذب مرة أخرى بجلده خمس عشرة جلدة لم تفتزع منه مزيدا من

الاعترافات . وقضت المحكمة العليا بأنه مذنّب بالخيانة وحكمت عليه
بالاعدام . والتمس الكسيس السماح له بمعاينة خليلته قبل اعدامه ،
ولا علم لنا هل أجيب الى طلبه . ولم يوقع بطرس على الحكم . ثم أعيد
استجواب الكسيس مرتين (٢٥ و ٢٦ يونيو) وهو يعذب ، وفى المرة
الثانية بحصور القيصر والحاشية ، وقال ليفور فيما بعد « أكدوا لى أن
أباه جلده الجلادات الأولى بنفسه ، وإن كنت غير واثق من صدق هذا
القول (٣٧) » . فى ذلك المساء مات الكسيس فى سجنه ، والظاهر أن
موته كان من آثار نعيذه . وزعمت رواية أن كاترين أمرت الأطباء بأن
يعطوا أورده ، ولا نستطيع الحكم على هذا العمل ، أهو من أعمال
الرافة به أم الطمع فى سبيل مصلحة ولدها . أما أفروسينيا فنالت نصيبا
من تروة الكسيس ، وتزوجت ضابطا فى الحرس ، وعاشت حياة مريحة
ثلاثين سنة أخرى فى سانت بطرسبورج .

وكان بطرس بأمل أن يربى ابنه من كاترين ليخلفه ، ولكن الصى
مات فى ١٧١٩ . وأنجبت كاترين ولدين آخرين ، بطرس وبولس ،
ولكنهما مانا قبل الفيصر . وعزى نفسه باللقاب الفخمة التى خلعت
عليه بعد صلحه مع السويد . وفى ذلك العام ، (١٧٢١) ، خلع مجلس
النسوخ والمجمع المقدس لقب الامبراطورة على كاترين . وبعد أن أمهل
بطرس روسيا سنة سلامها الوحيدة منذ بداية حكمه النشط ، وجه
قواته شطر فارس . وكان يرجو أن يسنخلص طريق قوافل الى وسط
آسيا ، وأخيرا الى الهند ، وسيطر عليه ، وأخبره مبلغوه أن فى
الامكان العثور على الذهب فى الطريق ، وكان سباقا الى توضع
الامكانات الصناعية لزيّن القوقاز والشرق الأوسط (٣٨) . وفى ١٧٢٢
جرد أسطولا على قزوين لمهاجمة فارس ، فأسولى على باكو وبعض
سواحل قزوين الفارسية ، غير أن العواصف دمرت معظم سفنه ، وأنى
المرض على جزء من جيشه ، وعاد بطرس من حملة ١٧٢٤ مرهقا ،
متشائما ، مشرفا على الموت .

ذلك أنه كان يشكو مرض الزهري سنوات طويلة (٣٩) ، ويعانى
من العقافير التى تعاطاها للعلاج منه . وزاد ادمانه السكر الطين بله ،
واجتمعت عليه انفعلات الحرب ، والثورة ، وحركات التمرد ، وعنف
٥ - قصة الحضارة

الارهاب ، لتنهك جسمه العملاق فى النهاية . وفى نوفمبر ١٧٢٤ قفز الى النيفا المتجمد ليساعد على انقاذ ملاحين على سفينة جانحة . وظل يعمل طوال الليل فى مياه غمرته حتى خصره . وفى الغد أصيب بحمى ، ولكنه شفى منها ، واستأنف برنامجا حافلا بالوان النشاط . وفى ٢٥ يناير لزم فراشه اثر التهاب مؤلم فى المثانة . وأبى أن يسلم بأن منيته دنت حتى ٢ فبراير ، فاعترف ببعض ذنوبه ، وتناول الأسرار المقدسة . وفى السادس من الشهر وقع اعلانا بتحرير جميع السجناء فيما خلا المحكوم عليهم لجرائم القتل أو لجرائم ضد الدولة . وقد روع أتباعه بصرخات الألم . وطلب لوحا يكتب عليه وصيته ، ولكن ما ان كتب هاتين الكلمتين « أعطوا جميع » حتى وقع القلم من يده . وسرعان ما انتابته غيبوبة دامت ستا وثلاثين ساعة ، ولم يفق منها قط . وأذيع نبأ موته فى ٨ فبراير ١٧٢٥ ، وكان يومها فى الثانية والخمسين .

وتنفست روسيا الصعداء كأن كابوسا طويلا رهيبا قد انجاب عن صدرها آخر الأمر . وابتهج ملكا السويد وبولنده ، وتوقعا أن تتردى روسيا فى مهاوى الفوضى ، وتكف عن أن تكون خطرا يهدد الغرب . ورفعت روسيا القديمة ، روسيا العصور الوسطى ، عقيرتها وطلبت عودا الى الماضي . لقد دفعت الامة دفعا مفرطا فى العنف ، وأوذيت فى روحها وكبرياتها بهذا التقليد الاعمى للغرب . وانتشرت الرجعية انتشارا واسعا وانتصرت ، وترك الكثير من الاصلاحات ليموت من افتقاره الى التأييد . واختزلت البيروقراطية الادارية ، ولكن اطارها احتفظ بحياته حتى ١٩١٧ ، واستعاد النبلاء الكثير من سلطانهم القديم ، واستردوا حقوقهم فيما تحويه أراضيهم من أخشاب ومعادن . أما الطبقة الصناعية والتجارية التى طفر بها بطرس فقد عادت الى خضوعها الماضي . وانهار الكثير من الصناعات الجديدة بسبب النقص فى الآلات ، أو العجز فى العمال أو الادارة . واضمحلت الرأسمالية الوليدة ، وظلت روسيا الاقتصادية مائتة عام أخرى كما كانت أساسا قبل الثورة البترسية . أما الاصلاحات التجارية فكانت أوفر حظا ، فاستمرت التجارة مع الغرب فى ازدياد مطرد ، وأثمرت الاتصالات بأوروبا شيئا من التهذيب فى السلوك ، ولكن الازياء الوطنية القديمة

عادت فى عهد كاترين الثانية (١٧٦٢ - ٩٦) ، وعاد الناس يطلقون لمحاكم فى عهد الاسكندر الثانى (١٨٥٥ - ٨١) . واستمر الفساد ، ولم يبد على الاخلاق أنها جنت شيئا من وراء العهد ، ولعل ما ضربه بطرس لشعبه من مثال فى السكر ، والاباحية ، والتوحش ، خلف الشعب أسوأ خلقا من ذى قبل . ولم يبق من التغييرات الا ما ضرب جذوره فى الزمن .

لقد كان بطرس أحد شخصيات التاريخ الحديث الأقل ظفرا بحب الناس ، ومع ذلك كان انجازه هائلا . وإخفاقاته تنهض شاهدا على قيود العبقريّة وحدودها عاملا من العوامل المؤثرة فى التاريخ ، ولكن فى البصمة التى تركها على روسيا ما يشيد بقوة الشخصية . فلقد أعطى روسيا جيشا وبحرية ، وفتح الثغور التى أتاحت لها الاتجار مع الغرب فى السلع والأفكار ، وأرسى صناعة التعدين وتشغيل المعادن ، وأنشأ للمدارس وأسس أكاديمية . وبجذبة وحشية واحدة انتزع روسيا من برائن آسيا وأدخلها أوربا ، وجعلها عاملا مؤثرا فى الشؤون الأوروبية . فمنذ الآن ستضطّر أوربا لأن تحسب حسابا أكثر فاكثرا لقلب القارة الشاسع ذاك ، ولتلك الجماهير الصلبة ، الصابرة ، المتجلدة ، ومصيرها المحتوم .

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية المتغيرة

١٦٤٨ - ١٧١٥

١ - اعادة تنظيم ألمانيا

هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ الى ١٣.٥٠٠.٠٠٠ . وبعد عام أفاقّت القربة التي روتها دماء البشر ، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال . وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال . وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة الى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم . ففي مؤتمر فرانكونيا المنعقد في فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتي : -

« لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين . . . وعلى القساوسة ومساعدتهم (اذا لم يكونوا قد رسموا) ، وكهنة المؤسسات الدينية ، أن ينزجوا ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين ، ويذكر كل رجل تذكيرا جديا ، وينبه مرارا من منبر الكنيسة ، الى النصرف على هذا النحو في هذه المسألة (١) » .

وفرضت الضرائب على النساء غير المتزوجات (٢) . وسرعان ما اعادت المواليد الجديدة المساواة التقريبية بين الجنسين ، وأصرت الزوجات على ألا يقاسمهن أحد في رجالهن . واستعاد السكان كثرتهم . سريعا ، فما وافى عام ١٧٠٠ حتى ارتفع عددهم ثمانية الى عشرين مليونا من الأنفس . وبنبت مجدبورج من جديد ، وبعثت الاسواق الحياة والنشاط في ليبزج وفرانكفورت - أم - مين ، وخرجت همبورج ويريمن أقوى مما كانتا . على أن الصناعة والتجارة استغرقتا أكثر من مائة عام حتى تدركا مستواهما الذي كانتا عليه في القرن السادس عشر . فالسويديون والهولنديون يسيطرون على مصاب الأودر ، والألب ، والرلين ، والنقل بالمحيط يحدث ركودا نسبيا في النقل البري،

والطبقات الوسطى قد اضمحلت ، ولم يعد يحكم المدن رجال الاعمال بل أمراء الأقاليم أو من ينوبون عنهم .

وكانت الحرب قد انتهت بكارثة على سلطه هابسبورج الامبراطورية . ذلك أن فرنسا اذلتها ، وأذلت أسبانيا حليفة الامبراطورية . وغدا الأمراء الألمان فى مجموعهم أقوى من الامبراطور ولهم جيوشهم ، وقصورهم ، وعملتهم ، وهم يفصلون فى سياساتهم الخارجية ، ويؤلفون أحلافهم مع الدول غير الألمانية ، بل ضد المصالح الامبراطورية . وكان هناك نحو مائتى اماره « زمنية » تستمتع الآن بهذا الاستقلال ، وثلاثة وستون دويلة يحكمها رؤساء أساقفه أو أساقفة أو رؤساء ديورة يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ، واحدى وخمسون « مدينة حرة » ، لا تخضع لغير الامبراطور ، وخضوعها له لا يعدو أن يكون صوريا . واغتبطت فرنسا برؤية هذه الدويلات الألمانية الكثيرة خلا من ألمانيا الموحدة .

وكانت براندنبورج ، اقليم الحدود الألمانى ، رمزا على الامبراطورية المحتضرة ، وعلى ألمانيا جديدة تتخذ لها شكلا جديدا . فهناك ، وعلى منأى من الامبراطور ، وفى مواجهة السويد وأمام جيش من الصقالبة ، تعلمت أسرة هوهنزولرن أنه لابقاء لدويلتهم الا بمواردها وقوتها . وفى القرن العاشر كان هنرى الصياد قد أقام « الحد الشمالى للسكسون » على طول الالب حصنا ضد الطوفان السلافى . وانتزع من الوند الصقالبة قلعته وعاصمتهم برنيبور (التى اشتق منها اسم براندنبورج) وردهم الى الأودر . وظلت الاقاليم الواقعة بين الالب والأودر قرونا يتبادلها الألمان والصقالبة . ودخلت براندنبورج ساحة التاريخ دخولا أنشط حين اشتراها فردريك هوهنزولرن ، فى ١٤١١ - ١١ ، هى وصوتها الانتخابى فى الديت الامبراطورى . ومن ذلك التاريخ حكم بيت هوهنزولرن براندنبورج حتى أصبحت بروسيا ، وحكم بروسيا حتى تنازل القيصر فلهم الثانى عن عرشه فى ١٩١٨ . ونذر أن ارتبطت أسرة بدولة هذا الارتباط الطويل الوثيق ، أو كرسَتْ نفسها لرفاهية أمة وتوسيع رقعتها بهذه الغيرة والفعالية . وعلى عهد الناخب جون سجموند (١٦٠٨ - ١٩) حصلت براندنبورج على دوقية كليف فى الغرب ودوقية بروسيا الشرقية فى الشرق ، بحيث غدا

اقليم الحدود بشيرا بمملكة بروسيا . وكان من أضعف أفراد الأسرة الناخب جورج وليم (١٦١٩ - ٤٠) ، الذى أدت تقلباته فى حرب الثلاثين الى تدمير براندنبورج على أيدى الجنود السويديين . فهجرت القرى والمدن ، وخربت برلين ، وكادت الصناعة تنلأش ، وهبط سكان اقليم الحدود من ٦٠٠.٠٠٠ الى ٢١٠.٠٠٠ واستطاع فردريك وليم ، الذى ورث هذه التركة الخربة (١٦٤٠) ، أن ينجز خلال الثمانية والأربعين عاما التى حكم فيها ، معجزة من معجزات التعمير والتنمية ، حتى لقد اعترف له حتى معاصروه بلقب « الناخب الأكبر » . ولولاه لما كان فردريك الأكبر (كما سلم بهذا فردريك الأكبر نفسه) (٣) .

كان يبلغ العشرين حين ولى العرش - فتى وسيما ، أسود الشعر ، أسمر العينين ، يشق طريقه الى السلطة . كان قد نشأ على التقوى والنظام ، وأكمل تعليمه فى جامعة ليدن . وقد سبق بطرس قيصر الروس فى اعجابه بالهولنديين وبشجاعتهم الصامدة وجدهم واجتهادهم ، فاستقدم بعد ذلك ألفوا منهم ليعمروا وطنه المتعطش للسكان . ثم حصل بمقتضى صلح وستفاليا على بومرانيا الشرقية (البعيدة) ، وأسقفيتى مبدن وهالبرشتات ، والحق فى وراثة رآسة أسقفية مجدبورج الهامة ، وقد آلت اليه فى ١٦٨٠ ، واختتم فردريك وليم حكمه بملك مبعر بدأ جهده ليصبح مملكة . وفى تاريخ مبكر - ١٦٥٤ - اقترح كبير وزرائه ، الكونت جيورج فردريك الفالدكى ، توحيد ألمانيا كلها تحت زعامة بيت هوهنزولرن (٤) . وبدا أن فردريك وليم هو الرجل الكفيل بتحقيق هذه الوحدة الحامية . فلما اعتنق أوغسطس القوى أمير سكسونيا الكاثوليكية ليصبح ملك بولندة فتح الطريق لألمانيا لتتولى الزعامة البروتستنتية - ولم تعترضه سوى قوة السويد .

ذلك أن معاهدات ١٦٤٨ كانت قد تركت نقطا استراتيحية هامة بألمانيا فى قبضة السويد ، وطالبت السويد بزعامة ألمانيا البروتستنتية استنادا الى تضحياتها وانتصاراتها فى حرب الثلاثين . فكيف تستطيع براندنبورج - بروسيا ، بمكوناتها التى تحقق بها الدول المنافسة من أقصى ألمانيا الى أقصاها ، أن تبلغ من القوة والمنعة حدا يتيح لها الدفاع عن نفسها ضد تسلط السويد ، أو تسلط سكسونيا ، الدولة الموحدة

المركزية السلطة ؟ وبدأ فردريك وليم بخطة واردة هما أول دعامات الحكم الكفاء ، ثم جمع بالضرائب والاعانات الفرنسية المال الذى هو ثانى دعامات الحكم الكفاء ، وبالمال نظم جيشا ، هو ثالث دعامات الحكم الكفاء ، فما حل عام ١٦٥٦ حتى كان له أول جيش دائم فى أوربا - عدته ثمانية عشر ألف مقاتل شاكى السلاح . وبهذه الوسيلة من وسائل الاقناع أقنع الولايات المكونة لدولته أن تدفع « اشتراكا » سنويا فى نفقات الحكومة المركزية ببرلين ، وبهذه الموارد أصبح مستقلا عن سلطان المال فى المجالس الاقليمية ، وحقق ما كان فى رأيه الشكل العملى الوحيد للحكومة فى المرحلة الراهنة من مراحل التطور السياسى والفكرى - وهو الحكم المطلق المركز . وأعفى النبلاء من الضرائب المباشرة ، ولكنه ألزم أبناءهم خدمته نبلاء صغارا « يونكر » فى وظائف الجيش والادارة العليا . وكره هؤلاء « الصغار » هذه الخدمة أول الأمر ولكنه خلع عليهم الثياب العسكرية الفاخرة والمركز الاجتماعى المرموق ، ودربهم على الكفاية وعزة النفس ، ورعى فيهم « روح الفريق » التى حلت محل ولاءات النظام القديم القطاعية ، والننى جعلت الجيش خادما لا لملك الأراضي بل للحكومة . وهكذا بدأ الجهاز العسكرى والاجتماعى الذى مكن لفردريك الأكبر أن يثبت لنصف أوربا ، والذى أعد ألمانيا لخوض الحرب العالمية الأولى .

على أن فردريك وليم أعوزته صفة واحدة - هى عبقرية ملوك السويد الحربية . فقد ظل عشرين عاما ينقل قونه من جانب الأجانب فى صراعات السويد مع بولنده ، والامبراطورية مع فرنسا ، حافظا بالجهد كيانه بالدبلوماسية . ولكن حين غزا شارل الحادى عشر براندنبورج ، برر جيش فردريك وليم وجوده بهريمته السويديين فى فيربلن (١٦٧٥) ، وهذا النصر هو الذى أكسبه لقب الناخب الأكبر . وفى خاتمة المطاف ، ورغم سياساته المتقلبة وموارده الضيقة ، أضاف لدولته أربعين ألف ميل مربع من الأرض .

بيد أن اصلاحاته الاقتصادية والادارية كانت أهم - فبفضل حضه حسن الاشراف وسائلهم الزراعية وزادوا من غلة ضياعهم . وقد طور صناعة ناجحة للحزير بزرعه أشجار التوت على نطاق واسع . وقلب الاتجاه الى اقتلاع أشجار الغابات ، فاشتراط على الفلاحين أن يغرس

كل منهم اثنى عشرة شجرة قبل أن يتزوج . وصمم ومول شق قنالة
فردريك وليم لتربط نهري الأودر وسبرى . ولما ألغى لويس الرابع عشر
مرسوم نانت ، أصدر الناخب الأكبر « مرسوم بوتسدام » (نوفمبر
١٦٨٥) الذى دعا الهيجونوت المنكوبين للمجئء الى براندنبورج -
بروسيا والاقامة فيها ، وبعث مندوبين ليوجهوا هجرتهم ويمولوها (٥) ،
وجاء عشرون ألفا ، فكانوا مهمازا حفز الصناعة البروسية ، وألفوا
خمس أفواج فى الجيش البروسي . وكان فردريك وليم نفسه ، كما كان
سليبه فردريك الأكبر ، يكد ويكدح فى الإدارة بهمة لاتنى ، وقد أرسى
ذلك المبدأ الذى قبله بعد ذلك القيصر بطرس و « المستبدون
المستيريون » من حكام القرن الثامن عشر ، ومؤداه أن على الملك أن
يكون خادم الدولة المكرس . وقد أدرك أن التعصب الدينى معطل
للتطور الاقتصادى والسياسى ، فتفرد فى ألمانيا بأن سمح لشعبه بالبقاء
على المذهب اللوثرى فى حين ظل هو على مذهبه الكلفنى ، ومنح
الحرية الدينية للكاثوليك ، والموحدين ، واليهود .

ومات عام ١٦٨٨ وقد بلغ التامنة والسنتين . وكانت وصيته التى
قسم فيها ولاياته العديدة ببن أبنائه كقيلة بأن تمحو ما أحدثه حكمه من
أثر موحد ، لولا أن خلفه رفض الوثيقة واحتفظ بالسلطة المركزية .
واكتسب هذا الخلف - وهو فردريك الثالث - مودة الامبراطور ليوبولد
الأول بالانضمام اليه ضد فرنسا ، ومن أجل هذا ، ومن أجل ثمانية
آلاف مقاتل ، منحه ليوبولد لقب « ملك بروسيا » . وقد توج باسم
فردريك الأول فى كونجزبرج فى ١٨ يناير ١٧٠١ ، وبدأت بروسيا
عسيرتها نحو بسمارك والوحدة الألمانية .

ومن المفار التى ازدان بها سجل فردريك انشاؤه جامعة هالى ،
ومفخرة أخرى تذكر له أنه عضد جهود زوجته الثانية فى النهوض
بلطائف الثقافة والفكر فى برلين . وقد اشتهرت هذه الزوجة ، واسمها
صوفيا شارلوت ، ابنة صوفيا ناخبة هانوفر ، بأنها أجمل النساء
وأذكاهن فى ألمانيا . فجلبت الى بلاط برلين من مقامها الطويل فى باريس
مزيجا جذابا من الثقافة والظرف . وبالحاحها والحاح ليبنتز ، أنشأ
فردريك أكاديمية برلين للعلوم ، التى قدر لها أن تصنع التاريخ فى
عهد فردريك الثانى . وبنى الناخب لزوجته (١٦٩٦) القلعة أو القصر

(شلوس) الشهير فى الضاحية النى اخذ اسمها ، شارلوتنبرج .
وتوافد على صالونها فى قصر شارلوتنبرج العلماء والفلاسفة واحرار
الفكر واليسوعيون والقساوسة اللوثرىون ، وكانت شارلوت تحب أن
نحفرهم لحوض المعارك اللاهوتية النى كانت أحيانا تستغرق الليل
كله . هناك استوعبت زوجة أخيها ، كارولين ملكة انجلترا ، العلم
والفن اللدين ستجفل لهما انجلترا . فلما حضرت الوفاة شارلوت (اذا
صدقنا رواية حفيدها فردريك الأكبر) رفضت عروض القساوسة
الكاثوليك والبروتستنت على السواء بالصلاة من أجلها ، وعالت لهم انها
نموت فى سلام ، وانها تشعر بحب الاستطلاع أكثر من الرجاء أو
الخوف ، لأنها الآن ستشبع فضولها حول أصل الأشياء « الذى لم
يستطع حتى ليبنتنر أن يفسره لى قط » ، وعزت زوجها الشديد الولع
بالمراسم بقولها ان موتها « سيتيح له فرصة تشييعها بجنائزة فخمة (٦) » .
لقد كانت صوفيا شارلوت واحدة من نساء كثيرات ذوات خلق وتعليم ،
حملن ألمانيا والقرن السابع عشر ينزلق الى الثامن عشر .

أما بلاط برلين ، وهو واحد من نيف وثلاثمائة بلاط أفنت آنشد
موارد الامبراطورية ، فلم يكن له من منافس سوى البلاط السكسونى .
وقد خلف أوغسطس القوى ، الذى حكم سكسونيا (١٦٩٤ - ٢٧٣٣)
باسم الناخب فردريك أوغسطس الأول ، لأوربا رهطا من الأبناء غير
الشرعيين ، ومنهم المارشال دى ساكس الشهير . وجعل عاصمته « أجمل
مدينة فى ألمانيا (٧) » ومركز الفنون الصغيرة ومفخرتها ، ولكن
السكسون لم يستطيعوا أن يغفروا له ارتداده عن مذهبه ، واستعماله
أموالهم ورجالهم فى حروب بولنده ، وترف بلاطه الباهظ التكاليف .

وقد أسهمت امارة هانوفر الناخبة فى التاريخ فى هذه الحقبة
بايوائها ليبنتنر وضمتها انجلترا . وفى ١٦٥٨ ، تزوجت صوفيا أميرة
بالاتين المخلوعة ، وابنه اليزابيث ستيوارت (ملكة بوهيميا) ، من
أرنست أوغسطس ، الذى أصبح ناخب هانوفر . وقد أربك علمها الواسع
زوجها ، فقد كانت تتحدث خمس لغات بطلاقة تكاد تكون تامة ، وتعرف
من التاريخ الانجليزى أكثر مما يعرفه السفراء الانجليز فى بلاطها .
وظلت حينما تحتفظ فى هانوفر بصالون يؤمه العلماء والفلاسفة . ولكنها
كانت تتحرق شوقا للحصول على عرش انجلترا لولدها جورج : كان

دمها يخلج بالملوكية ، لأنها لم تسقط أنها حفيدة جيمس الأول .
وفى ١٧٠١ قرر البرلمان الانجليزي كما رأينا حق وراثة العرش لصوفيا
و « ورثتها من دمها شريطة أن يكونوا من البروتستانت » . ونأملت
فى سرور مشهود ولدها حين يصبح جورج الأول ، وفى كدر مشهود زوجته
صوفيا دوروتيا ملكة له ، وتطلعت فى هدوء الى فسخ زواجهما .
واشتهه جورج فى ان تكون زوجته خانتته مع الكونت فيليب فون
كوبزمارك ، فقتل بأمره ، وطلق صوفيا دوروتيا ، وسجنها من ١٦٩٤
الى أن ماتت فى ١٧٢٦ . وفى غضون هذا ماتت الناجبة الأرملة فى
يونيو ١٧١٤ وقد بلغت الرابعة والثمانين ، قبل أن يهبط تاج انجلترا
على رأس ولدها بشهرين فقط . وكذلك يتصرف اله الحظ العظيم ، من
عرشه الكلى الوجود ، فى المصائر والدول والرجال .

٢ - الروح الألمانية

كان اضطراع الكاثوليكية والبروتستانتية على روح ألمانيا يخفف من
غلوائه ، لأن حرب الثلاثين جعلت من الأحقاد اللاهوتية « فياس
خلف » . وتحول الى كنيسة روما فى هذه الفترة بعض الأمراء
البروتستانت ، ومعظم الفضل فى هذا لأقناع اليسوعيين لهم . وتفوقت
الكفنية على اللوثرية التى نزعته الى الدجماطية السكسولاستية
الجامدة . وانتقاضا على هذه الشكلية قبل كل شيء ، انتشرت الحركة
« التقوية » التى حاولت أن تستبدل بالطقوس الخارجية روحا باطنية
من الوحدة مع الله . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر حمل
جورج فوكس ، ووليم بن ، وروبرت باركلى ، انجيل طائفة « الكويكر »
الى ألمانيا ، ولعل هذه الحركة التبشيرية شاركت فى تطوير التقوية
هناك ، ونلاحظ أن كتاب فيليب يعقوب سبينر *Pia desideria*
(١٦٧٥) صدر بعد زيارة بن الأولى بأربع سنوات . ذلك أن سبينر ،
بوصفه راعيا لكنيسة لوثرية فى فرانكفورت - أم - مين ، استكمل
خدماتها بعبادات صوفية تؤيدها اجتماعات خاصة (هيئات تقوية) فى
منزله . وقد أطلق اسم التقوى *Pietist* ، كلفظ البيورتان
والمثودست ، على هؤلاء العابدين نقادهم على سبيل السخرية ،
فقبلوه ، وأصبح لهم شارة فخر متواضع . وتشبثوا فى حرارة بأمال

عصر السلام المرتقب (بعد مجيء المسيح) التى تعزت بها بعض الجماهير الألمانية خلال الحرب . ولم تكن فكرتهم عن المجيء الثانى للمسيح عقيدة لاهوتية غامضة ، بل الهاما حارا نشيطا فى حياتهم اليومية . ففى أى لحظة قد يظهر المسيح ثانية على الأرض ، وسيهدى صراع الأديان وينهى حكم القوة والحرب ، وسيقيم « كنيسة روحية » خالصة ، بغير تنظيم ، ولا طقوس ، ولا كهنة ، تمارس فى فرح مسيحية القلب السمحة الكريمة .

وواصل أوجست فرانكى الحركة تحدوه غيره الأنبياء . ونأثرت نساء كثيرات بمسيحيته العملية وتطوعن فى قضية التقوى الشخصية والبر العام . وبعد أن تأثرت الحركة بالبيورتانية الانجليزية والهدوثة الفرنسية ، أثرت بدورها فى المثودية الانجليزية والشعر الألمانى ، وأشعرت الناس بوجودها فى أمريكا ، حيث رحب بها كوتون ماذر برجاء فقال « ان العالم بدأ يشعر بدفع من النار الالهية التى تضطرم على هذا النحو فى قلب ألمانيا (٨) » . ولكن التقوية كالبيريتانية آذت نفسها لأنها جعلت تقواها علنية ومحترفة ، وتردت أحيانا فى مهاوى الافتعال والرياء . فأغرقها فى القرن الثامن عشر الطوفان العقلانى الذى تدفق من فرنسا .

وكان لانتصارات ريشليو ، ومازاران ، ولويس الرابع عشر ، ولثراء البلاط الفرنسى وبهائه المتزايدين ، اثر لا يقاوم فى المجتمع الألمانى خلال القرن التالى لصلح وستفاليا . وطغت النزعة العالمية حينها على القومية . وسادت الأساليب الفرنسية قصور الملوك والأمراء فى اللغة والأدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والخمر والشعور المستعارة . ولم يتكلم الارستقراطيون الألمان الا بالألمانية الا مع الخدم فقط . وكتب المؤلفون الألمان بالفرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعالم المثقف . واعترف ليبنتز ، الذى كانت معظم كتابته بالفرنسية ، بأن « العادات الألمانية تحولت قليلا الى الأناقة والأدب » بالقدوة الفرنسية ، ولكنه حزن على حلول اللغة والعبارات الفرنسية محل الحديث الألمانى ، أو التسرب اليه (٩) .

ولم يعيش من كتب هذا العهد الألمانية سوى كتاب واحد اسمه « سمبليوس سمبليسييموس » (١٦٦٩) بقلم هانز فسون جريملز هاوزن . وهو من حيث الشكل سيرة متشرد ذاتية ، ذات أحداث مترابطة ، ليليكيور فون فوشهايم ، وهو انسان ربع أحمق ، وربع فيلسوف ، ونصف وغد . أما من حيث الروح فهو هجاء فكه متشائم يهجو ألمانيا التى خلفتها ثلاثون عاما من الحرب بين الحياة والموت . ويبدأ ميلكيور هذا ربيبا لفلاح يصف المؤلف حياته فى عبارات مهذبة فيقول :-

« كان سيدى يملك الغنم والماعز والخنازير بدلا من الاتباع والخدم والسياس ، وكانت كلها تتبعنى فى السباق حتى أسوقها الى البيت . أما مخزن ذخائره فعامر بالمحاريث ، والمعاول ، والبساط ، والفئوس ، والمجاريف ، ومذارى الروث والدريس ، التى كان يمارس استعمالها كل يوم ، لأن العزق والحفر هما تدريبه العسكرى ... واستخراج السباح هو علم التحصينات عنده ، وامساك المحراث علم الاستراتيجية ، وتنظيف الاسطبل تسليته ومباراته الفروسيتان (١٠) » .

ولكن جماعة من الجند تسطو على هذا الفردوس الريفى ، وتعذب الأسرة لتركها على البوح بسر مؤن مخترنة لا وجود لها . ويهرب ميلكيور ويلتجئ الى ناسك عجوز يلقيه أول دروسه اللاهوتية . فاذا سئل عن اسمه أجاب « وغد أو رد مشانق » لأنه لم يسمع أحدا بدعوه الا بهذا الاسم ، أما اسم متبنيه ، جريا على القاعدة ذاتها ، فهو « صعلوك ، ويلطجى ، وكلب مخمور » . ويقبض عليه الجند ، فيأخذونه الى قصر حاكم هاناو ، وهناك يدرّب على أن يكون مهرجا ، ويطلق عليه اسم سمبليسيوس سمبليسييموس . ثم يختطف ، ويصبح لصا ، ويعثر على كنز مخبوء ، ويصبح جنّلمانا ، ويغوى فتاة ، ويكره على زواجها ، ثم يهجرها ، ويعتنق الكاثوليكية ، ويزور قصبة الدنيا ، ويخسر ثروته ، ويعوضها بالشعوذة والتدجيل ، ثم يضمنيه طول التجوال ، فيعتكف ليحيا حياة ناسك كشف حقيقة الدنيا وخداعها . هذه « كانديد » أولى سابقة على قصة فولتير بقرن ، والفرق أن هجاءها تلتف منه الفكاهة الألمانية ، ولا يجمله الذكاء الفرنسي . وندد النقاد بالكتاب ، وأصبح من عيون الأدب ، وأشهر ثمار الأدب الألمانى بين لوثر وليمنج .

على أننا يجب ألا نتقبله صورة منصفة لألمانيا فى الجيل التالى للحرب . فربما كان الألمانى شديد الولوج بالشراب ، ولكنه احتفظ بروح فكاهته الفوار حتى فى كئوس شرابه ، وربما وصفته زوجته بالكلب المخمور ، ولكنها أحبته لأنها لم تجد خيرا منه ، ورثت أبناءه تربية قوية متينة . وربما كان فى ألمانيا ذلك العصر من الخلق السليم أكثر مما كان فى فرنسا . وآية ذلك أن شارلوت اليزابيث المسكينة ، أميرة بالاتين (١٦٧١) النى تزوجت على غير رغبتها بـ « المسيو » فليب أورليان أرمل « مدام » هنرييتا المنحرف جنسيا ، لم تسقط جمال هيدلبرج الهادى ، وبعد أن عاشت ثلاثة وأربعين عاما عيشا غير مرج مع ترف البلاط الفرنسى ، لم تفتأ تتوق الى « صحن طيب من الكرف والسجق المدخس » مؤثرة اياه كثيرا على ما تقدمه باريس أو فرساي من فهوة أو شاي أو كاكاو (١١) . ويدلنا وفاؤها الرواقى لزوجها الحقير ، وصبرها على الملك أختى زوجها الذى أمر أو أذن بتدمير بلاتينات، على أنه - حتى وسط خرائب ألمانيا - وحدث نساء استطعن أن يعلمن اللبقة والانسانية للملوك المعطرين ، الموشحين ، المطرزين ، اللابسين البواربك .

٣ - الفنون فى ألمانيا

ثم ان هذا العصر كان من أكثر العصور انتاجا فى العمارة الألمانية ، على عكس كل البوقعات المعقولة ، فقد شهد أول تفتح للباروك الألمانى ، الذى خلع واجهة جديدة من الفتنه والبهجة على كارلسروهى ، ومانهايم ، ودرسدن ، وبايرويت ، وفرنسبورج ، وفيينا . وكان زمان البنائين أمثال بوهان فيشر فون ايرلاخ ، ويعقوب برانتاور ، ويوهان وكيليان وكربستوف دينتسنهوفر ، وأندرياس شلوتر ، الذين كانت أسماؤهم خلقة بأن تشتهر بين الشعوب الناطقة بالانجليزية اشتهار رين واينيجو حونز ، لولا سجن الحدود وبليلة الألسن . على أن ما حلفوه دمر بعضه فى غزوات الجيوش الفرنسية لألمانيا (١٦٨٩) ، وبعضه فى الحرب العالمية الثانية (١٢) . ان التاريخ سباق بين الفن والحرب .

وارتفعت كنائس جميلة وسط الفقر والخراب . ويشين سجلنا هذا ألا نشير فيه اشارة ولو عابرة لكثدراتية بوهان دينتسنهوفر فى فولدا أو

كنيسة ديره فى بانترز ، أو لاشغال كريستوف وكيليان دينتسنهوفر فى كنيسة القديسين نيقولا ويوحنا فى براغ . وفى ١٦٦٣ بدأ المعماري الايطالى أجوستينو باريللى قصر نيμφينبورج خارج ميونيخ ، وأكمل يوسف افنر داخله فى مزيج موفق من العمد الكلاسيكية والزخرف الباروكى . لقد كانت الزينة هى الاغراء المتسلط على الباروك ، واستعملت باسراف فى الفستزال أو صالة الاحتفالات فى شلوس برلين ، وفى جناح قصر زفينجر الذى بناه فى درسدن متاوس دانيال بويلمان لاوغسطين القوى ، هنا تحول الباروك الى روكوكو جميل أنسب لداخل مخدع منه لمواجهة قصر . وقد تهدم معظمه فى الحرب العالمية الثانية ، وكذلك شلوس شارلوتنبورج وشلوس برلين ، وهو القصر الملكى الذى بدأه أندرياس شلوتر فى ١٦٩٨ .

أما أبرز المثاليين الألمان فى هذا العصر فهو شلوتر . فقد انتشت ألمانيا كلها بتمثال الفارس الراكب الذى صنعه للناخب الأكبر Der Grosse Kurfurst والذى لم تنل منه كل قنابل الحرب ، والذى يرتفع الآن فى ميدان شارلوتنبورج خارج برلين . وفى كونجزبرج أقام شلوتر تمثالا لفردريك الأول عقب تتويجه ملكا لبروسيا ، لا يقل روعة عن التمثال المذكور . ونحت يوليوس جليسكر رأسا للعدراء مريم ، حزينه فى صمت ، لمجموعة تماثيل للمسيح المصلوب فى كتدراثية بامبرج . وأظهر نقاشو الخشب مهارتهم فى مقاعد المرتلين الرائعة فى كلوستركيرشي بسيليسيا ، ولكنهم غالوا فى الأثاث المنقوش نقشا مسرفا والذى أمر بصنعه سادة فيهم من التفاخر أكثر مما فيهم من الذوق السليم .

ولم ينجب التصوير الألمانى روائع فى هذه الفترة ، الا اذا حسبنا من الروائع صورة ساحرة بريشة كريستوف باراديزو تسمى « شاب ذو قبة رمادية (١٣) » . وقطع النسيج المرسوم التى صممها رودلف بيس لقصر فورتسبورج من أبداع القطع . واشتهرت بلدة فارمبرون - ينابيع سيليسيا الحارة - بزجاجها المصقول ، وروجت درسدن استعمال « صينى درسدن » . وكان أوغسطين القوى كذلك « ملك القاشانى » ، وحين عشر على أنواع مناسبة من الطفل قرب مايسين ، أقام بها

(١٧٠٩) الفمائن التى انتجت أول خزف (برسلان) صلب فى أوربا .

على أن الموسيقى هى التى وجدت فيها الروح الألمانية أبرز تعبير لها ، وكان هذا العهد بمثابة العشية التى بزغ بعدها صبح يوهسان سبسنيان باخ . أما الاشكال والآلات فجاءت من ايطاليا ، ولكن الألمان سكبوا فيها عاطفتهم الرقيقة وتقواهم الضخمة . فبينما تفوقت ايطاليا فى اتساق الأصوات ، وفرنسا فى الايقاع الرشيق ، تقدمت ألمانيا الى مكان الصدارة فى الليدة (الأغنية الألمانية) ، وموسيقى الأرغن ، والكورال . وفى الحان ج . ف . كريجر المسماة « ١٢ سوناتا بكمانيين » (١٦٨٨) نجد متتالية السوناتا قد أرسيت فعلا فى ثلاث حركات - اللاليجرو (الأعجل) ، والالرجو (البطيء جدا) ، والبريسستو (السريع) . وكانت موسيقى الآلات ، المتطورة من رقصات (كالبافان ، والسرينده ، والجافوت ، والجيج الخ) تعلن استقلالها عن الرقص والصوت جميعا .

وكان الطلب على الموسيقيين الايطاليين لايزال كبيرا فى ألمانيا . فملك كافاللى على ميونيخ ، كما ملك من بعده فيفالدى على دارمشتات . واستوردت الأوبرا الإيطالية ، وعرضت أول عرض لها فى ألمانيا بتورجاو (١٦٢٧) ، وتلت ذلك عروض أخرى فى ريجنسبورج ، وفيينا ، ومبونيخ . وكانت أول أوبرا ألمانية (Singspiel) هى « آدم وحواء » من تلحين يوهان تايلى ، وفد أخرجت بهامبورج فى ١٦٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت هامبورج تتزعم الأوبرا والدراما الألمانية طوال نصف قرن . هناك أنتج هندل « الميرا » و « نيرون » فى ١٧٠٥ ، و « دافنى » و « فلورندا » فى ١٧٠٦ ، قبل أن يذهب لغزو انجلترا . والاسم الكبير فى الأوبرا الألمانية فى ذلك العهد هو رابنهارد كايزر ، الذى أنتج ١١٦ أوبرا لفرقة هامبورج .

وبعد ١٦٤٤ انتزع المؤلفون الألمان مكان الصدارة من الايطاليين فى التأليف للأرغن والكنيسة . وعبرت ترانيم بأول جرهاارت عن عقيدته الوثنية العنيدة . وسيطر يان راينكن على الأرغن فى كنيسة « كاترينكرشي » بهامبورج من ١٦٦٣ حتى وفاته عام ١٧٢٢ فى

الحادية والتسعين . وأصبح ديتريش بوكستيهودى ، المولود بالدنمرك ، عازف الأرغن فى كنيسة مارينكرشي بلوبيك فى ١٦٦٨ ، واشتهرت حفلاته هناك ، لا سيما حفلات « موسيقى المساء » التى جمعت بين الأرغن والأوركسترا والخورس ، وذاع صيتها حتى أن باخ الكبير كان يمشي خمسين ميلا من آرنشبات الى لوبيك ليسمعه وهو يعزف (١٤) . وقد عاش نحو سبعين من الألحان التى وضعها للأرغن ، وكثير منها مازال يعزف ، وقد أسهمت الحائنه الكورالية فى تكوين أسلوب يوهان سبستيان . وسبق يوهان كوناو باخ عازفا على الأرغن فى كنيسة توماسكرشي بلييزج ، وقد طور السوناتا للكلافير ، ولحن (Partien) من نوع متتاليات باخ .

وأخذت أسرة باخ تدخل الآن عالم الموسيقى فى خصوصية مذهلة . وقد وصل الى علمنا أسماء نحو أربعمائة من آل باخ بين ١٥٥٠ و ١٨٥٠ : كلهم موسيقيون ، وستون منهم يشغلون مراكز هامة فى دنيا الموسيقى فى زمانهم . وقد ألفوا نوعا من النقابة العائلية التى تجتمع دوريا فى مقارهم بايزيناخ ، أو آرنشبات ، أو ارفورت . وهم يؤلفون بلا جدال اكبر وأشهر أسرة فى التاريخ الثقافى ، ويثيرون الاعجاب لا لكثرة عددهم فحسب ، بل لاختصاصهم لفنهم ، ولثبات فى الهدف جرمانى صيل ، ولغزارة انتاجهم وقوة تأثيرهم . ولم تبرز أسماؤهم فى الحوليات الموسيقية الا فى جيلهم الخامس ، بظهور يوهان كرسstof ويوهان ميكائيل باخ ، ابنى هينريش باخ ، عازف الأرغن فى آرنشبات . وكان يوهان كرسstof كبير عازفى الأرغن فى ايزناخ طوال ثمان وثلاثين سنة ، رجلا بسيطا ، جادا ، مدققا فى عمله ، درب فرق الترتيل ولحن للأرغن والأوركسترا . وأصبح أخوه يوهان ميكائيل عازف الأرغن فى جيرين فى ١٦٧٣ ، وظل هناك حتى مات فى ١٦٩٤ ، وأعطى خامس بناته زوجة أولى ليوهان سبستيان . وكان لكريستوف باخ أخى هيزيش ، وعازف الأرغن فى فيمار ، ابنان كانا عازفى كمان ، واحدهما وهو أمبروزيوس كان . أبا يوهان سبستيان . أما يوهان باخ ، أخو هينريش وكريستوف ، فكان عازف الأرغن فى ايرفورت من ١٦٤٧ الى ١٦٧٣ ، حين خلفه ابنه يوهان كرستيان باخ ، الذى خلفه فى ١٦٨٢ أخوه يوهان اجيديوس باخ . وكان قوى الطبيعة كلها وجهت لتنجب . وتعد يوهان سبستيان باخ .

٤ - النمسا والأتراك العثمانيون

ان فى فيينا اليوم من الجمال ما يصعب معه علينا أن نتصور حاله عقب حرب الثلاثين ، صحيح أن النمسا لم تقاس ما قاسته ألمانيا من ويلاتها ، ولكن خزاناتها نضبت ، وجيوشها تهللت ، وهبط صلح وستفاليه بسمعة الباباوية وقوتهم . على أن طرفا واحدا كان فى صفها . ذلك أن ليوبولد الأول خلف أباه فرديناند الثالث على العرش الامبراطورى فى ١٧٨٨ وظل متربعا عليه طوال سبعة وأربعين عاما ، ومع أن هذا الحكم الطويل سمع العثمانيين يقرعون أبواب فيينا مرة أخرى ، فان النمسا أخذت تفيق من كبوتها سريعا . وكان ليوبولد ملكا على الإمارات الألمانية أسما لا فعلا ، ولكنه كان الملك الفعلى لبوهيميا وغربى المجر ، وكان يحكم دوقيات استيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، وكونتية التيرول . ولم يكن بالحاكم العظيم ، كان يكذب ويكدح بشعور الواجب فى الادارة وتشكيل السياسة ، ولكنه افتقر الى الرؤية البعيدة التى أوتيتها أسلافه من آل هابسبورج ، فلم يرث منهم غير لاهوتهم وشكل ذقونهم . وكان قد درب أصلا للكهانة ، ولم يفقد قط حبه لليسوعيين ، أو ينحرف كثيرا عن ارشادهم . ومع أن أخلاقه الشخصية كانت نقية لا عيب فيها ، فانه قبل المبدأ الذى يحتم جعل جميع رعاياه كاثوليكيا ، ونفذ سياسته بأوتقراطية صارمة فى بوهيميا والمجر . وكان ميالا الى السلم ، ولكنه أكره أو سيق الى سلسلة من الحروب بسبب اعتداءات لويس الرابع عشر والعثمانيين . وقد وجد فيما بين عمليات اراقة الدماء هذه وقتا للشعر والفن والموسيقى ، ألف الموسيقى بنفسه ، وشجع الأوبرا فى فيينا ، فعرضت بها أربعمائة أوبرا جديدة فى السنين الخمسين التالية لاعتلائه العرش . وبيد لنا نقش يرجع الى عام ١٦٦٧ على أن المدينة كانت تملك دار أوبرا فخمة ، ذات ثلاثة صفوف من الألواح ، وكل مقعد فيها مشغول . وهكذا نرى أن هذه الدعامة المبهجة للغناء قديمة جدا .

وعلىنا أن ننظر الى النمسا فى هذا العصر على أنها المدافع عن الغرب ضد تركيا المنبعثة من جديد ، المعذبة بعدء أشد حكام الغرب بأسا ، فقد عاق صراع العالم المسيحى مع العالم الإسلامى وشوشه ذلك النزاع القديم بين الهابسبورج وفرنسا . وزادت المجر المشكلة تعقيدا ، لأن ثلاثين

٩ - قصة الحضارة

الغربي فقط هو الذى خضع لحكم الامبراطور ، وكان جزء منه بروتستانتية يتوق الى التحرر . وكان للمجريين مشاعرهم القومية الخاصة بهم ، والتي يغذوها ادبهم وما توارثوه من تقاليد يعتزون بها عن هونيادى يانوس وماتياس كورفينوس ، وكان ميكلوس زرينى قد نشر قبيل هذه الفترة (١٦٥١) ملحمة تفيض بحب الوطن . وكان المجريون الذين أهانهم وظلمهم الحكم النمساوى والتسلط الكاثوليكي تحدثهم نفوسهم بالترحيب بالعثمانيين حين قرر هؤلاء محاولة فتح المجر كلها .

وقد أوقفت سلسلة من الوزراء العثمانيين الأقوياء اضمحلال تركيا ، وعاودوا ارباب الغرب . ومن علامات الانتعاش أن شاعرا تركيا فحلا اسمه « نبي » راح يتغنى بمديح الوزراء الذين اغدقوا عليه المال ، وعلامة أخرى أن المال والذوق والورع التركي - كلها تضافرت لتشيد جامع يبنى - وليدى البديع فى اسطنبول (١٦٥١ - ٨٠) وعين السلطان محمد الرابع محمد كوبرلى صدرا أعظم (١٦٥٦) ، استهل وهو فى السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الالبانية على دست الوزارة ، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات ، ولكن فى هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره ٣٦٠٠٠ شخص لجرائم تتفاوت من السرقة الى خيانة الدولة ، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم فى المتوسط . وأكره الخوف من العقاب المفسدين فى الادارة ودساسة السياسة فى الحريم على الاعتدال ، وأعيد النظام الى الجيش ، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم . فلما تمرد جورج راكوكزى الثانى ، أمير ترانسلفانيا ، على السيادة العثمانية ، اكتسح كوبرلى حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه ، وخلع راكوكزى ، وفرض على البلاد تعويضا باهظا ، وزاد الجزية التى تدفعها ترانسلفانيا للسلطان سنويا من خمسة عشر ألف فلورين الى خمسين ألفا .

وخلف هذا السبعينى الرهيب فى الوزارة ابنه أحمد كوبرلى . فلما نشبت ثورة أخرى فى ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيميلى ، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الايطالى ريموندو دى مونتيكوكولى . ورد أحمد بالزحف بجيش عدته ١٢٠٠٠ مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر . وطلب ليوبولد المعونة ، واستجابت الولايات الألمانية ، البروتستانتية

والكاثوليكية على السواء ، بالمال والرجال ، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندي بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين . ولكن المقاومة بدت أمرا ميؤوسا منه حتى بعد هذا كله ، وتوقعت أوروبا سقوط فيينا ، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته . وكانت قوات مونتيكوكولى أقل كثيرا من قوات العدو ولكنها أفضل تزودا بالمدافع . ولم يجرؤ على لقاء الترك فى أرض مكشوفة تعطى ميزة للكثرة العددية ، فناورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتهارد ، على نحو ثمانين ميلا جنوبى فيينا ، وهاجم كل كتيبة تركية بمجرد وصولها الى ضفة النهر اليسرى . وكتب النصر لاستراتيجيته ، وللبطولة الفذة التى قاتل بها افراد الفرقة الفرنسية (أول أغسطس ١٦٦٤) ، فى معركة أنقذت أوروبا مرة أخرى من أن يغرقها طوفان المسلمين .

ولكن ، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (١٥٧١) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كبوتهم ، فكذلك اضطر الامبراطور ، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم ، وجيشهم الذى مازال محتفظا بضخامته ، وعدم ثقة ليوبولد بحلفائه التواقين الى العودة لأوطانهم - اضطر الى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاما (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك ، وواعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلفانيا ، ودفع للسلطان « هدية » بلغت ٢٠٠.٠٠٠ فلورين . أما أحمد كوبرلى ، الذى خسر المعركة وكسب الحرب ، فقد عاد الى القسطنطينية مكلا بالغار .

وانهى هجوم لويس الرابع عشر على الاراضي المنخفضة (١٦٦٧) مؤقتا اتحاد العالم المسيحى ضد الترك . وفى ١٦٦٩ تولى أحمد قيادة الحصار الطويل لكريت ، وأكره البنادقة على تسليم الجزيرة ، وسيطر الاسطول التركى مرة أخرى على البحر المتوسط . ولم يشعر حاكم غير يوحنا سويسكى ، ملك بولنده ، بأن لديه من الرغبة القوية ما يغريه بقهر تركيا . وقد أعلن عن هدفه فى شجاعة فقال ان « مقارعة الهمجى غزوا بغزو ، ومطاردته من نصر الى نصر ، على ذلك الحد نفسه الذى لفظه من أوروبا ... والقذف به الى موطنه فى الصحارى ، بوابادته ، واقامة امبراطورية بيزنطية على أنقاضه ، هذه المغامرة

وجدتها هي الجديرة بأن تسمى مسيحية ، انها دون غيرها السامية
الحكيمة (١٥) « . ولكن ليوبولد شجع الترك على مهاجمة بولنـد ،
ولويس حرضهم على مهاجمة ليوبولد (١٦) .

ومات أحمد كوبريلي في ١٦٧٦ وقد أنهك قواه وهو بعد في الحادية
والأربعين الكثير من الهزائم الرائعة ، بعد أن خسر « معارك فاصلة »
ومد الأملاك التركية الى أوسع مداها الأوربي . وخلع السلطان محمد
الرابع منصب الوزارة على صهره قره مصطفى ، الذي أبهج لويس
الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على النمسا (١٧) . وشجع قره نشوب
ثورة (١٦٧٨) قام بها الوطنيون المجريون بزعامة امري توكولي ،
الذي ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية والبروتستنتية في المجر
النمساوية ، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على
جميع أرجاء المجر اذا دعم الأتراك ثورته . أما ليوبولد فقد أقلع بعد
فوات الوقت ، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الديني في المجر . وأرسل
لويس الرابع عشر المدد المالي الى توكولي (١٨) ، ووعد سويسكي
بالاستيلاء على سيليسيا والمجر اذا ربط بين بولنـد وفرنسا في حلف ضد
الامبراطور . أما ليوبولد فلم يكن في وسعه أن يعد سويسكي بأكثر من
أرشيدوقة عروسا لابنه ، وبتعهد بتأييد جهود سويسكي لجعل العرش
البولندي وراثيا في فرعه من الأسرة المالكة . ولنا نعرف على التحقيق
دوافع الملك الى المبادرة بمساعدة النمسا على العثمانيين ، وكل
ما نستطيعه أن نقول انها كانت من أعجب وأخطر الاحداث في التاريخ
الحديث .

وأحسن قره مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون ،
وبين الكاثوليكية والبروتستنتية ، تتيح له فرصة الاستيلاء على قيينا ،
وربما على أوروبا بأسرها . وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية
عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة اسلامية في القرن الخامس عشر ،
وحولوا كنيسة القديسة عوفيا جامعا ، فكذلك أعلنوا الآن أنهم لن يفقوا
حتى يفتجوا روما ويربطوا خيلهم في صحن كنيسة القيس
بطرس (١٩) . وفي ١٦٨٣ حشد قره مصطفى في أدرنة قواته ومؤنـه
التي أتته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركية
أوربا ، وتظاهر انه يخطط للهجوم على بولنـد . وفي ٣١ مارس ١٦٨٣

يندا السلطان والصدر الأعظم زحفهما الطويل على فيينا . وكان الجيش كلما تقدم يضم اليه الامداد من كل ولاية تركية فى طريقه ، فانضمت اليه فرق من الأفلاق ، وملدافيا ، وترانسلفانيا ، حتى اذا بلغ أوسيك (اسزيك) على الدرافا كان يعد ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل ، ويحوى بين صفوفه الابل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم (٢٠) . هناك أذاع نوكولى اعلانا دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة الى دعم الهجوم على النمسا ، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم ، ووعدهم بحرية العبادة فى حمى السلطان . ففتح الكثير من المدن أبوابه للغزاة .

وعاد ليوبولد يستغيث بالامارات الألمانية ولكنها تباطأت . ووضع حنوده البالغ عددهم ٤٠.٠٠٠ تحت امرة شارل الخامس دوق اللورين ، الذى وصفه فولتير بأنه أنبل أمير فى العالم المسيحى (٢١) . وترك شارل حامية من ١٣.٠٠٠ رجل فى فيينا ، ثم تقهقر الى تولن ، حيث انتظر وصول البولنديين . وفر ليوبولد الى باساو ، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل . فلقد كانت حصونها مهدمة ، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف . وفى ١٤ يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة . وبعث ليوبولد الى سويسكى يرجوه أن يأتى فورا قبل أن تصل مشاته البطيئة الحركة قائلا « ان اسمك وحده ، الذى يرهبه العدو كثيرا ، كفيل بالنصر (٢٢) » . وأقبل سويسكى بثلاثة آلاف فارس . وفى ٥ سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم ٢٣.٠٠٠ مقاتل . وبعد يومين وصل ١٨.٠٠٠ مقاتل من الولايات الألمانية ، فأصبح عدد جيش المسيحيين الآن ٦٠.٠٠٠ . ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعا ، وقلاعها تنهاوى تحت نيران المدفعية التركية ، فما هو الا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة .

وفى صباح ١٢ سبتمبر الباكر ، هاجم المسيحيون - الذين كانوا الآن تحت قيادة سويسكى العليا - الأتراك المحاصرين . ولم يكن قره مصطفى يصدق أن البولنديين آتون ، ولا أن القوات المسيحية ستهاجم أولا ، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة ، وزين ضباطه خنادقهم بقطع النسيج المرسوم والقرميد ، أما هو فزود خيمته بالحمامات ، والنافورات ، والحدائق ، والمحظيات . وأخذ خيرة جنده على غرة فى خنادقهم ، فمزقوا اربا اربا . وشاعت الفوضى فى جيشه

المخطط الذى جمعه من ولايات لا يثير حماسها ولاء للسلطان البعيد ،
أمام المسيحيين الذين ألهمهم الشعور بانهم ينقذون أوروبا والمسيحية .
وبعد ثمانى ساعات قطع الظلام القتال . فلما بزغ الفجر الجديد وجد
المسيحيون الذين مازالوا غير واثقين من النصر - لشدة فرحهم - أن
الأتراك قد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ١٠.٠٠٠ قتيل ومعظم
معدات الجيش فى المعسكر . أما المسيحيون ففقدوا ٣.٠٠٠ رجل .

وأراد سويسكى أن يطادر الترك ، ولكن الجنود البولنديين
رجوه أن يسمح لهم بالعودة الى وطنهم بعد أن أدوا مهمتهم . ودخل
الملك الظافر فيينا وكتدرائيتها ليقدم الشكر لله ، وفى طريقه هتف له
الشعب العارف بصنيعه منقذا من السماء ، وناضل أفرادهم ليلمسوا ثوبه
ويقبلوا قدميه (٢٣) ، وأحسوا أنه ما من شيء فى سجل القروسية
يفوق مآثرته تلك . فلما عاد ليوبولد الى عاصمته (١٥ سبتمبر) لم
يلق غير استقبال فاتر من أهلها . وسأل معاونيه هل حدث أن أستقبل
امبراطور مجرد ملك منتخب ، وما المراسم التى يجب اتباعها فى هذه
الحالة . وتباطأ فى لقاء سويسكى ، وأخيرا حياه شاكرًا له صنيعه
شكرًا متواضعا ، وقد توجس من أن يكون الدافع للبطل فى رغبته فى
مطاردة الترك خطة لاقطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته (٢٤) . فلم
تبدأ المطاردة الا فى ١٧ سبتمبر ، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين
الا بعد ذلك بعشرة أيام . وعند باركانى ، قرب الدانوب ، أحرز
سويسكى وشارل انتصارا حاسما آخر . ثم قاد الملك جيشه عودا الى
بولنده بعد أن أنهكه السير والقتال والدوزنتاريا ، فدخل كركاو فى
ليلة ميلاد ١٦٨٣ . وفى اليوم التالى أعدم السلطان قره مصطفى .

وألفت النمسا وبولنده والبندقية ، بالحاج البابا انوسنت الحادى
عشر ، عصبة مقدسة لمواصلة الحرب ضد الترك (١٦٨٤) . وفتح
فرانشسكو موروزينى المورة (البلوينيز) للبندقية ، وفى ١٦٨٦ حاصر
أثينا واستولى عليها فى ٢٨ سبتمبر ، وأثناء هذا الحصار دمرت
مدفعيته البروبيلايا والبارتينون ، اللذين استعملهما الأتراك مخزنا
لبارودهم . وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا فى ١٦٨٨ ، والمورة فى
١٧١٥ . وفى غضون هذا هرم شارل اللورينى الترك فى جران
(أترجوم) فى ١٦٨٥ ، وفى السنة نفسها ، وبعد عشر أيام من

الحصار ، استولى على بودا - عاصمة المجر القديمة - التى كانت فى قبضة الأتراك منذ ١٥٤١ . وفى ١٦٨٧ قاد شارل القوات النمساوية الى النصر فى هاركانى ، قرب موهاكس ، حيث استهل انتصار سليمان القانونى عام ١٥٢٦ عصر التفوق العثمانى . وإنهت معركه « موهاكس الثانية » هذه سلطة الأتراك فى المجر ، التى أصبحت الآن ملكا للملكية النمساوية . واعترفت ترانسلفانيا بسيادة الامبراطور الهابسبورجى ، وأدمجت (١٦٩٠) فى الامبراطورية النمساوية - المجرية . وفى ١٦٨٨ استولى ماكس ايمانويل البافارى على بلغراد . وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحا الى القسطنطينية ، وأنه قد آن الأوان ووات الفرصة لطرد الأتراك من أوروبا .

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم . ذلك أن حرب البوربون مع الهابسبورج كانت فى نظر ذلك « الملك المسبى جدا » أهم من الصراع بين المسيحية والاسلام . وكان يرقب فى غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم . وفى ١٦٨٨ ، سائثف حربه مع الامبراطور ، ضاربا صفحا عن ابرامه هدنة عشرين عاما معه قبل ذلك بأربع سنين فقط ، وأرسل جيشا الى البالاتينات . فأرسل ليوبولد شارل وماكس ايمانويل للقاءة الهجوم على الراين ، وتوقف الزحف على الترك ، وتجدد الهجوم التركى .

واستوزر السلطان الجديد ، سليمان الثانى ، رجلا آخر من أسرة كوبرلى هو مصطفى أخو أحمد . وهذا مصطفى حواطر المسيحيين فى نركية أوروبا بتوسيعه حرية العبادة ، ونظم جيشا جديدا ، واستولى على بلغراد من جديد (١٦٩٠) . ولكنه قتل بعد سنة ، ودحر الأتراك عند سلانكامين . وتولى السلطان مصطفى الثانى قيادة الجيش بشخصه ، ولكن المسيحيين هزموه فى سنتا (١٦٩٧) وكان يقودهم أوجين أمير سافوى . وطلب مصطفى الصلح ، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) مع تركيا وبولنده والبنديقية ، مغتبطا لأن يده أطلقت فى محاربة لويس . ونزلت تركيا عن كل دعاواها فى ترانسلفانيا والمجر (فيما عدا « بنات » تيميسفار) ونزلت عن غربى أوكرانيا لبولنده ، وسلمت المورة ودماشيا الشمالية للبنديقية . واحتفظت بالبلقان كله - دماشيا الجنوبية ، والبوسنة ، والصرب ، وبلغاريا ،

درومانيا ، ومعظم اليونان ، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركى على العالم المسيحى .

ترى ما الذى هوى بقوة العثمانيين من أوجهها أيام سليمان لقانونى ؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط . لقد كانت فرص المتعة التى أتى بها النصر والثروة شديدة الاغراء ، فبدد السلاطين فى الحريم ما كانوا فى حاجة اليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء . واتسعت دولتهم اتساعا حال دون ادارتها ادارة فعالة ، ودون سرعة توصيل الاوامر ونقل الجنود ، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الآستانة مستقلين تقريبا عن السلاطين . ولم يعد الجوع يحفز الترك ، ولا الأعداء يهددونهم ، فتردوا فى مهاوى الكسل والفساد ، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة الفوضى فى الاقتصاد والجيش . وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة على رواتبهم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها ، واكتشفوا سطوتهم ، فاستغلوها كلما تعاضمت . وظفروا بحق الزواج ، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الأذن بالانخراط فى سلاحهم الذى كان من قبل وقفا على النخبة المنتقاة ، وتنكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلوا الانكشارية صفوة المقاتلين فى أوربا . أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء فى لذات الجنس ، فقد فشلوا فى ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية . وبينما كان الغرب المسيحى يصنع مدافع أفضل ، ويطور استراتيجية وتكتيكات أرقى ، فى صراع الحياة والموت الذى دار على ساحات حرب الثلاثين ، وجد الأتراك ، الذين كانوا تحت إمرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعية فى العالم - وجدوا أنفسهم - كما حدث فى ليبانتو - متخلفين فى قوة النيران والاستراتيجية . وأرهقت الحرب ، التى قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم - هذه الحرب أزهقت الدولة حين آثروا انتصارات الحريم السهلة على مشاق المعركة . وكان لسيطرة الايمان القدرى ، غير التقدمى ، على الحياة والفكر أثرها فى خنق العلوم الإسلامية التى كان لها القدر المعلى فى العصور الوسطى ، وازدادت المعرفة فى الغرب وتخلفت فى الشرق . وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفيعتهم وامتدت تجارتهم الى جميع القارات ، تشق لها طرقا جديدة فى العباب ، بينما كانت معظم

تجارة العثمانية تزحف فى قوافل على الياپس . وترك الحكام الكسالى سقايات والقنوات تبلى ، بينما الفلاحون الذين قلبت الحرب حياتهم ينتظرون المطر فى ذل ومسكنة . واتخذ ميسلر الامبراطورية طريقه غربا ، الى أن وجد نفسه ثانية فى الشرق يوما وهو لا يزال يتحرك غربا .

وكان رد الأتراك على أعقابهم معناه بالنسبة للغرب الدعوة لحرب داخلية طاحنة . ذلك أن النمسا والمانيا تخولتا بعد تحررها من ضغط تسلط عليهما لمواجهة أطماع لويس الرابع عشر ، الذى كان يمد ذراعيه فى الأراضي المنخفضة ، وأراضي الراين ، والبلاتينات ، وإيطاليا ، وأسبانيا . وأكملت هذه اللطمات الآتية من الغرب تفكك لامبراطورية الرومانية المقدسة ، فلم يبق منها غير الصورة . وانتهى الأمر بالامبرادور الى النظر الى نفسه على أنه نمساوى لا رومانى ، وحلت الامبراطورية النمساوية - المجرية محل الرومانية المقدسة . وجعلت العروش الثلاثة - عروش النمسا ، والمجر ، ويوهيميا - وراثية فى أسرة هابسبورج (١٧١٣) ، فالغيت حقوق الولايات البوهيمية والمجرية التقليدية فى انتخاب ملوكهم . وعادت المجر الى الثورة (١٧٠٣ - ١١) بزعامة فرانسيس راکوكزى الثانى ، ولكن الثورة أخمدت ، تاركة الحنين الى الحرية يتردد صده فى الشعر والأغانى .

وسخرت النمسا اقتصاديات المجر ويوهيميا لمنفعتها الخاصة ، وتمتعت طبقاتها العليا بثراء جديد . وارتفعت القصور الفاخرة للاستقرائية ، وأسكنت الكنائس الجميلة والأديار الضخمة القساوسة والرهبان المنتصرين . وأعاد الأمير بال استرهازى بناء قلعته الكبرى فى ايزتشتات ، حيث سيقود هايدن يوما فرقته الموسيقية ويؤلف لحنه . وفى فيينا صمم دومنيكو مارتينالى قصر ليشنشتين ، وقصر بلفدير لأوجين أمير سافوى . وبنى يوهان فيشر فون ايرلاخ لهذا الأمير ذاته قصرا شتويا فاخرا ، ووضع الخطط للمكتبة الملكية ، والقصر الامبراطورى فى شونبرون . وفى ١٧١٥ بدأ اعظم معمارى النمسا هذا

عمله فى كنيسة كارلسكرشي بفيينا ، بطراز كنيسة القديس بطرس بروما .
وعلى ضفاف الدانوب على نحو أربعين ميلا غربى فيينا شاد يعقوب
برانتاور دير «كلوسترميلك» اكبر الأديار البندكتية وأروعها فى الأراضى
الألمانية ، وهذا أوج الباروك النمساوى . وفى أعقاب الانتصار صمم يوهان
ارنست تون ، رئيس الأساقفة الكفاء الوجيه ، حديقة ميرابيل الشهيرة
بسالزبورج ، وجملها بمنحوتات من صنع فيشرفون ارلاخ . وهكذا
تحركت النمسا فى كبرياء وأبهة الى أعظم قرن فى تاريخها .

الفصل الخامس عشر

الجنوب المراح

١٦٤٨ - ١٧١٥

١ - ايطاليا الكاثوليكية

من حكمة الفلاح الصامته أن فى الامكان اصلاح الثرىة التى كانت يرهقها الثمر الوفير باراحتها فترة ، وربما بحرثها دون زرعها . وهكذا استراحت ايطاليا بعد خصوبة النهضة التى أرهقتها . وأبطأ تدفق حيويتها العارمة ، وكأنها تستجمع قوتها لمزيد من جلائل الاعمال . فعلىنا اذن ألا نتوقع من ايطالية هذا العصر والعصر التالى له - بين برينى ويونابرت - ثمارا كتلك التى تدفقت من معينها الفياض فى قرونها الذهبية . اننا نلم بها هنا مرة أخرى ، قانعين اذا استطعنا بين الحين والحين أن نسمع فى مدنها التى تردد أصداء التاريخ أصواتا صغيرة تشهد بحياة لم تنطفئ جذوتها .

وكانت لا تزال كاثوليكية بطبيعة الحال ، فذلك من صميم روحها ، ولا سبيل الى انتزاعه منها دون انتهاك لروحها . كان فقراؤها يظلمهم الأغنياء ، الذين هيمنوا بالطبع على الحكومات وشرعوا القوانين . وعلل الأغنياء هذا الظلم بأن الفقراء سيصبحون مشاغبين وقحين اذا رفعت أجورهم . أما النساء فكان يستغلن الرجال والشعب ، الا أن يكن فى ربيع حسنهن . فى هذه الأحوال كانت طبقات الشعب الدنيا ، والجنس الاضعف آنذاك ، تجد عزاء فى خدمات الكنيسة . وكان ايمانها بالعدل الالهى سندا بعزيها عن قسوة الانسان ، وكانت خطايا السنثم الحادة وجسدهم الوثنى يغتفرها دون تردد القساوسة المتسامحون والرهبان اللطفاء الذين أطعموهم والرجاء يملأ نفوسهم . وكانوا شاكرين لما تخلل أيامهم المثقلة بالأعباء من أعياد ومهرجانات مريحة يحتفلون فيها بذكرى قديسيهم الحامين . وآمنوا بأن قديسيهم ، والام العذراء الرحيمة ، سينقذونهم من أهوال الجحيم بتشفعهم أمام عرش

لله ، وبأن الغفرانات التى توزعها الكنيسة ستفصر مقامهم فى المطهر ،
وانهم سيدخلون ، ان عاجلا أو آجلا ، فردوسا - يفوق جماله حنى
حمال ابطاليا - لن يكدر صفوه ملاك ، ولا ضرائب ، ولا عشور ،
ولا حرب ، ولا حزن ، ولا ألم .

وهكذا احتملوا بصبر ، ومرح ، وغناء ، ابنزازات كهنهم الذبن
لم يخل منهم مكان ، والذين التهموا على الاقل ثلث ايرادات الامة .
وأحبوا كنائسهم كأنها جزر من السلام وسط حرب الحياة . وتأملوا بهاء
كنيسة القديس بطرس وفخامة الفاتيكان فى فخر لا يخالطه استياء
ولا غبط ، فتلك حصيلة دراهمهم ونتاج فنانيهم ، وهى ملك للفقراء
أكثر من الاغنياء ، وهى فى نظرهم ليست أفخم من أن تكون مثنوى لأول
الرسل (بطرس) ، أو مسكنا لزعيم العالم المسيحى ، خادم خدام
المسيح . وإذا كان ذلك الأب الأقدس يعاقب الهجمات التى توجه
للكنيسة ، فما ذلك الا ليمنع الحمقى من تدمير صرح الاخلاق القائم على
العقيدة الدينية ، ليصون ذلك الايمان الذى جعل من نثر الكد والسقاء
ملحمة شعرية .

أما ديوان التفتيش الابطالى فكان رحيما نسبيا فى هذا العصر .
وأشهر ضحاياه قس اسبانى بدعى مجبويل دى مولينوس . ولد فى
سرقسطه ، وسكن روما . وفى ١٦٧٥ نشر كتابه « المرشد الروحى »
الذى يزعم فيه أنه وان كان التعبد للمسيح والكنيسة معينا على بلوغ
أسمى الحالات العينية ، الا أنه يجوز للعابد الذى انقطع للاتصال
المباشر بالله أن يتجاهل وهو مطمئن كل الوساطات الكهنوتية والطقوس
الكنسية . وفى نبذة أخرى رأى مولينوس أنه لا حرج على العابد الوائق
من تحرره من الخطيئة الأخلاقية فى أن يتناول القربان دون أن يعترف
للكاهن قبل تناول . واجتذب « مرشد » مولينوس النساء على الأخص
فالتمست نصيحته المئات - ومنهن الأميرة بورجيزى والملكة كرسطينا ،
وأرسلن له الهدايا . واعتنقت راهبات كثيرات هذه « الهدوئية »
الجديدة ، ونبذن أورادهن ، واستغرقن فى صلة فخور بالله . وشكا
العديد من الأساقفة الايطاليين من هذه الحركة التى قللت من شأن
الخدمات والتبرعات الكنسية ، وناشدوا البابا انوسنت الحادى عشر أن
يقمعه (١) . وهاجم اليسوعيون والفرنسيسكان مولينوس لأنه أكد على

الايمان دون « الأعمال » تأكيداً كان يكون بروتستانتياً . وبسط عليه
اليابا حمايته حيناً ، ولكن ديوان التفتيش الرومانى قبض عليه فى
١٦٨٥ ، ثم على نحو مائة من أتباعه . وكان قد جمع أربعة آلاف كراون
ذهبى (٥٠٠.٠٠٠ دولار ؟) يفرضه رسماً صغيراً على المشورة التى
يبدلها لمراسليه ، ونستطيع الحكم على عدد هؤلاء المراسلين من تكاليف
البريد على الخطابات التى تسلمها فى يوم القبض عليه ، والتى بلغت
ثلاثاً وعشرين دوكانتية (٢٨٧.٥٠٠ دولاراً ؟) (٢) .

وبعد أن فحص ديوان التفتيش السجناء وضع قائمة بالتهمة
الموجهة اليهم ، وأهمها أن مولينوس برر تحطيم صور المسيح المصلوب
والتماثيل الدينية لأنها تعوق هدوء الاتحاد بالله ، وأنه تبسط همم
الأشخاص الذين أرادوا نذر أنفسهم للدين أو الالتحاق بالطرق الدينية .
وأنه قاد تلاميذه الى الاعتقاد بأن لا شيء يأتونه بعد بلوغهم الاتحاد
بالله يمكن أن يكون خطيئة . ولعله اعترف تحت ضغط السجن ، أو
التعذيب ، أو الخوف ، بأنه اعترف تحطيم الصور ، وبأنه ثنى الأشخاص
الذين رأهم لا يصلحون للرهبنة عن نذر أنفسهم لها ، واعترف بأنه ظل
سنين كثيرة يمارس « أكثر الأعمال خروجاً على اللياقة مع امرأتين »
وأنه « لم ير ذلك اثماً بل تطهيراً للنفس » ، وأنه بذلك « استمتع
باتحاد أوثق مع الله » (٣) . وأدان ديوان التفتيش ثمانى وستين دعوى
وجدها فى كتب مولينوس أو رسائله أو اعترافاته ، وفى ٣ سبتمبر ١٦٨٧ وجه
اليه الاتهام فى احتفال عام مما يحرق فيه المهرطقون *auto — da — fe*
وحضر جمع كبير ، وطالبوا بحرقه ، ولكن المحكمة قنعت بالأمر بسجنه
مدى الحياة . وقد مات فى السجن فى ١٦٩٧ .

ولعلنا نتعاطف أكثر مع « المهرطقين » الألبين الذين بكاهم ملتن
فى سونيته سماها « حول المذبحة الأخيرة فى بييدمونت » . وبين ذلك
أنه كان يسكن الاودية الرابضة بين بييدمونت السافواوية ودوفينه
الفرنسية قوم يدعون الفودوا ، هم حفدة « الفالدينز » الذين سبقو
حركة الإصلاح البروتستانتى وعاشوا بعدها ، والذين احتفظوا بعقيدته
البروتستانتية خلال عشرات التقلبات التى طرأت على القانون والحكومة

وفى ١٦٥٥ انضم الدوق شارل ايمانويل الثانى أمير سافوى الى لويس الرابع عشر فى تنظيم جيش لأكراه هؤلاء الفودوا على اعتناق الكاثوليكية . وأثارت المذبحة التى أعقبت ذلك سخط كرومويل ، فحصل من مازاران على أمر بوقف هذا الاضطهاد . ولكن بعد موت حسامى الجمهورية (كرومويل) والكردينال (مازاران) تجدد الاضطهاد ، فلما ألغى مرسوم نانت استأنفت الدولة الفرنسية جهودها فى استئصال شأفة البروتستنتية من الاقليم . وألقى الفودوا السلاح على وعد بالغفو العام ، وما لبث ثلاثة آلاف منهم ، مجردين من السلاح ، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ ، أن ذبحوا ذبح الأنعام (١٦٨٦) . وسمح للباقيين منهم على قيد الحياة ، الذين أبوا اعتناق الكاثوليكية ، بالهجرة الى أرباض جنيف . ثم جاء دوق آخر لسافوى يدعى فيكتور أمادبوس ، وجد نفسه فى مشكال السياسة حليفا لفرنسا بل عليها ، فدعا الفودوا للعودة الى اوديتهم (١٦٩٦) . فعادوا ، وقاتلوا تحت لوائه وسمح لهم بعدها بعبادة المجهول على طريقتهم المؤمنة .

أما الفقراء فكانوا فى الولايات البابوية يعانون فقر اخوانهم فى كل مكان بإيطاليا وكانت الإدارة البابوية (الكوريا) ، كأي حكومة ، تفرض الضرائب على رعاياها الى الحد الذى يهبط بعائدها ، فلم يتح لها قط من المال ما يكفى لأغراضها وموظفيها . وقد أُنذر الكردينسالى ساكيلى البابا اسكندر السابع (١٦٦٣) بان جباة الضرائب يفقرون السكان حتى يشرفوا بهم على حافة اليأس ، فقال : « ان أفراد الشعب ، الذين لم يعودوا يملكون من الفضة أو النحاس أو الثياب أو الاثاث ما يشبع جشع الجباة ، سيضطرون الى بيع أنفسهم ليلبوا المطالب الثقيلة التى فرضتها عليهم الكاميرا (الغرفة التشريعية للكوريا (٤) ») . وشكا الكردينال من الرشوة فى القضاء البابوى ، ومن الاحكام التى نباع وتشرى ، والدعاوى التى يطول نظرها سنين عديدة ، والعنف والطغيان يعانیهما الخاسرون الذين يجرعون على استئناف الحكم من موظف أدنى الى آخر أعلى . يقول ساكيلى « ان هذه المظالم أفدح من تلك التى نكب بها بنو اسرائيل فى مصر . فالناس الذين لم يغلبوا بالسيف بل أخضعوا للكرسي البابوى يعاملون معاملة أكثر وحشية من معاملة العبيد فى سوريا أو أفريقيا . فمنذا يستطيع أن يشهد

هذه الأشياء دون أن يذرف عليها دموع الحزن والأسى (٥) ؟ « وفى وسط فقر الجماهير كان العديد من الأسر النبيلة التى تربطها رابطة القرابة بالبابوات أو الكرادلة يتلقى الهبات السخية من إيرادات الكنيسة .

أما بابوات هذا العهد فلم يكونوا زهادا كبيوس الخامس ، ولا رجال دولة كسيكستوس الخامس ، انما كانوا فى العادة قوما طيبين ، أضعف من أن يتغلبوا على الرذائل البشرية المحيطة بهم ، أو يراقبوا مآثى اللغرات والاركان التى ينفذ من خلالها أو يختبئ فيها الفساد فى ادارة الكنيسة . ولعل أى مؤسسة بلغت هذا المبلغ من الاتساع وكثرة الواجبات لا يمكن وقايتها من الأخطاء الملازمة لطبيعة الانسان . وقد جاهد انوسنت العاشر ، (١٦٤٤ - ٥٥) ، « النقى الحياة المستقيم المبدأ (٦) » ليخفف من ثقل الضرائب ، ويكبح استغلال النبلاء الجشعين للإيرادات البابوية ، ويصون النظام والعدل فى ولاياته . وتبدو عليه - كما صورته فيلاسكويز - كل مظاهر الخلق القوى ، ولكنه سمح لغيره بأن يحكموا نيابة عنه ، وترك أوليمبيا مايدالكنى ، زوجة أخيه الجشعة الطموح ، تؤثر فى تعييناته وسياساته ، فكان الكرادلة والسفراء يتذللون أمامها ، وأثرت من هداياهم ثراء صارخا ، ولكن لما مات انوسنت زعمت أنها أفقر من أن تنفق على ماتمه (٧) .

وروى أن كردينالا قال فى مجمع الكرادلة الذى اختار خليفته « يجب أن نبحث عن رجل أمين هذه المرة (٨) » . وقد وجدوه فى شخص فابيو كيجى ، الذى أصبح الاسكندر السابع (١٦٥٥ - ٦٧) . وقد بذل فصاراه ليظهر الادارة البابوية من الفساد وتعطيل الأعمال ، ونفى أبناء أخيه النهمين الى سينا ، وخفض الدين العام . غير أن الفساد الذى أحاط به كان أوسع وأعم من أن يستطاع قهره . فالتقى السلاح ، وسمح لابناء أخيه بالعودة الى روما ، وخلع عليهم المناصب المجزية ، فجمع أحدهم بعد قليل ثروة طائلة (٩) . وانتقلت القوة من يدى الاسكندر المتعبتين الى الكرادلة ، الذين طالبوا بالمزيد من السلطة فى حكم الكنيسة . وحلت أرستقراطية من الأسر تفخر بكرادلتها محل الملكية المطلقة التى ثبتها مجمع ترنت من قبل البابوات .

وجدد كلمنت التاسع (١٦٦٧ - ٦٩) الكفاح ضد محاربة الأقرباء . وسمح لأقربائه ببعض الامتيازات المتواضعة ولكنه ولى ظهر لطلاب المناصب . وأقبل المئات من مسقط رأسه بيسطويا ، واثقين من أنه سيعينهم على الأثراء ، ولكنه ردهم ، فهجوه هجوا ساخرا ، وهنا أيضا ندرك أن طبيعة البشر واحدة سواء فى الظالم أو المظلوم ، وأن الناس هم أس البلاء المحيط بهم . وكان البابا الجديد رجل سلام وعدل . فبينما أصدر سلفه - بتحريض من لويس الرابع عشر - مرسوما مثيرا للمتعاب ضد الجانسنيين ، عرض كلمنت هدنة فى ذلك النزاع الناشب داخل الكنيسة . ومن أسف أنه مات ولم يقض فى دست الحكم غير عامين .

وخلفه كلمنت العاشر (١٦٧٠ - ٧٦) وهو فى الثمانين ، فترك الأمور للكرادلة (كما رتبوا الأمر من قبل) ، ولكنه أنهى عهده دون عيب يعيبه . وجاء انوسنت الحادى عشر (١٦٧٦ - ٨٩) وكان - كما قال رانكى البروتستنتى - رجلا « تفرد بتواضعه ... غاية فى دمنانة الخلق وهدوء الطبع » ، مدققا فى مسائل الأخلاق حازما فى شئون الإصلاح (١٠) . وقد أبطل « كلية » الموثقين الرسولين التى قال مؤرخ كاثوليكي « أن التعيينات فيها كانت تباع وتشترى بانتظام (١١) » . وألغى الكثير من المناصب والامتيازات ، والاعفاءات ، (التى لا فائدة منها) ووازن الميزانية البابوية لأول مرة فى سنوات كثيرة ، وأرسي للنزاهة المالية سمعة مكنت الإدارة البابوية من اقتراض المال بفائدة لا تزيد على ٣ ٪ . كتب فولتير يقول عنه « كان رجلا فاضلا ، وجبرا حكيما ، ولاهوتيا ضعيفا ، وأميرا شجاعا ، قوى العزيمة ، جليل القدر (١٢) » . وقد حاول عبثا أن يخفف من تعجل جيمس الثانى فى كثلثة انجلترا ، وأدان العنف الذى استعمله لويس الرابع عشر ضد الهيجونوت ، وقال ، « ان الناس يجب أن يهدوا الى دور العبادة لا أن يجزوا اليها جرا (١٣) » ولم يجد ما يدعو له لمحبة ذلك الملك المتكبر الذى ادعى لنفسه من السلطة المطلقة على الكنيسة فى فرنسا ما يقرب من السلطة التى أكدها هنرى الثامن لنفسه فى إنجلترا . ولكى يقلل انوسنت الحادى عشر من الجرائم فى روما ألغى حق اللجوء الذى سبق منحه لمساكن السفراء ، وأصر لويس على الاحتفاظ بذلك الحق لمبعوثيه ،

بل للشوارع المجاورة للسفارة الفرنسية ، وفى ١٦٨٧ دخل سفيره روما بفوج من الفرسان ليفرض بالقوة مطلب الملك • ووبخ البابا السفير ، وأوقع حرما على كنيسة القديس لويس التى كان يصلى فيها السفير فى روما • واحتكم لويس الى مجمع عام ، وسجن ممثل البابا فى فرنسا ، واستولى على إقليم أفنيون الذى كان ملكا للبابا منذ ١٣٤٨ • ومن هنا نظرة انوسنت الحادى عشر الهادئة المطمئنة الى الحملة التى جردها وليم أورنج الثالث ، البروتستنتى ، لخلع جيمس الثانى الكاثوليكي وادخال انجلترا فى حلف ضد فرنسا • وقد تعاون البابا مع جهود ليبنتز لاعادة الوحدة بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ووافق على تنازلات أعلنت جامعات ألمانيا البروتستنتية رضاءها عنها ، وقد وصفه أحد الانجليز بأنه « بابا بروتستنتى (١٤) » •

وتوفى انوسنت الحادى عشر قبل أن يشهد انتصار أهدافه ، ولكن خلال بابوية الاسكندر الثامن (١٦٨٩ - ٩١) وانوسنت الثانى عشر (١٦٩١ - ١٧٠٠) تخلى السفير الفرنسي عن حق اللجوء ، وردت أفنيون للبابوية ، ونقل الاكليروس الفرنسي ولاءه من الملك الى البابا وأعاد الحلف الأعظم توازن القوى ضد فرنسا العدوانية • وفى حرب الوراثة الاسبانية وجد كلمنت الحادى عشر (١٧٠٠ - ٢١) نفسه وقد تورط فى انقسامات أوروبا العنيفة ، فكان يلقي بنفوذه مترددا تارة فى جانب وتارة فى جانب آخر ، وفى النهاية اقتسم الملوك الأسلاب دون أن يستشيروه - حتى صقلية وسردينيا ، وهما - فنييا - اقطاعان بابويتان • كذلك كانت معاهدة وستفاليا قد تجاهلت احتجاجات انوسنت العاشر • لقد استلزم اشتداد النزعة القومية اضعاف البابوية ، وأسهمت هذه النزعة مع نمو العلم فى تشجيع العلمانية والتهوين من دور الدين فى الحياة الاوربية •

٢ - الفن الايطالى

أحس الفن كما أحست السياسة بهذه المنافسة المشتدة بين شئون الدنيا وشئون الدين • كان رجال الكنيسة لايزالون أغنى رعاة الفن ، يوصون بالمباني ، والصور والتماثيل ، والزخارف ، ولكن الارستقراطية فى الحياة الاوربية

٧ - قصة الحضارة

استكثرت الآن من القصور بأسرع من الكنائس ، وتوددت الى الاجيال القادمة بالصور ، وأهدتها مجموعات من التحف الفنية . وفى ايطالية القرن السابع عشر جرى تيارا الرعاية هذان جنبا الى جنب فى انحدار بهى من النهضة الأوروبية .

وكانت تورين تتخذ طريقها الى الثراء تحت حكم أدواق سافوى . وقد صمم جوارينو جوارينى لكتدرائية سان جوفانى باتيستا « كابيل ديل سانتيسيمو سوداريو » أى كنيسة الكفن الأقدس (الذى اعتقد المؤمنون أن يوسف الرامى كفن فيه جسد المسيح) . وقد انهارت قبة كنيسة سان فيليپو الكبرى ، التى بدأها جوارينى ، قبيل أن تكتمل ، فرمها فيليپو ايوفارا ، الذى ولد سنة ١٦٧٦ قبل موت جوارينى بسبع سنوات . ولعلنا نلتقى بايوفارا مرة أخرى .

وفى جنوة كان أروع بناء شيد فى هذا العهد هو قصر دوراتزو الذى بناه فالكونى وكانتونى فى ١٦٥٠ ، واشتراه بيت سافوى فى ١٨١٧ ، واستخدم بعد ذلك قصرا ملكيا للأسرة . وقد تحطمت قاعة مراياه الشهيرة فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت رائدة لقاعة مرايا فرساي (١٦٧٨) ، فليس صحيحا اذن أن مارس (اله الحرب) عشق فينوس يوما ما . أما أبرز المصورين الجنوبيين الآن فكان اليساندرو مانياسكو ، وقد نجد انموذجا من فنه فى لوحة « مجمع اليهود » المحفوظة بمعهد الفن بشيكاغو ، أو لوحة « الغداء البوهيمى » المحفوظة باللوفر .

وواصلت البندقية انجابها للأبطال والفنانين . وأى عمل أعظم بطولة من الدفاع عن كانديا ضد ترك ؟ فطوال ربع قرن ظل جنود الباب العالى وبحارته يهاجمون كريت ، وكانت يومها مستعمرة للبندقية ، وهلك فى تلك الحملات العنيفة ١٠٠.٠٠٠ تركى (١٥) ، ومع أن جيشا عدته ٥٠.٠٠٠ مقاتل استولى على بعض المدن الصغيرة فى الجزيرة ، فان العاصمة صمدت للحصار عشرين عاما ، وصدت اثنين وثلاثين هجوما . وفى ١٦٦٧ أرسل فرانشسكو موروزينى ليقود الحامية المشرفة على الموت جوعا . وأخيرا سلمت (١٦٦٨) ، ولكن أحدا لم يعد يتكلم على تدهور البندقية . وفى ١٦٩٣ ، عندما تقلد موروزينى مرة الاسطول البندقى ، تقهقر الاتراك حين اقترب منهم وقد روعهم

اسمه فقط . وكان لا يزال من تلك الطراز من الرجال الذى صورته
نتنوريتو وفيرونيزى — الشجاعة المجسة التى لا تعرف الرحمة .

وكان يالدا سارى لاونجينا رجلا آخر من هذا الطراز السبعينى .
مقبل سنوات كثيرة (١٦٣٢) صمم كنيسة « سانتا ماريا ديلا سالوتى »
— أميرة البحيرات الجليية ، أما الآن ، وبعد سبعة وأربعين عاما ، فقد
شاد قصر بيزارو على القناة الكبرى — قصرا متينا بديعا بأعمدته
المزدوجة وكرانيشه المتعددة ، ثم بنى (وهو فى السادسة والسبعين)
قصر ريترونيكو ، الذى سيموت فيه الشاعر براوننج . وهناك نبت آخر ،
صلب العود ، حمل البذرة البندقية الى نصف القارة ، وهو سبستيانو
مريتشي ، الذى ولد (١٦٥٩) بمدينة بلونو فى اقليم فينيسيا ، وذهب
الى فلورنسة ليزخرف قصر ماروتشيللى ، ثم سار على اقل الدروب
ضنكا — الى ميلان ، وبولونيا ، وبياتشينزا ، وروما ، وفيينا ، ولندن .
وأفقد عشر سنوات فى انجلترا ، ورسم صورا فى مستشفى تشلسي ،
وبيرلنجن هاوس ، وقصر هامبتن كورت ، وكاد يظفر بمهمة زخرفة
كنيسة القديس بولس الجديدة . ثم مضى الى باريس ، حيث انتخب
عضوا فى أكاديمية الفنون الجميلة . ولوحته « ديانا والهوريات (١٦) »
غلمة كلوحات بيوشيه ، لطيفة كلوحات كوريدجو . وعمر ريتشي حتى
١٧٣٤ ، وأسلم مهاراته للقرن الثامن عشر ، ومهد الطريق للعصر
الذهبى للتصوير البندقى أيام تيبولو .

أما المدرسة البولونية فلم تكن قد استنفدت قوتها تماما . فاشتھو
كارلو تشينيانى برسومه الجصية فى كتدرائية فرولى . وكشف جوزيبي
ماريا كرسبى (لو سبانيولو) فى « صورته الذاتية (١٧) » عن رجل
مستغرق فى الفن ، متناس كل متاعبه اذا اتيج له أن يرسم . وقد صور
جوفانى باتيستا سالفى (« الساسوفيراتو ») فى لوحته « العذراء
تصلى (١٨) » ما فى المحبة من انكار للذات ، وارانا فى لوحته
« العذراء والطفل (١٩) » مجرد امرأة بسيطة ، سعيدة بوليدها
(البامبينو) ، كائى امرأة تراها فى أى يوم بين فقراء ايطاليا .

وقد حكم فلورنسه وبيزا وسيينا خلال هذه الفترة اثنان من كبار
أدواق توسكانيا ، فردينلاند الثانى وكوزيمو الثالث . وفى ١٦٥٩ بدأت

سينا مهرجان الباليو (المعطف) المشهور : فكانت أحياءها العشرة تنظم موكبا بملابس بهية يسير فى شوارع زينت بالعمائر ، والرايات ، والزهور ، ونساء مرحات لابسات ثيابا جذابة ، ثم يتبارى فرسان الاحياء بجنون فى سباق على معطف السيدة العذراء التى كوست المدينة التقية نفسها وحياتها له منذ أمد بعيد . ولم تملك فلورنسة الآن من المصورين الا الصغار . وواصل كارلو دولتشي ، بفن أضعف ، صور جيدو رينى العاطفية ، المتأمل فى السماء ، التى رسمها للعذراء والقديسين ، والعالم كله يعرف لوحته « القديسة سيسيليا (٢٠) » ورسم يوستوس سوترمانس ، الذى هاجر من فلاندر الى فلورنسة ، لوحات تعد من العجائب التى تشد الانتباه فى قاعة بيتى - وليس أقلها رأس جاليليو الرائع الجليل . كذلك كان يبدو موسي وهو يشرح الناموس ، لا كما نراه فى وحش ميكلانجلو ذى القرون .

وكان الفن فى روما يفتق من قيود الحركة المعارضة للأصلاح البروتستنتى . فعاد البابوات بقدر أخف الى روح النهضة ، وشجعوا الأدب ، والدراما ، والعمارة ، والنحت ، والصوير . ورمم انوسنت العاشر الكابيتول وكنيسة سان جوفانى فى لاتيرانو . وكلف الاسكندر السابع برنينى بأن ينحت نطاقا رباعيا من حراس مصنوعين من الجرانيت حول ميدان القديس بطرس (١٦٥٥ - ٦٧) - فنحت ٢٨٤ عمودا و ٨٨ ركيزة ، ووفق فى صنعها الى تحويل الذهب الى حجر . وفى عهد هذا البابا أعاد بييترو داكورتونا بناء كنيسة سانتا ماريا ديلا باتشي ، حيث كانت عرافات رفائيل لا تزال تتأمل القدر . واشترك جيرولامو دالينالدى مع ابنه كارلو فى تشييد كنيسة سانتاجينيزى الجميلة فى ميدان نافونا . واشترك الوالد والولد ثانية فى تصميم كنيسة « يسوع ومريم » ، وبنى كارلو هيكل سانتا ماريا فى كامبيتلى ليضم تمثالا للعذراء اعتقد الناس أنه أوقف طاعون ١٦٥٦ . وكان الكرادلة والنبلاء يبنون مساكنهم ومدافنهم فى فخامة القصور . وارتفع الآن قصر دوريا وهو قصر كولونا ذو الزخارف الباروكية المسرفة ، وفى كنيسة « يسوع ومريم » حفر فرانثسكو كافاللىنى لأسرة بولونيتى مقبرة لابد أنها أثارت حسد الاحياء للأموات .

وأقام مصورون كثيرون الدليل على أن فنهم مازال حيا فى روما .

وقد خطب أهلها ود كارلو ماراتي ، فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، باعتباره زعيم المصورين فى الباروك الحديث . وصورته لكلمنت التاسع (٢١) كانت مذكرة بصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر ، ولكنها انتهت نهاية طيبة ، وصورته « العذراء مع القديسين فى الفردوس » (٢٢) تكرار لعشرات مثلها ، ولكنها صورة جميلة . وحين أراد كلمنت الحادى عشر ترميم لوحات رفائيل الجصية فى الفاتيكان عهد الى ماراتي بهذه العملية الدقيقة الخطرة على المرمم خطرهما على الرسوم ، فاداهما بكفاية . واختار اليسوعيون جوفانى باتيسنا جاواللى (الباتشتشو) ليرسم قبو كنيستهم الأم « الجيزو » ، ولكن كان من بين أبناء طريقتهم راهب من أقدر فنانى عصره ، هو أندريا بوتسو ، الذى التحق بالطريقة وهو فى الثالثة والعشرين ، وصمم فى تلك الكنيسة مذبح القديس اجناتىوس - وهو من روائع الباروك . وفى ١٦٩٢ نشر بوتسو مقالا عن المنظور فى التصوير والعمارة أثار ضجة فى عدة لغات . واستهواه موضوعه كما استهوى أوتشيللو موضوعه قبل قرنين ، فطور دراساته بخطائف « الخداعية » ، كما يرى فى صورته الجصية فى فراسكاتى . ودعاه الأمير فون ليشنتنتشتين الى فيينا ، فافنى نفسه بكثرة المهام التى اضطلع بها ، ومات هناك فى ١٧٠٩ بالغا من العمر سبعة وستين عاما .

كان أعظم المصورين الايطاليين الآن فى نابلى . فكل شيء أينع وازدهر هناك - الموسيقى والفن ، والأدب ، والسياسة ، والدراما ، والجوع ، والقتل ، وشيء آخر لا يكف عنه الرجال الهائجون أبدا ، وهو مطاردتهم لجسد المرأة ومفاته ، المطاردة المرحية ، العنيفة ، المشجية . وتأثر سلفاتور روزا بكل عناصر الحياة هذه . وكان أبوه معماريا ، وعلمه عم له التصوير ، وكان زوج أخته تلميذا لريبيرا ، وقد ئذن لسلفاتور نفسه فى الوقت المناسب بالالتحاق بذلك الرسم الجليل . وعلمه استاذ آخر تقنية مناظر المعارك الحربية . واشتهر سلفاتور على الأخص بهذه الصور التى ترى فى متحف نابلى القومى أو فى اللوفر . ومن المعارك انتقل الى مشاهد الطبيعة ، ولكن هنا أيضا أثرت روحه الموحشية رسم الطبيعة فى سوريات غضبها ، كما يرى فى لوحة باللوفر صور فيها الغيوم الكثيفة والأرض المظلمة يضيئها فجأة برق يحطم الصخور ويصوح الأشجار فى طريقة عين . وأقنعه لانفرانكو بالذهاب الى

روما والتودد للكرادلة ، فذهب وأثرى هناك ، ولكنه هرع قافلا الى نابلى ١٦٤٦ ليشارك فى ثورة مازانييلو . فلما فشلت عاد الى روما ، وصور كبار رجال الكنيسة ، وكتب هجاء ساخرا تهكم فيه بالتurf الكنسي . ثم قبل دعوة الكردينال جانكارلو دى مديتشي ليذهب ويعيش معه فى فلورنسة ، وهناك مكث تسع سنوات . يرسم ، ويعزف الموسيقى ، ويقرض الشعر ، ويشارك فى التمثيليات . وحين عاد الى روما ثانية ، سكن بيتا فى التل البنسي ، حيث عاش بوسان ولوران من قبل . وتقاطر عليه أقطاب الكنيسة ، ليصورهم مغضيين عن هجائياته ، مؤثرين فرشاته على قلمه ، وكان احب الفنانين الى الناس فى ايطاليا طوال عشر سنوات . وقد رسم صور القديسين والاساطير المألوفة ، ولكنه فى محفوراته استسلم لعطفه على الجنود المساكين والفلاحين المعذبين ، وهذه المحفورات من أبدع آثاره .

ولم ينافسه فى شهرته غير رجل آخر من أهل نابلى ، هو لوكا جوردانو . وكان فنانا وهو بعد فى الثامنة ، ثم رسم فى كنيسة سانتا ماريا لانوفا ملاكين بلغا من الجمال والرشاقة مبلغا جعل الحاكم يأخذه العجب حين رآهما ، ويرسل للصبي بعض القطع الذهبية مع توصية لربييرا . وظل يدرس على يد ذلك الاستاذ الغارق فى تأملاته ، ويدهش كل انسان بسرعة نسخه للروائع وتقليده للأساليب . وتاق للذهاب الى روما وفحص رسوم رفائيل الجصية المشهورة ، ولكن أباه عارض فى ذهابه ، لأنه يرتزق من بيع صور لوكا ورسومه . ففر لوكا سرا ، وسرعان ما أخذ ينسخ بحماسة فى الفاتيكان ، وفى كنيسة القديس بطرس ، وفى قصر فارنيزى . وتبعه أبوه ، وحصل على قوته هنا أيضا ببيع صور ابنه العارضة ، ويروى أن السر فى تلقيبه « فا - برستو » هو حث أبيه له على السرعة .

فلما استوعب فن روما مضي الى البندقية ورسم على طريقة تيشان وكوريدجو صورا لا تكاد تختلف عن روائعهما . ولكنه رسم الى ذلك صورا أصيلة ظفرت بالاستحسان ، وفى وسعنا الحكم عليها من لوحته « انزال المسيح عن الصليب » المحفوظة بأكاديمية البندقية . ولما عاد الى نابلى زخرف اثنتى عشرة كنيسة بكفاية وسرعة لم يجد معها منافسوه حيلة الا أن يتسقطوا له الهنات . ثم دعاه كوزيمو الثالث الى فلورنسة

(١٦٧٩) حيث ظفر بالاستحسان لصورة الجصية فى كنيسة كورسينى .

وأصاب صديقه كارلو دولتشي غم شديد حين رأى ما أحرزه لوكا من نجاح ، فمات بعد قليل (٢٣) ، وتروى لنا ايطاليا المحبة لفنانيها من الاساطير الكثيرة عنهم قدر ما ترويه عن قديسيها . وفى رواية أخرى أن نائب الملك الأسباني فى نابلى أوصى برسم حشوة كبيرة لكنيسة القديس فرانسس زافير ، وثار غضبه حين وجد أن شيئاً لم ينجز فى هذا التكليف رغم التأجيلات الطويلة ، وما راعه بعد يومين الا أن يجد العمل كاملاً وجميلاً . وقال نائب الملك « ان راسم هذه الصورة اما ملاك واما شيطان (٢٤) » .

وطبقت شهرة الملاك الشيطاني الآفاق حتى بلغت مدريد ، وسرعان ما تكاثرت الدعوات على لوكا من شارل الثانى لينضم للبلاط الأسباني . ومع أن الملك كان مشرفاً على الافلاس فانه وصل الفنان بألف وخمسمائة دوكانتية ، ووضع سفينة ملكية تحت تصرفه للرحلة . فلما بلغ جوردانو مدريد (١٦٩٢) استقبلته ست مركبات ملكية على الطريق . وما لبث أن بدأ العمل فى الاسكوريال وهو فى السابعة والمستين . فزين بالصور الجصية سلم الدير الكبير ، وعلى قبو الكنيسة رسم « صورة طبق الأصل » من السماوات ، ترينا شارل الخامس وفيليب الثانى فى الفردوس - وقد غفرت ذنوبهما كلها تحية من الثالث الأقدس لآل هابسبورج . وفى السنتين التاليتين رسم عددا كبيرا من الصور الجصية يعدها مؤرخو الفن الاسبان خير ما رسم فى الاسكوريال (٢٥) . وفى « القصر » بمدريد ، وفى بوين ريتيرو ، وفى كنائس طليطلة والعاصمة ، رسم صورا بلغت من الكثرة ، وأنفق فيها من الجهد ، ما جعل منافسيه يعيرونه بأنه يعمل ثمانى ساعات فى اليوم وفى أيام الأعياد . كذلك ساءهم أنه جمع ثروة بطرق غير لائقة ، وأنه يضيق على نفسه ولكنه يشتري الجواهر الغالية استثماراً آمناً لماله لأن كل شيء فى هذه الدنيا سيتغير ويتبدل الا غرور الانسان . وقد كرمه كل البلاط ، ووسفه شارل الثانى فى لحظة صفاء بأنه أعظم من ملك .

ومات شارل فى ١٧٠٠ ، ومكث جوردانو فى اسبانيا رغم ما تلا

ذلك من حرب الوراثة الاسبانية ، ولما ارتقى العرش فيليب الخامس ظل يتلقى تكاليفات سخية عسيرة . ثم عاد الى ايطاليا فى ١٧٠٢ ، وتخلف فى روما ليلى ثم قدم البابا ، ووصل الى نابلى والغار يكله . وعلى أسقف التشرتوزا (دير الكرتوزيين) بسان مارينو ، المطل على المدينة ، رسم فى ثمان وأربعين ساعة سلسلة من الصور الجصية أظهرت نشاطا وحذقا لا يكادان يصدقان فى رجل بلغ الثانية والسبعين (١٧٠٤) . وفاضت روحه بعد ذلك بعام وهو يقول متأوها « ايه يا نابلى ، يا نسمة حياتى (٢٦) » .

ولم يعد له شهرة عند وفاته فنان آخر فى جيله . ونافس الأعيان الهولنديون الأباطرة والملوك فى شراء صوره ، وفى انجلترا النائية تغنى مافيو برايبور بمديح « جوردان الالهى » وأعجب عامة الناس بغنى ألوانه ، وبأس شخصه ، وجلال أفكاره ، وقوة عرضه . ولكن الفنانين - بعد أن أفاقوا من هذا الخدر العام - بينوا علامات التعجل فى انتاج لوكا فا - برستو ، والخلط المتناقض بين الافكار أو المواضيع الوثنية والمسيحية فى المشهد الواحد ، والمواقف المفتعلة ، والافراط فى الاضاءة الساطعة ، والافتقار الى التناسق والهدوء . ولقد رد لوكا على ناقديه قبل ذلك بزمان طويل ، اذ عرف المصور القدير بأنه ذلك الذى يحبه جمهور الشعب (٢٧) . ومن العسير تفنيد هذا التعريف ما دما نفتقر الى معيار موضوعى للامتياز أو سلامة الذوق ، ولكننا قد نجد أدنى محك ذاتى للعظمة فى مبلغ تأثير انسان ما فى الزمان والمكان ، وأدنى مقياس ذاتى للشهرة فى قدرتها على البقاء . ولقد سعد جوردانو بحياة ناجحة ، وهو لا يشعر بأى أذى من جراء شهرته الآفلة .

وكان الفنان فرانشسكو سولينا يناهز الثامنة والاربعين حين مات فا - برستو ، ولكن سنى عمره التسعين بلغت بهدرسة الفن النابولية قرابة منتصف القرن الثامن عشر . وكان لوكا قد رسم صحن دير مونتي كاسينو ، ورسم فرانشسكو الخورس ، وتهدم هذا وذاك فى الحرب العالمية الثانية . ولكن المتاحف تحتفظ بفن سولينا ، وفى فيينا « اغتصاب أوريتيا » وهى نشوة بضة من عضلات الذكر ومنعطفات الانثى ، وفى اللوفر نرى صدى وتحديا لرفائيل فى لوحته « هليودوروس يطرد من الهيكل » ، وفى كريمونا صورة « مادونا

أندولورانا » وبصحب العذراء فيها ملاك فيه من العذوبة ما يجعلنا نتقبل فكرة الخلود اذا كان فى الجنة الكثير من أمثاله .

٣ - أوديسة كرسطينا

كانت الفنون الآن مجرد جزء صغير من حياة روما الثقافية . ففيها أيضا مئات من الموسيقيين ، والشعراء ، والمسرحيين ، والعلماء ، ومؤرخين . وقد يسرت المتاحف والمكتبات والكليات كنوز الماضي للطلاب ، وشجعت الأكاديميات الأدب والعلم . وكانت أوهام مارينى الموشاة مازالت عدوها تسرى فى الشعر الايطالى ، ولكن لدغ هجائيات تاسونى ، وحرارة نزعة مارينى الحسية ، وتدفق مقاطع تاسو الفوار ، كل أولئك كان قد أعطى الشعر الانطالى حافزا والهاما مازالت تحس بهما النفوس المترنمة بالشعر .

أما أعظم الشعراء الغنائيين فى العصور الحديثة (٢٨) ، اذا صدقنا ماكولى ، فهو فنتشنزو دافيليكيا . وقد شدا هذا الشاعر بتخليص سوبيسكى لفينا فى قصائد غنائية شاكرة ، ورحب بمجىء كرسطينا الى روما فى نملق نشوان ، ووصف فى خرى ساخط اخضاع وطنه للجيش الدخيلة ، يقول :

« ايطاليا ، ايه يا ايطاليا ، يا من كتب عليك أن تلبسي تاج الجمال المهلك ، فأصبح سجل الويل والثبور موسوما على جبينك الى الأبد ! ليت ميراثك كان جمالا أقل وبأسا أشد ! حتى يجردك أولئك الذين يستخفهم الطرب لأن حقدهم أذلك ، أكثر ارهابا أو أقل جمالا (٢٩) » .

على أن هنرى هالام ، الذى طوف لغويا خبيرا بكل الآداب الأوروبية ، ذهب الى أن كارلو أليساندرو جيدى ، لا فيليكيا ، هو الذى « ارتفع الى أسنى ذروة بلغها أى شاعر غنائى ايطالى » و .. « قصيدته الغنائية فى الحظ على الأقل تعدل أى قصيدة غنائية أخرى فى الايطالية (٣٠) » . ولا يستطيع أحد لم يتمكن بعد من الايطالية أن يحسم هذا الخلاف بين ماكولى وهالام ولا بين جيدى وبترارك ، ولا بين فيليكيا وببيرون أو شلى أو كيتس .

كان جيدي واحدا من شعراء عدة صدحوا بقوافيهم فى صالون كرسينا بروما . وكانت ملكة السويد هذه قد طبقت شهرتها الآفاق لا ملكة على دولة عظمى فحسب ، بل راعية ونموذجا للعلم ، والمضيعة الحفية بسالماسيوس وديكارت . وكان تخليها عن التاج فى سبيل المذهب ، وتحولها عن البروتستنتية التى مات أبوها من قبل لينقذها ، ورحلتها الطويلة مارة بقصور ملوك أوربا وأمرائها لتلثم قدمى البابا - كانت هذه كلها أحداثا لا تقل عن الحروب والثورات استهواء للذهن الأوربى .

كانت فى ربيعها الثامن والعشرين يوم غادرت السويد (١٦٥٤) . وأعطاهما ابن عمها شارل العاشر ، الذى اختارته ليتبوا عرشها ، خمسين ألف كراون تجمل بها رحلتها ، وقرر لها الديت السويدي دخلا كبيرا ، وحقوق ملكة على حاشيتها . فوصلت هامبورج بعد رحلة سريعة فى الدنمرك ، وهناك صدمت مشاعر الأهالى بنزولها ببيت مالى يهودى كان قد أخلص لها الخدمة وهو يعمل وكىلا ماليا لها . وأجتازت هولندة البروتستنتية متنكرة ، ولكنها اتخذت زيها السافر فى أنتورب . الكاثوليكية . وهناك استقبلها استقبالا ملكيا الارشيدوق ليوبولد ، واليزابث ملكة بوهيميا السابقة (وهى ملكة مخلوعة أخرى) ، وابنتها الأميرة اليزابث (وهى تلميذة أخرى لديكارت) . ثم واصلت رحلتها الى بروكسل ، حيث استقبلت بالألعاب النارية ، والصواريخ ، وطلقات المدافع ، والجموع الهائفة المصفقة . وأسلمت نفسها حينما فى اغتباط للمراقص ومباريات الفروسية ورحلات الصيد والتمثيلات ، وأوفد مازاران فرقة تمثيلية من باريس للترفية عنها ، وفى عشية عيد الميلاد أرتدت سرا عن المذهب اللوثرى ، وأعلنت عزمها على ألا تستمع الى مزيد من المواعظ (٣١) » ، ثم أطالت مكثها فى فلاندر ريثما تعد الكوريا البابوية بروما العدة لاستقبالها رسميا فى الكنيسة وإيطاليا . وبعد أن غادرت بروكسل اخترقت النمسا فى رحلة وثيدة . وفى أنزبروك جهزت رسميا باعترافها المذهب الكاثولىكى . وكانت رحلتها فى إيطاليا قاصدة روما أشبه برحلات القياصرة الظافرين عظمة وجلالا . فتزينت المدينة تلو المدينة لتحييها ، ونظمت المهرجانات والعروض تكريما لها فى مانتوا ، وبولونيا ، وفانيزا ، وريميني ، وبيزارو ،

وأنكونا ، وأخيرا- (١٩ ديسمبر ١٦٥٥) دخلت روما وسط مهرجان من الأضواء هزا بتنكرها . وفى الغد مضت الى الفاتيكان حيث رحب بها البابا اسكندر السابع . وبعد أن مكثت بروما ثلاثة أيام غادرتها مصحوبة بحرس الشرف لتدخلها ثانية ذلك الدخول الرسمى الذى رتبته لها كبار رجال الكنيسة ، فمرت بقوس نصر ، وبالبورتا ديلبويولو (باب الشعب) ، الى المدينة ممتطية صهوة جواد أبيض يخطر على مهل ، بين صفوف الجند وحشود الاهالى وكأنما شعرت الكنيسة القديمة أن حركة الاصلاح البروتستنتى بأسرها قد أطاح بها ارتداد امرأة واحدة عن البروتستنتية .

فلما اكتمل هذا كله ، سمح لكرستينا بأن تتصرف فى وقتها كما تشاء ، تستقبل الأساقفة ، والحكام ، والعلماء ، وتزور المتاحف ، والمكتبات ، والاكاديميات ، والأطلال ، وتدهش مرشديها بمعلوماتها فى تاريخ ايطاليا وآدابها وفنونها . وأغرقته كبار الأسر بالولائم والهدايا والتحيات ، ووقع الكردينال كولونا فى غرامها وهو فى الخمسين ، وعزف لها ألحان حبه ، ولم يكن بد من نفيه انقادا لكرامة الكنيسة . وما لبثت أن وجدت نفسها وقد تورطت فى منافسات الحزبين الفرنسى والاسبانى فى البلاط البابوى . وقطعت السويد دخلها المقرر لها حين وجدت مشقة فى تمويل حربها مع بولننده ، فرهنت مجوهراتها ، وتلقت قرضا من البابا .

وفى يوليو ١٦٥٦ خرجت فى زيارة لفرنسا . وهناك أيضا لقيت ما تلقى الملكات من تكريم . ودخلت باريس على جواد أبيض مطهم ، وخرج ألف فارس لاستقبالها ، وهتفت لها الجموع ، وكاد كبار الموظفين يخنقونها بازهارهم الخطابية ، ووصفها دوق جيز ذلك العهد ، الذى أوفده مازاران لمراققتها ، بهذه العبارات :

« ليست طويلة ، ولكن لها خصرًا ممتلئًا وشفتين كبيرتين » وذراعين حلوتين ، ويدها بضعة حسنة التكوين ، ولكنها أقرب الى يد الرجل منها الى يد المرأة ... ووجهها كبير دون أن ينتقص ذلك من مظهره ... وأنفها معقوف . وفمها كبير نوعا ولكنه ليس منفرا ... وعيناها بديعتان تشعان نارا ... وعلى رأسها غطاء عجيب جدا ...

باروكة رجل ، كثة عالية ... ترتدى جذاء رجل ، ولها نبرات صوت الرجل وكل تصرفات الرجل تقريبا ، - تتظاهر بلعب دور المرأة المسترجلة (الأمازونة) .. وهى غاية فى التأدب والمجاملة ، وتتكلم ثمانى لغات ، لا سيما الفرنسية - وكأنها ولدت فى باريس ، انها تعرف أكثر مما تعرف أكاديميتنا ، مضافا اليها الصوريون ، وتفهم التصوير فهما جديرا بالاعجاب ، وكذلك تفهم كل ما عداه . انها لشخصية غاية فى الغرابة (٣٢) » .

وانزلت جناح الملك فى اللوفر . ثم صاحبها دوق جيز بعد ذلك الى كومبيين ، حيث استقبلها لويس الرابع عشر ، وكان يومها فتى وسيما فى الثامنة عشرة . والتفت سيدات القصر حولها كالفراشات ، ولكن أربكهن استرجالها فى اللباس والحديث . وذهبت مدام دموتفيل الى انها « تبدو لأول وهلة وكأنها إحدى العجريات سيئات السيرة » ولكن « بعد ذلك ... بدأت آلف لباسها .. ولاحظت أن عينيها جميلتان متالفتان ، وأن فى وجهها رقة ، ولطفا يمتزج بالكبرياء . وأخيرا أدركت فى دهشة أنها أرضتني (٣٣) » . على انه يمكن القول عموما أن النساء اللاتي وشين ما فى المجتمع الفرنسى من عادات وأزياء وبهجة وكياسة ورشاقة ، هؤلاء ساءهن اهمال كرسيتينا لملبسها ، و « افراطها فى الضحك ، وتحررها فى حديثها سواء عن الدين أو عن المواضيع التى تتطلب أصول اللياقة عند النساء مزيدا من التحفظ فيها .. وقد جهرت بأنها تحتقر جميع النساء لجهلهن ، ووجدت لذة فى التحدث الى الرجال سواء فى المواضيع الطبية أو الخبيثة . وضربت بالقواعد كلها عرض الحائط (٣٤) » . ويرى فولتير أن نساء المجتمع الفرنسى قسور فى الحكم على هذه الملكة المتمردة لأنها لم تسر على الجادة . قال « لم يكن فى البلاط الفرنسى امرأة واحدة وهبت ذكاءها (٣٥) » . أما كرسيتينا فقد حكمت على سيدات البلاط بأنهن شدييدات التكلف ، وعلى الرجال بأنهم شديدون التخنث ، وعلى الفريقين بالافتقار الى الاخلاص . وفى سنليس ، فى طريقها عائدة من كومبيين الى باريس ، طلبت أن ترى « آنسة تدعى نينون (دلانكلو) ، مشهورة بالرديلة ، والتهتك ، والجمال ، والذكاء . ولم تبد أى علامة من علامات الاحترام الا لهذه المرأة وحدها ، دون سائر النساء اللاتي رأتهن فى فرنسا (٣٦) » . وقد

وجدت نينون جبيسة مؤقتا فى دير للراهبات . وتحدثت اليها كرسيتينا فى مرج ، وأقرتها على امتناعها عن الزواج (٣٧) . ثم عادت الى ايطاليا بعد أن زارت مؤسسات فرنسا الثقافية وأهم آثارها الفنية (نوفمبر ١٦٥٦) .

وفى سبتمبر ١٦٥٧ زارت فرنسا ثانية . ولم تستقبل ذلك الانقبال الرسمى السابق ، ولكنها أنزلت فونتنبلو بما يقرب من الحفاوة بالملوك . وهناك روعت فرنسا بما خالته استعمالا مشروعا لحقوقها الملكية على حاشيتها . وتفصيل ذلك أن ياورها الركيز مونالديسكى اشترك فى مؤامرة ضدها كشفتها باعتراض رسائله . وزاد الموقف سوءا باتهامه رجلا آخر من حاشيتها بالتآمر عليها . فواجهته برسائله التى تثبت التهمة عليه ، وأمرت قسيسا أن يسمع اعترافه ويمنحه غفران الكنيسة ، ثم أصدرت الامر لحراسها فأعدموا الركيز . وصعقت فرنسا ، وحتى أولئك الذين اعترفوا بما منحها الديت السويدى من حقوق على اتباعها صدمهم هذا الاستعمال الفجائى التعسفى لسلطتها فى مسكن يملكه ملك فرنسا . وسمح لكرستينا بأن تنفق الشتاء فى باريس ، وتستمتع بالتمثيليات وحفلات الرقص ، ولكن البلاط تنفس الصعداء حين رحلت الى ايطاليا (مايو ١٦٥٨) .

وقد سبب لها قطع الدخل الذى يأتيها من السويد من الحرح الشديد ما جعلها فيما روى تطلب الى الامبراطور ليوبولد الاول جيشا تقوده بنفسها ضد شارل العاشر ، ولكن ثناها عن هذه المغامرة العسكرية معاش سنوى من اثنى عشر ألف سكودى قرره لها البابا الاسكندر السابع . وقد زارت السويد مرتين (١٦٦٠ ، ١٦٦٧) لتستعيد دخلها ، وربما تاجها . ورد اليها دخلها ، ولكنها لم تلق ترحيبا فى استكهولم ، واتهمها رجال الدين اللوثرىون بأنها تتآمر لتحويل الأمة الى الكاثوليكية ، ومنعت من الاستماع الى القداس فى مسكنها . وكانت بعد كل زيارة من هاتين الزيارتين تعتكف فى هامبورج . ومنها أرسلت مندوبين الى وارسو فى ١٦٦٨ . ليعرضوا ترشيحها نفسها لعرش بولنده الذى خلا باعتزال يوحنا كازيمير . وعزز البابا كلمنت السابع مطلبها ، ولكن الديت البولندى رفضها لأسباب كثيرة ، منها رفضها أن تتزوج . وقد قالت ان امبراطورية العالم بأسرها لن تحملها على الرضا

بالزواج (٣٨) . ثم عادت الى ايطاليا فى ١٦٦٨ ، ومكثت بها حتى ماتت .

وكانت تلك السنوات العشرون الأخيرة أجمل سنى عمرها . وأصبح جناحها فى قصر كورسينى أهم الصالونات فى روما ، وملتقى الاساقفة ، والعلماء ، والملحنين ، والنבלاء ، والدبلوماسيين الأجانب . هناك رحبت باليساندرو سكارلاتى ، وتلفت من أركانجلو كوريللى اهداء أول سوناتاته المنشورة . وزينت حجراتها بالصور والتماثيل وغيرها من التحف المنتقاة بذوق كان مثار اعجاب الخبراء ، أما المخطوطات التى جمعتها فقد عدت فيما بعد من خيرة ما ضمنته مكتبة الفاتيكان من مخطوطات . وكانت تثبط الاسلوب المتكلف الذى نما فى الشعر الايطالى ، وأثرت على جيدي ليتزعم حركة تعود الى نقاء اللغة ، واستقامة التعبير ، اللذين سادا فى أيام أسرة مديتشي . وكانت مذكراتها مثالا للكلام البسيط القوى ، و « أقوالها الماثورة » . آراء جادة سديدة لامرأة خبيرة بالدنيا ، لم تسمح لتقواها بأن تفسد استمتاعها بالحياة . ولم تكن متعصبة ، فقد أدانت عنف الكاثوليك الفرنسيين فى تنفيذ قانون فسخ مرسوم نانت ، وكتبت تقول « انى أنظر الى فرنسا نظرتى الى مريضة بتر ذراعها وساقها علاجاً لمرض كانت تشفى منه تماماً بممارسة اللطف والصبر (٣٩) » . وذهب بيل الى أن هذه العواطف بقية متخلفة من نربيتها البروتستنتية ، فويخته على هذا التفسير ، فكتب اليها معتذراً ، فغفرت له شريطة أن يوافيها بكتب جديدة أو غريبة (٤٠) .

وماتت عام ١٦٨٩ بالغة الثالثة والتستين ، ودفنت فى كنيسة القديس بطرس . وبعد موتها بثلاث سنوات أسس جوفانى ماريا كريسمبيني تخليداً لذاكرها « الاكاديمية الاركادية » وأكثر أعضائها الاوائل ممن اجتمعوا تحت جناحها . وواصلوا الصلة القديمة بين الشعر والرعية ، وسموا أنفسهم رعاة ، واتخذوا أسماء ريفية ، وعقدوا اجتماعاتهم فى الحقول . وأنشأوا فروعاً فى مدن ايطاليا الرئيسية ، ومع احتفاظهم بالحيل البارة فى بنیان قصائدهم ، فإنهم أنهوا تسلط الاوهام على الشعر الايطالى .

٤ - من مونتيفردى الى سكارلاتى

كانت الموسيقى فى ذلك المجتمع المرح ، مجتمع ايطاليا القرن السابع عشر ، نغمة الحياة ونسيمها . لقد خاض هذا الشعب المشبوب العاطفة الحروب فى الاوبرات ، وحارب معارك الحب فى أغانيه الشعرية ، بعد أن ألزمته أسبانيا والبابوية السلام رغم ارادته .

واتخذت الآلات الموسيقية عشرات الأشكال . وأصبح الأرغن الآن منافخا مزيئا له لوحتا مفاتيح لليدين ولوحة للقدمين ، بالإضافة الى أنابيب متنوعة ، وكان هناك بالطبع أراغن متنقلة للشارع . وفى تاريخ مبكر (١٥٩٨) نسمع بالة أخرى لها لوحات مفاتيح سميت « البيانو أى فورتى » (أى الخافت والقوى) ورد ذكرها فى قائمة الآلات التى يملكها ويعزف عليها الدوق الفونسو الثانى فى مودينا ، ولكننا مازلنا نجهل الفرق بينها وبين « البيان القيثارى » بنوعيه *elavicembalo* (الهاريسيكورد) و *spinetta* . وينقضى قرن قبل أن نسمع بالبيانو فورت ثانية . وفى ١٧٠٩ عرض بارتولوميو كريستوفورى آلة موسيقية سماها *gravicemblo col pianoe forte* ، وكان صانع الآلات الموسيقية لأمير عاشق للموسيقى يدعى فرديناند دى مديتشي بفلورنسة . وكانت هذه الآلة تختلف اختلافا هاما وان كان طفيفا عن الهاريسيكورد . فالنغمة تصدرها مطرقة صغيرة ترتفع لتقرع وترا ، وفى الامكان خفض الصوت أو رفعه بتنويع لمس الأصابع للمفتاح - بينما النغمات فى الآلات السابقة ذات لوحات المفاتيح تنبعث بواسطة ريشة (من ريش الطير أو الجلد القاسي) ترتفع لتتقرع الوتر ، ولا يمكن أحداث تنويع فى قوة الصوت X . وحل البيانوفورت بالتدريج محل الهاريسيكورد فى القرن الثامن عشر ، لا لأنه يستطيع أن يعزف الأصوات « الخافته والعالية » فحسب ، بل لأن مطارقه كانت تبلى بسرعة أقل مما يبلى ريش الطير .

أما الكمان فقد تطور من القيثارة (الليرة lyre) فى القرن

X فى متحف المتروبولتان للفنون بنيويورك أحد بيانات كريستوفورى الذى يرجع تأويجه الى ١٧٢٠ .

السادس عشر ، لاسيما فى بريشا X . فجلب أندريا أماتى فن صنع الكمان الى كريمونا ، وهناك تفوق حفيده نيكولو على جميع منافسيه فى هذه الحرفة ، الى أن تفوق عليه هو ذاته تلميذاه أندريا جارنيرى وأنطونيو ستراديفاي . وآل جارنيرى مثال آخر من الأسر التى جرى فيها النبوغ فى نفس الحرفة ، فهناك أندريا وولداه بييترو « دى مانتوا » وجوزيبى الأول ، وحفيده بييترو الثانى « دى فينيتسيا » وحفيد أخيه جوزيه الثانى « ديل جيزو » - الذى جعل باجانينى يؤثر الكمان على سائر الآلات الموسيقية . وأقدم كمان يحمل توقيع ستراديفاي يرجع تاريخه الى ١٦٦٦ ، حين كان فى الثانية والعشرين ، وقد كتب عليه « أنطونيوس ستراديفاريوس ألومنوس نيكول أماتى فاتشيبات آنو ١٦٦٦ » ولى هذا شعاره الشخصى - وهو صليب مالطى والحرفان الأولان من اسمه ، أ . س ، داخل دائرة مزدوجة . وكان يوقع فيما بعد ببساطة يشوبها الفخر « ستراديفاريوس » . وقد ألف العمل دون انقطاع ، والقصد فى الطعام ، وعاش ثلاثة وتسعين عاما ، وجمع من الثروة بفضل ما تميزت به آلاته من روعة الجمال والبناء والنغم والصفل ما أصبحت معه عبارة « غنى مثل ستراديفاي » مرادفا كريمونيا للثراء العريض . والمعروف أنه صنع ١١٦١ كمانا ، وفيولا ، وفيولنسلو ، وبقيت منها على قيد الحياة ٥٤٠ كمانا ، بيع بعضها بعشرة آلاف دولار (٤١) . وقد ضاع سر الطلاء الذى كان يصقل به آلاته .

وشجع هذا التحسن فى الآلات تطور الاوركسترا ، وتأليف الموسيقى الآلاتية وأداءها . واكتشف المؤلفون والعازفون فى الكمان مرونة فى الحركة وتنوعا فى النغم يستحيلان على الصوت البشرى ، اذ كان فى استطاعتهم أن يصعدوا ويهبطوا على السلم الموسيقى بيسر يفوق الوصف فعلا ، وأن يبنوا التنويعات ويتلاعبوا بها ، وأن يهربوا من روتين اللحن ويقتحموا الجديد من الايقاعات ، والتطويرات ، والتجارب . وأمكن بعد الجمع بين الآلات الكثيرة تحرير التأليف من الرقص ومن الأغنية على السواء ، واستطاع التأليف أن يحلق على

X زعم فلوتزيميرز كامينسكى فى ١٩٦١ أنه وجد أوصافا للكمان فى مخطوطات بولندية ترجع للقرن الرابع عشر - لوس انجيليس تايمز ، ١١ أغسطس ١٩٦١ -

جناحيه هو فى الجديد من المتتاليات ، والتجميعات ، والأشكال . وكان تومازو فيتالى سباقا بسوناتات الكمان التى لم يعرف لها مثل من قبل فى عنى الابتكار ، والتى أعانت على ارساء تعاقب الحركات السريعة والبطيئة والنيطة . أما أركانجيلو كوريللى ، فقد مهد الطريق بوصفه مؤلفا وعازفا ماهرا ، للموسيقى الحجرية التى شاعت فى القرن الثامن عشر بسوناتاته التى وضعها للكمان ، وكان له هو وفيتالى فى ايطاليا ، وكوناو وهينريش فون بيير فى المانيا ، الفضل فى اعطاء السوناتا بناء وسكلا باعتبارها قطعة « تعزف » بالآلات فقط ، مقابل « الكانتاتات » التى هى مؤلفات تغنى بالصوت . وكوريللى هو الذى قرر شكل « الكونشرتو جروسو » - كمانان وفيولنتشيللو واحدة تقود أوركسترا وتريا - بالحن بسيطة مشجيه مثل « كونشرتو عيد الميلاد » (١٧١٢) ، ففتح بذلك طريقا لكونشرتو فيفالدى وهندل ومتتابعات باخ الأوركسترنه وفد احتفظت ألحان كوريللى بشعبيتها فى القرن الثامن عشر فترة طالت حتى لقد خيل لبيرنى وهو يكتب حوالى عام ١٧٨٠ أن شهرتها ستبقى « ما بقى النظام الحالى للموسيقى مبعث بهجة لأذان البشر (١٤٢) »

وكما أصبح كوريللى المؤلف المفضل للكمان ، فكذلك هيمن أليساندرو شتراديللا على موسيقى هذا العصر الصوتية ، بالأصوات الفردية ، والثنائية ، والثلاثية ، والأوراتوريوات . وكانت حياته ذاتها دراما فى الموسيقى ، وقد حولت الى تمثيلية وأوبرا . ذلك أنه أحرز فى عمله مدرسا للغناء بالبندقية نجاحا محزنا . فقد فرت معه لروما احدى تلميذاته الأرستقراطيات ، واسمها أورتنسيا ، مع أنها كانت مخطوبة لعضو الشيوخ البندقى ألفيزى كونتارينى . وأرسل عضو الشيوخ فتاكا ليقتلوه . ولكن حين سمعه هؤلاء القتل المرهفو الحس يرتل الدور الرئيسى فى لحنه « أوراتوريو دى سان جوفانى باتيستا » فى كنيسة سان جوفانى باللاتيرانو ، تأثروا بالموسيقى (كما تقول القصة) تأثرا جعلهم يقلعون عن القيام بما كلفوا به ، ويحذرونه هو ورفيقته ليلتمسا مخبا آمنا . وفر العشيقان الى تورينو ، ولكن سرعان ما أشتهر أليساندرو هناك بمؤلفاته وصوته شهرة هددته بالخطر . وأرسل كونتارينى فاتكين لا يهويان الموسيقى ليقتلاه ، فهاجماه ، وتركاه وهما ٨ - قصة الحضارة

بحسبانه قد مات . ولكنه أفاق ، وتزوج أورتنسيا ، ورحل معها الى جنوه . وهناك عثر عليهما ماجورو عضو الشيوخ ، قطعناهما طعنات أودت بحياتهما (١٦٨٢) (٤٣) . وظل الأوراتوريو الذى قيل انه أنقذ حياته محتفظا بشعبيته قرنا كاملا ، وقد مهد السبيل أمام هندل .

وغدت الأوبرا الآن هوسا فى ايطاليا . فالبنديقية وحدها كان بها ست عشرة دارا للأوبرا فى ١٦٩٩ ، وقد استمعت الى قرابة مائة أوبرا مختلفة بين عامى ١٦٦٢ و ١٦٨٠ (٤٤) . كذلك أقبلت نابلى على هذه الفرجة المشجعة بما يقرب من هذا التهافت . أما فى روما فقد أصبحت الأوبرا رمزا على حركة علمنة الموسيقى السائرة قدما ، وقد ألف كلمنت التاسع نفسه بعض الفكاهيات الموسيقية قبل أن يرتقى عرش البابوية (٤٥) . وكان هناك أضحلال مؤقت فى جودة الأوبرا الايطالية بعد مونترفردى فقددت الحبكات بعض وقارها ودلالتها ، وازدادت سخفا وعنفا . وطور فرانشسكو كافاللى ، أحد تلاميذ مونترفردى ، اللحن المنفرد باعتباره أحلى جزء من العرض ، وسرعان ما طالبت الجماهير بسلسلة من الالحان الدرامية ، وكانت تحتل فترات الاستراحة بصبر نافذ . وقام الخصيان من الغلمان أو الرجال بكثير من أدوار السوبرانو أو الكونترواتو ، ولكن البريمادونات بدأن الآن ينافسن الملكات . ووجه ملتن أغنيات لاتينية الى ليونورا بارونى ، وخرجت نابلى على بكرة أبيها لترحب بأم ليونورا ، أدريانا بازيلى ، أعظم المغنيات السوبرانو اثارة للأحاسيس فى زمانها - ولعل أجهزة المسرح الآلية بلغت فى هذا العصر الغاية التى ما بعدها غاية . يقول مولنتى أن مسرح سان كاسيانو ، فى بنديقية القرن السابع عشر ، كان يستطيع عند الطلب أن يعرض قصرا ملكيا ، وغابة ، ومحيطا ، وجبل أوليمب ، والجنة ، ومرة علقت قاعة رقص كاملة الاضاءة ، بكل أثاثها وراقصيه ، فوق المسرح الثابت ، وكانت تخفض لتستقر عليه أو ترفع لتوارى عن الأنظار حسب مقتضيات القصة (٤٦) . وحاول ماركانطونيو تشستى أن ينقذ الأوبرا من الاغنية ، فاعطى مزيدا من الاتساع والبروز للاستهلل ، ومن المنطق والرصانة للرواية ، ثم نوع الغناء بالريستاتيف . وكان تشستى وكوريللى كلاهما مبعوثين موسيقيين ، حملا الأوبرا الايطالية الواحد الى باريس على عهد لويس الرابع عشر ، والآخر الى فيينا على عهد ليوبولد الأول . وهكذا كانت

أوروبا شمال جبال الألب ، فى فن الأوبرا ، مستعمرة ايطالية (٤٧) .

وكان أبرز ملحنى الأوبرا الآن اليساندرو سكارلاتى . ولقد طغت شهره ابنه دومنيكو اليوم على شهرته ، ولكن اسم « سكارلاتى » كان الى عهد قريب يعنى اليساندرو ، وكان دومنيكو أشبه بتوقيع متعاقب سريع على وتر اسم مشهور . وقد وفد اليساندرو على روما وهو فى الثالثة عشرة ، ودرس حيناً على كاريسىمى ، ولحن للكانتاتات ، وحفز همته فن ستراديللا وسيرته ، وفى العشرين أخرج أولى أوبراته المعروفة *L'errore innocente* (العلطة البريئة) وقد أعجبت الأوبرا كرسطينا ملكة السويد ، فنسخت جناحها على اليساندرو ، وأخرجت أوبراته التالية على مسرحها الخاص . وفى ١٦٨٤ قبل وظيفة « المايسترو دى كابلا » لنائب الملك الاسبانى فى نابلى ، وظل يشغلها ثمانية عشر عاماً ، يخرج الأوبرات فى تتابع سريع حتى بلغت عند وفاته على الأقل ١١٤ ، لا يعيش منها اليوم سوى نصفها ، ولعل سوليمينا رسم فى هذه الفترة اللوحة المتأخرة التى ترى فى كونسرفتوريو نابلى الموسيقى - وجه نحيل ، يفيض حساسية ، وتركيزاً ، وعزيمة -

وجاءت حرب الوراثة الاسبانية فكدرت صفاء نابلى ، وتأخر صرف راتب سكارلاتى كثيراً حتى اضطر للرحيل الى فلورنسة مع زوجته وأسرتة ، ولحن وأخرج الأوبرات تحت رعاية الأمير فرديناند . وبعد عام انتقل الى روما رئيساً لفرقة مرتلى الكنيسة للكردينال ببييترو أوتوبونى ، وكان كنسياً مرحاً مثقفاً ، خلف كرسطينا قطباً وراعياً للفنون فى روما ، ووزع طاقاته الدنيوية على الفن والأدب والموسيقى والخيالات (٤٨) . وفى ١٧٠٧ ذهب اليساندرو الى البندقية حيث أخرج رائعته *Mitridate Eupatore* وهى أوبرا تتميز بخلوها تماماً من تشويق الحب . فى ذلك العام دانت نابلى للحكم النمساوى ، فدعا نائب الملك سكارلاتى ليعود الى سابق وظيفته ، فوافق ، وأنفق هناك العقد الأخير من حياته ، حين بلغ أوج شهرته .

وقد قررت أوبراته أسلوباً دام نصف قرن . جعل الاستهلال مؤلفاً هاماً لا يرتبط بالأوبرا ، وقسمه الى ثلاث حركات ظلت قياسية حتى

مجيء موتسارت : الليليجرو ، والأداجيو ، والليليجرو . أما اللحن (الأربا) فأعطاه سيطرته النموذجية فى القرن الثامن عشر وشكله الاعادى da capo ، الذى يعيد فيه القسم الثالث الأول ، ونفث فيه الحرارة العاطفة ، والحنان ، والتلوين الرومانسي ، وجعله أداة لابداعات المغنين فى العزف والارتجال ، ولكن تكراره قطع الوجدان والحركة قطعا مفتعلا . وقد قاوم حينما طلب الجماهير للألحان العاطفية ، وأخيرا أذعن ، وظلت دراما الموسيقى خمسين عاما تحظى بالانتصار دون أن تنتج أثارا قادرة على مغالية تقلبات الذوق . واضمحلت الأوبرا حتى أيقظها جلوك لحياة وشكل جديدين ، فى فبينا (١٧٦٢) . وباريس ، بجمال أوبرا Orfeo ed Euridice المقيم .

٥ - البرتغال : ١٦٤٠ - ١٧٠٠

حين توج دوق براجانزا ملكا باسم يوحنا الرابع (١٦٤٠) بدأت البرتغال حربا امتدت ثمانية وعشرين عاما لتدافع عن استقلالها الذى استردته من أسبانيا . وفدمت لها فرنسا يد المعونة حتى ١٦٥٩ ، حين وافق مازاران فى صلح البرانس على أن يكف عن مساعدة البرتغال . وانجه الفونسو السادس الى انجلترا طالباً العون . وأوفدت كاترين أميرة براجانزا الى لندن عروسا لتشارلز الثانى (١٦٦٣) ، حاملة معها صداقا هو بومباي ، وطنحه ، و ٥٠٠.٠٠٠ جنيه . وأرسلت انجلترا الجند والسلاح مقابل ذلك . وبهذه المعونة وغيرها ، وبجهود البرتغاليين وقيادتهم وحسن نظامهم قبل كل شيء ، راحوا يردون جيوش أسبانيا على أعقابها الواحد تلو الآخر ، حتى اعترفت أسبانيا رسميا بمقتضى معاهدة لشبونة (١٦٦٨) باستقلال البرتغال .

وعزز بيدرو الثانى العلاقات مع انجلترا بمعاهدة ميثوين (١٧٠٣) . فوافقت كل من الامتين على أن تمنح الأخرى تعريفات تفضيلية ، وعلى أن تستورد البرتغال السلع المصنوعة من انجلترا . وتستورد النبيذ والفاكهة من البرتغال . وهكذا شريت انجلترا القرن الثامن عشر نبيذ البورت من أوبورتو ، بدلا من الكلاريت « الصافى clear » من بوردو . وقد وفر هذا التحالف الاقتصادى للبرتغال ... اتما الباقية حماية دائمة من أسبانيا وفرنسا .

وفى ١٦٩٣ كشفت مناجم ذهب ميناىس جيرايى فى البرازيل ، وسرعان ما غلت لبيدرو الثانى من سبائك الذهب ما أتاح له أن يحكم بعد ١٦٩٧ دون حاجة لدعوة الكورنيز (المجلس التشريعى) للموافقة على منحه المال ، وأن يحتفظ فى لشبونه ببلاط من أفخم البلاطات فى أوربا . على أن الذهب الأمريكى نمخض فى البرتغال عن نفس النتائج التى تمخض عنها فى أسبانيا : فقد استعمل لشرء السلع المصنوعة من الخارج بدلا من تمويل المشاريع الصناعية فى الداخل ، وظل الاقتصاد الوطنى اقتصادا زراعيا كسولا ، وحنى الكروم المحيطة بأوبورتو وفعت فى قبضة الانجليز الذين اشتروها بالذهب البرتغالى الذى حصلوا عليه من التجارة الانجليزية .

وواصل المؤلفون البرتغاليون تنشيط الأدب بالأعمال . من ذلك ان فرانشيسكو مانويل دى ميلو اللشبونى التحق بالأفواج الأسبانية الذاهبة الى فلاندر بعد أن درس فى كلية أنتاوى اليسوعية ، وخاض معارك عدة كتبت له فيها الحياة ، وقاى فى صف ملك أسبانيا فى التمرد القتلونى . ولف تاريخا له (تاريخ حرب قتلونيا) فى كتاب من عيون الأدب الكثيرة التى أسهم بها البرتغاليون فى الأدب الأسبانى . فلما أعلنت البرتغال تحررها من ربة أسبانيا عرض خدماته على يوحنا الرابع ، ولقى عرضه ترحيبا ، وجهاز أسطولا برتغاليا وتولى قيادته ، ثم وقع فى غرام كونتيسة فيلانوفى الساحرة ، فقبض عليه بايعاز من زوجها ، وقضى تسع سنين فى السجن . فلما أطلق سراحه شريطة أن ينفى الى البرازيل ، ذهب ليعيش فى باهيا (بايا) ، حيث كتب Apologos dialogaes . وسمح له بالعودة فى ١٦٥٩ . فأصدر فى السنين السبع الباقية فى أجله مؤلفات فى الأخلاق والأدب ، وبعض الشعر ، وتمثيلية سبق بها موضوع وفكاهة تمثيلية مولير « البورجوازى مدعى النبى » . ومع أنه كتب بالاسبانية ، فان البرتغال تحسبه بحق أبنا من المبع ابنائها .

وكاتب آخر هو أنطونيو فييرا ، الذى ولد فى لشبونه (١٦٠٨) ، وأخذ فى طفولته الى البرازيل ، وتلقى العلم على يد البسوعيين فى باهيا ، وانضم الى طريقتهم ، وأدهش الناس جميعا حين اقترح فى مواظ وكتيبات بليغة على الحكومات أن تمارس المسيحية . فلما

بعث فى مهمة الى البرتغال (١٦٤١) اثر فى يوحنا الرابع بنزاهة خلقه وتنوع مواهبه تأثيرا حدا به الى تعيينه عضوا فى المجلس الملكى، وهناك شارك بنصيب غير صغير فى التخطيط للانتصارات التى ردت لوطنه استقلاله . ثم هز الافكار الراسخة بالمطالبة باصلاح ديوان التفتيش ، وفرض الضرائب على جميع الناس دون اعتبار للطبقة ، والسماح لليهود بدخول البرتغال ، والغاء التمييز بين. « المسيحيين القدامى » و « المسيحيين الجدد » (أى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية) . وكان مثالا ، من أمثلة كثيرة ، على حيوية اليسوعيين وتعدد قدراتهم ونزعتهم التحررية المتكررة الظهور .

فلما عاد الى البرازيل (١٦٥٢) ، أرسل مبعوثا الى مارانهاو ، ولكن نقده الصارم لهمجية سادة العبيد وأخلاقهم حملهم على السعى حتى نفى الى البرتغال (١٦٥٤) . ودافع أمام الملك عن قضية الهنود المظلومين ، وحصل على شيء من التخفيف عنهم . فلما عاد الى أمريكا الجنوبية (١٦٥٥) ، أنفق ست سنوات كان فيها « رسول البرازيل » ، يقطع مئات الأمال على الأمازون وروافده ، ويخاطر بحياته كل يوم بين القبائل المتوحشة وأهوال الطبيعة ، ويعلم الوطنيين فنون الحضارة ، ويدافع عنهم ضد سادتهم فى شجاعة حملت هؤلاء أيضا على الحصول على أمر بنقله الى البرتغال (١٦٦١) . وهناك قبض عليه ديوان النقبش متهما اياه بأن كتاباته تحتوى على هرطقات خطيرة وتطرفات تستحق الادانة (١٦٦٥) . وهالته الاحوال فى سجون الديوان - اذ رأى خمسة رجال محشورين فى زنزانة عرضها تسعة أقدام وطولها أحد عشر ، لا يدخلها الضوء الطبيعى الا من شق فى السقف ، ولا تغير فيها الاوانى الا مرة فى الأسبوع (٤٩) . وأطلق سراحه بعد سنتين ، ولكنه منع من الكتابة أو الوعظ أو التعليم . فذهب الى روما (١٦٦٩) ، وهناك رحب به كلمنت العاشر وكرمه ، واستهوى الكرادلة والعامّة بفصاحته . وعينا التمسست منه كرستينا ملكة السويد السابقة أن يكون مرشدها الروحى . وقد عرض على البابا اتهامها مفصلا لديوان التفتيش باعتباره وصمة على جبين الكنيسة ونكبة على رفاية البرتغال . وأمر كلمنت بأن تحال الى روما كل القضايا المعروضة.

على ديوان التفتيش البرتغالى ، وعطل انوسنت الحادى عشر تلك
الهيئة خمس سنوات :

وأحس فييرا بوحشة للهنود رغم انتصاراته ، فأبحر مرة
أخرى الى البرازيل (١٦٨١) ، وجاهد هناك معلما ومرسلا يسوعيا
حتى أدركته الوفاة وهو فى التاسعة والثمانين . وتحتوى مؤلفاته التى
يضمها سبعة وعشرون مجلدا ، على الكثير من الالغاز الغيبية ، ولكن
عظاته النى فورنت بعظات بوسوية ، وضعته فى صف « فحول اللغة
البرنغالية (٥٠) » ، وخدماته وطنيا ومصلحا حملت الشاعر
البرونستنتى صدى على أن يسلكه فى عداد أعظم ساسة وطنه
وزمانه (٥١) .

٦ - انهيار أسبانيا : ١٦٦٥ - ١٧٠٠

كانت أسبانيا فى ١٦٦٥ لا تزال أعظم الامبراطوريات فى العالم
المسيحى . حكمت الأراضي المنخفضة الجنوبية ، وسردانيا ، وصقلية ،
ومملكة نابل ، ودوقية ميلان ، ومساحات شاسعة فى أمريكا الشمالية
والجنوبية . ولكنها كانت قد فقدت القوة البحرية والحربية اللازمة
للسيطرة على تجارة هذا الملك المبعثر ومصيره . وكانت أساطيلها
الثمينة قد دمرها الانجليز (١٥٨٨) والهولنديون (١٦٣٩) ،
وهزمت جيوسها هزائم فاصلة فى روكروا (١٦٤٣) ولينز (١٦٤٨) ،
واعترف دبلوماسيوها فى صلح البرانس (١٦٥٩) بانتصار فرنسا ،
وكان اقتصادها يعتمد على تدفق الذهب والفضة من أمريكا ، وهذا
التدفق كان يقطعه المرة بعد المرة الأسطول الهولندى أو الانجليزى .
ونقلصت تجارتها وصناعاتها لاعتمادها على الذهب الأجنبى واحتقار
سحبها للمتاجرة . وكان الكثير من التجارة الاسبانية يحمل فى سفن
أجنبية . ونقص عدد السفن الاسبانية العاملة بين أسبانيا وأمريكا ٧٥ %
فى عام ١٧٠٠ عنه فى عام ١٦٠٠ . وكانت البضائع المصنوعة تستورد
من انجلترا وهولنده ، ويدفع ثمن جزء منها فقط بتصدير النبيذ أو
الزيت أو الحديد أو الصوف ، والباقى يدفع سبائك ذهبية ، ومعنى
ذلك أن الذهب الأمريكى انما كان يمر مرورا بأسبانيا والبرتغال فى
طريقه الى انجلترا وفرنسا والاقاليم المتحدة . وكانت قرطبة وبلنسية

فى حالة اضمحلال واع برم بعد شهرتها الماضية بحرفها . وكان طرد المغاربة قد آذى الزراعة ، وغش العملة المرة بعد المرة أربك المالبسة . وبلغت حال الطرق من السوء وحال النقل من التخلف مبلغا وجدت معه المدن القريبة من البحر ، أو الواقعة على أنهار صالحة للملاحة ، أنه أرخص لها أن تستورد البضائع ، حتى الغلال ، من الخارج عن أن تجلبها من مصادرها فى أسبانيا . وحاولت الضرائب الباهظة ، بما فيها ضريبة بيع ارتفعت الى ١٤ ٪ ، أن تمول حروب أسبانيا ضد أعداء استعصت هزيمتهم الى حد لا يصدق ، رغم الافتراض بأنهم ملعونون من الله . وهبط مستوى المعيشة هبوطا حمل أعدادا لا تحصى من الأسبان على هجر مزارعهم ومتاجرهم وأخيرا وطنهم . وارتفعت وفيئات الأطفال ، ويبدو أنه كان هناك بعض التحديد الماكر لعدد أفراد الأسرة . فقد أصبح آلاف الرجال والنساء رهبانا عقيمين أو راهبات وانطلقت آلاف أخرى للمغامرة فى أراض نائية . وفقدت اشبيلية ، وطليطلة ، وبرجوس ، وسقوية بعض سكانها . وهبط سكان مدريد فى القرن السابع عشر من ٤٠٠.٠٠٠ الى ٢٠٠.٠٠٠ (٥٢) لقد كانت أسبانيا تموت من مرض الذهب .

وفى وسط الفقر المنتشر المتكاثف كدست الطبقات العليا ثروتها وعرضتها على الأنظار . وأمسك النبلاء ، الذين طال إثراؤهم باستغلال الأهالى أو بالكنوز المستوردة ، عن استثمار ثروتهم فى الصناعة أو التجارة ، وراحوا يبهرون أبصار بعضهم البعض بالجواهر والمعدن النفيس ، وبالملاهى الغالية والأثاث الفخم . من ذلك أن دوق ألفا كان يملك ٧٢٠٠ من صحاف الفضة و ٩٦٠٠ من الآنية الفضية الأخرى ، وأن أمير ستليانو صنع لزوجته محفة من الذهب والمرجان بلغ ثقلها حدا لم يسمح باستعمالها . كذلك احتفظت الكنيسة بغناها ، واستكثرت منه (٥٣) ، وسط الفاقة المحيطة بها . ورأى رئيس أساقفة سبتياجو أن يبنى كنيسة كاملة من الفضة ، فلما تنوه عن ذلك بناها كلها بالرخام (٥٤) . لقد كان دم الشعب تربة الثروة ومجد الله .

أما ديوان التفتيش فكان على عهدنا به من شدة البأس ، بل أشد بأسا من الحكومة . وقلت الإحتفالات التى يصدر فيها الحكم بالموت على المهرطقين عن ذى قبل ، لا لشيء الا لأن الهرطقة كانت قد أبيدت

حرقا . وكانت الفيود التي أعجزت الكاثوليك في انجلترا لا تقاس بما يلقاه البروتستنت من أخطار في أسبانيا . وعجز كرومويل عن حماية التجار الانجليز هناك . وقبض ديوان التفتيش في ١٦٩١ على الخادم البروتستنتي للسفير الانجليزى ، وفى تلك السنة نبش الشعب جثة القسيس الانجليكانى الخاص بالسفير ومثل بها تمثيلا . واستمر حرق اليهود المنتصرين الذين اتهموا بأنهم بضمرون يهوديتهم . وبنى ديوان التفتيش لنفسه فى ميورفه فصرا جميلا من الثروة التى صادرها فى تحقيق واحد (٥٥) . وكانت الجماهير تؤيد بحرارة هذه المحرقات وان حاول كثير من النبلاء نبيطها . فلما أعرب شارل الثانى فى ١٦٨٠ عن رغبته فى أن يشهد احتفالا بحرق المهرطقين ، تطوع صناع مدريد بأن يبنوا مدرجا للمشهد المقدس ، وفى أثناء قيامهم بالعمل كانوا يشجعون بعضهم بعضا على الاسراع والاجتهاد بالوان من الحضر الدينى ، لقد كان حقا جهدا من جهود المحبة . وحضر شارل وعروسه الشابة فى كل أبة الملك ، وحوكم ١٢٠ سجيناً ، وأحرق واحد وعشرون حتى الموت فى مرجل فى الميدان الكبير ، وكان هذا أعظم وأفخم احتفال بحرق المهرطقين فى تاريخ أسبانيا ، ونشر كتاب من ٣٠٨ صفحة يصف الحدث ويخلد ذكره (٥٦) . وفى ١٦٩٦ عين شارل « هبته كبرى » لفحص مفاصد ديوان التفتيش ، فقدمت تقريراً أماط اللثام عن شرور كثيرة وأدانها ، ولكن الرئيس العام للديوان اقنع الملك بأن يلقى بهذا « الاتهام الرهيب » فى زوايا النسيان . فلما طلبه قليب الخامس فى ١٧٠١ لم يعثر على نسخة منه (٥٧) . على أن الديوان خفف من غلوائه بعد ذلك وقلل من حرائقه .

أما الكنيسة فقد حاولت أن تفتدى ثروتها وتدعم الايمان بتمويلها للفن . وفى ١٦٧٧ صمم فرانشسكو دى هيريرا ايلموزو كتدراية سرقسطة الثانية التى سميت « ديل بيلار » لأنها تفاخر بعمود اعتقد الناس أن العذراء نزلت عليه من السماء . وجاءت العمارة الباروكية الآن الى أسبانيا ، وبين عشية وصحاها نحول المزاج الاسبانى من الاكتئاب القوطى الى الاسراف الزخرفى . وأشهر المعماريين هنا خوزى شوريجويرا ، وقد أصبح لفظ « شوريجويريسكا » حينا علما على الباروك الاسبانى . ولد فى سلمنقه عام ١٦٦٥ ، وأبدى نشاطا مفرطا

فى العمارة والنحت وصناعة الاثاث والتصوير . فلما وفد على مدريد فى الثالثة والعشرين دخل فى مسابقة لتصميم نعلش لجنازة الملكة ماريا لويزا ، ففاز بالجائزة ، وتوطدت شهرته بالبراعة الزخرفية العربية بفضل هذا البناء المختلط (٥٨) ، المؤلف من أعمدة عجيبة الشكل وكرانيش مكسرة ، والمزين بالهياكل العظمية والعظام المتفاطعة والجماجم . ثم عاد الى سلمنقة حوالى ١٦٩٠ ، وظل يكده فيها عشر سنين ، يزخرف الكتدرائية ، ويبنى المذبح العالى فى كنيسة القديس اسطفان ، والبهو الفخم فى مجلس المدينة . وفى مدريد صمم قرب ختام حياته واجهة كنيسة القديس توما ، ولما مات (١٧٢٥) ترك استكمال البناء لولديه جيرونيمو ونيقولا ، وفى أثناء اشتغالهما بهذه العمليات سقطت القبة فوق رعوس الكثير من العمال والمصلين فسحقتهم . وهاجر الى المكسيك لون معتدل نوعا ما من باروك شوريجويرا ، وهناك أثمر بعض المباني التى تعد من أجمل ما شيد فى أمريكا الشمالية .

وظل النحت تعبيرا قويا عن الروح الاسبانية . وكان مصدر هذه القوة أحيانا واقعية شاذة ، كما نراها بتفصيل دموى فى رأس يوحنا المعمدان أو غيره من القديسين مقطوعى الرعوس . وكان متحف بلد الوليد يحتفظ برأسين من هذا النوع للقديس بولس (٥٩) . وظلت حجب المذبح لونا أثيرا من ألوان الفن ، فنرى بيدرو رولدان ينحت للحجب الكبرى فى كنيسة الأبرشية الملحقة بالكتدرائية ، وفى مستشفى دى لا كاريداد فى اشبيلية ، وابننه لويزا رولدانا ، مثاله أسبانيا الفذة ننحت فى كتدرائية قانس مجموعة تماثيل تتركز حول « نوسترا سينورا دى لاس أنجوستياس » (سيدة الأحران) . وهيمن بيدرو دى مينا على العصر بتمائيل عراياه (وما أندرها فى الفن الاسبانى) ، وتمائيل السيدة العذراء ، ومقاعد المرتلين فى كتدرائية ملقا ، ويعد تمثاله « سان فرانسكو » فى كتدرائية اشبيلية من أروع أمثلة النحت الاسبانى . وحوالى نهاية القرن السابع عشر أدرك هذا الفن ما أدرك عبره من تدهور عام . فاثقلت الحشوات بالزخارف ، وزودت التماثيل بأجهزة آلية لتحريك الرأس والعينين والفم ، وأضيف الشعر والملابس الحقيقية ، واللون دائما ، فى جهد للوصول الى أبسط التصوير والذوق الجماهيريين .

وولى عصر العمالقة فى القصور الاسبانى ، ولكن

بقى الكثير من صغار الأبطال . فكان خوان كارينو دى ميراندا ، الذى خلف فيلاسكويز مصورا للبلاط ، محبوبا كسلفه تقريبا - رجلا متواضعا لطيفا ، يبلغ به الاستغراق فى عمله مبلغا يتسبه أحيانا هل أكل أو لم يأكل . وقد سرت صورته لشارل الثانى وحاشيته الملك الشاب حتى عرض عليه لقب الفروسية وصليب سنتياجو ، ولكن كارينو رفض هذا التشريف لأنه رآه فوق ما يستحق . وفى تلك الأيام ابتهجت مدريد بقصة « الكنتاريللو دى مييل » (برطمان العسل) . ونفصيل ذلك أن فنانا مغمورا يدعى جريجوريو أوتاندى رسم لوحة للراهبات الكرمليات طلب عليها أجرا مائة دوكاتية ، فاستكثرن عليه الأجر ، ولكن وافقن على تحكيم كارينو . وقبل أن يسمع كارينو بالأمر ، أهده أوتاندى برطمان عسل ، ورجاه فى أن يضع اللمسات الأخيرة للوحة . ففعل ، ونحسنت الصورة كثيرا . ودهش كارينو حين طلبت اليه الراهبات نفيمهما . فرفض ، ولكن فنانا ثالثا قدرها بمائتى دوكاتية ، وكتم السر حتى دفع الثمن .

وفى ختام حياته يسر كارينو سبيل النجاح لأحد خلفائه ، وهو كلوديو كويللو ، الذى ظل يرسم آناء الليل وأطراف النهار دون أن يحقق نتائج ذات بال . فصادقه كارينو ، وحصل له على اذن بأن يدرس وينسخ أعمال تنسيانو وروبنز وفانديك فى قاعات الفن الملكية . وأعانت هذه التجربة كلوديو على النضج ، وفى ١٦٨٤ ، وقبل موت كارينو بعام ، عين كويللو مصورا للملك . وقد أحرز الشهرة فى وطنه بلوحته « ساجرادا فورما » أى القربانة المقدسة ، التى ظهرت فيها هذه القربانة تقدم الى شارل الثانى لوضعها على مذبح فى الاسكوريال . ولأسطورة التى من وراء الصورة تعبر عن مزاج أسبانيا . تقول الرواية انه فى أثناء الحرب مع الهولنديين داس بعض الكلفنيين الفجرة قطعة من خبز القربان المقدس تحت أقدامهم ، وسالت من القربانة المصابة قطرات من دم ، هدت للتو أحد مدنسيها الى الكاتوليكية ، وحملت القربانة التى استنقذت الى فيينا فى احترام واجلال ، وأرسلت هدية الى فيليب الثانى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تعرض دوريا ، ملطخة بدم المسيح على العابدين الخاشعين . وصور كويللو الملك وكبار حاشيته راكعين فى تعبد أمام الخبز المعجز . وظهر فى الصورة نحو خمسين

شخصا ، كلهم تقريبا صاحب شخصية متميزة ، وقد رتبوا فى منظور ذى عمق خداع للبصر بشكل ملحوظ . (٦٠) . بعد هذا العمل الذى اقتضاه الفراغ منه عامين ، أصبح كويللو سيد الفنانين قاطبة فى العاصمة غير منازع . وبعد ست سنوات (١٦٩٢) حجبته بغته وصول لوكا فاريرىستو جوردانو من ايطاليا ، وكلف لوكا على الفور بالدور الاول فى زخرفة الاسكوريال من جديد . وزاد لوكا الطين بلة بامتداحه صور كلوديو . وأنهى كويللو الصور التى كلف بها ، ولكنه ألقى فرشاته جانبا . وبعد عام من وصول جوردانو مات كويللو وهو بعد فى الحادية والخمسين ، وفيل قهرا وغيره (٦١) .

وخلال ذلك شهدت اشبيلية ميلاد ووفاة (١٦٣٠ - ٩٠) آخر فنان عظيم فى التصوير الأسبانى قبل جويا ، وهو خوان دى فالديس ليال . وكان مثل كويللو برتغالى الأبوين أسبانى المولد . وبعد أن أنفق سنوات فى قرطبة ، رحل الى اشبيلية ليتحدى تفوق موريللو . وكان فيه من الكبرياء ما لم يسمح له بأن يقدم لرعاته الجمال الناعم لعذارى (مادونات) محتشمت . وقد صور العذراء فى صعودها ، ولكنه وضع قلبه وقوته فى صور أخرى لا تعرف هواده فى الغض من لذات الحياة والايماء الى الموت الذى لا مهرب منه . فرسم القديس انطونيوس يتولى فى هلع عن فتنة النساء (٦٢) . وصورت لوحته « ان اكتو أوكولى » (أى فى طرفة عين) الموت هيكلا عظيما يطفئ شمع الحياة التى يكشف ضوءها القصير الاجل ، فى فوضى اختلطت على أرض الحجرة ، عدة الاطماع الدنيوية ومجد العالم - الكتب ، والسلاح ، وتاج أسقف ، وتاج ملك ، وسلسلة لطائفة « الفروة الذهبية » . وفى صورة مغايرة تدور حول هذه الفكرة أرانا ليال حفرة مقبرة تبعثرت فيها الجثث والهياكل والجماجم ، ومن فوقها كلها يد جميلة تمسك بميزان تحتوى احدى كفتيه على شعارات فارس ، والأخرى على شارات أسقف ، والكفة الأولى كتب عليها « نيماس » أى لا أكثر ، والثانية « نيمينوس » أى لا أقل - فرجال الدنيا ورجال الدين على السواء وجدوا ناقصين فى موازين الله . ورأى موريللو أول الصورتين ، فقال لفالديس « انها أيها الزميل صورة لا يستطيع المرء أن ينظر اليها دون أن يمسك بانفه (٦٣) » - وهى عبارة يمكن أن تفسر بأنها نناء على واقعية المصور ، أو رد فعل عقل سليم للفن المنحط .

ذلك أن الانحطاط كان سمة للعهد ، فلم يشرفه أديب عظيم ، ولم تعرض على مسرحه تمثيلية فذة . أما الجامعات فكانت تنزوى وسط الخراب والظلمة السائدين ، ففي جامعة سلمنقة هبط عدد الطلاب فى هذه الفترة من ٧٨٠٠ الى ٢٠٧٦ (٦٤) . وجاهد ديوان التفتيش وقائمة الكتب المحرمة بنجاح ليقصيا عن أسبانيا كل أدب يسيء الى الكنيسة ، وظلت أسبانيا طوال قرن توعد أبوابها كأنها صومعة عابد فى وجه حركات الذهن الأوربي . وتريع الانحطاط بشخصه على عرش الملك رمزا للعهد .

وبيان ذلك أن شارل النانى أصبح ملكا وهو بعد فى الرابعة (١٦٦٥) وفى سنى حدائنه كانت أمه الملكة ماريانا تحكم البلاد اسما ، أما حاكمها الفعلى فكان كاهن اعترفها اليسوعى يوهانز ابرهارد نيزارد ، تم عشيقتها فرناندو فالنزويلا . وتفاقت الفوضى ، وكانت الوزاره الكفاء التى تولاهها دون خوان نمساوى آخر ، أقصر أجلا من أن توقف الانحلال . وفى ١٦٧٧ تقلد الملك ذو الستة عشر عاما الحكم وجلس عاجزا على قمة هذا الصرح المنهار . ولعل التزاوج المتصل بين أفراده أسرة هابسبورج أسهم فى ضعف بدنه وعقله . وكانت الذقن الهابسبورجية فى شارل بارزة بروزا أعجزه عن مضغ طعامه ، ولسانه من الكبر بحيث لم يكده كلامه يفهم . وظل الى العاشرة يعامل كأنه طفل يحمل بين الذراعين . وكان لا يكاد يستطيع القراءة ، ولم يتلق من التعليم الا القليل ، وكان أعز ميراثه خرافات مذهبه وأساطيره . ويصفه مؤرخ أسباني كبير بأنه « عليل ، أبله شديد التعلق بالخرافات » ، وكان « يعتقد انه ممسوس ، وكان العوبه لأطماع كل من أحاطوا به (٦٥) » . وقد تزوج مرتين ، ولكن « كان من المعروف للجميع أنه لا يستطيع توقع الخلف (٦٦) » . هذا القصير الأعرج ، المصروع ، الخرف ، المصلح تماما قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين ، كان دائما على شفا الموت ، ولكنه حير العالم المسيحى المرة بعد المرة ببقائه على قيد الحياة .

وأصبح تفكك أوصال أسبانيا الآن مأساة أوربية . فقد ازدادت الحكومة اقترابا من الافلاس برغم الضرائب والتضخم واستغلال المناجم

الامريكية حتى عجزت عن دفع فوائد دينها ، وحتى المائدة الملكية اضطرت الى التقدير فى خدمة الملك . أما البيروقراطية الادارية التى قلت رواتبها فكانت فاسدة متراخية . واستبد الفقر بالناس حتى كانوا يفتتلون للحصول على الخبز ، وسطت عصابات من الجياع على البيوت لتسرق وتقتل ، وكان عشرون ألف شحاذ يجوبون شوارع مدريد . أما رجال الشرطة العاجزون عن الحصول على رواتبهم فقد تشبثوا وانضموا الى المجرمين .

ووسط الفوضى والقلق والخراب واجه الملك المسكين ، الكسيح ، نصف المعتوه ، الشاعر بدنو أجله ، فى حيرة وتذبذب ، مشكلة الفصل فى وراثة عرشه . واذا كان سلطانه من الناحية النظرية مطلقا ، فان سطرنا واحدا بخطه كان يكفى للتوصية بامبراطوريته التى تمتد رقعتها غى أربع فارات ، اما للنمسا واما لفرنسا . وانتصرت أمه للنمسا ، ولكن شارل كان يكره تأمرها كما يكره جشع زوجته الالمانية الخبيث . وذكره السفير الفرنسي بأنه ما دام صداق عروس لويس الرابع عشر الأسبانية لم يدفع بعد ، فان تنازلها عن الوراثة قد بطل ، وكان لويس يلح مطالبا بحقوقها ، ويملك القوة لفرض مطلبه . فلو أن شارل داس هذه الحقوق لا شتعلت أوربا بنيران الحرب ، وربما تمزقت أسبانيا اربا فى هذا الصراع . وانهار شارل تحت وطأة اتخاذ القرار ، وبكى واشتكى من أن ساحرة قد ابتلته بخطوب لا قبل له بتحملها . وبينما كان يستمع الى الحجج التى زادته اختلاطا حاصر مثيرو الشغب قصره صائحين فى طلب الخبز .

وفى سبتمبر ١٧٠٠ لزم شارل فراش الموت وكسب الحزب الفرنسي، وهو أحد الأحزاب التى أحاطت به ، رئيس أساقفة طليطلة - وكان كبير أساقفة أسبانيا - الى صفه ، وقد لازم الملك المحتضر ليل نهار ، وذكره بأن لويس الرابع عشر وحده يملك من القوة ما يتيح له الحفاظ على الامبراطورية الاسبانية سليمة واستخدامها معقلا للكنيسة

الكاثوليكية . ونصح البابا انوسنت الثانى عشر شارل بتفضيل فرنسا ،
وذلك تحت الحاح لويس . وخيرا أذعن شارل ، ووقع الوصية المشثومة
التي خلف فيها كل ممتلكاته لفيليب دوق أنجو ، حفيد ملك فرنسا
(٣ أكتوبر ١٧٠٠) . وفى أول نوفمبر مات شارل ، غير متجاوز
الساعة والثلاثين ، وكأنه شبح فى الثمانين . وهكذا كانت خاتمة فرع
الهابسبورج الاسبانى فى غروب شاعت فيه حمرة الحرب الداهمة .

الفصل السادس عشر

الجيوب اليهودية داخل البلاد الأجنبية

١٥٦٤ - ١٧١٥

١ - الصفارديم X

ان بقاء اليهود أحياء بعد تسعة عشر قرنا من الشدة والثار أشبه بلحن كئيب فى تاريخ الجهل ، والكراهية ، والشجاعة ، والمرونة . ذلك أنهم بعد أن حرموا الوطن ، وأكروهوا على التماس الملجأ فى جيوب، عنصرية بين أعداء عتاة ، وتعرضوا فى كل لحظة للأهانة والظلم ، وللمصادرة أو الطرد و المذابح الفجائية ، دون أن يكون لهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم سوى سلاح الصبر والمكر والتصميم اليائس والايما ن بدينهم - فانهم عاشوا مغالبيين خطويا وتضائدا لم يقو على مغالبتها نعب آخر فى التاريخ ، ولم تتحطم ارادتهم قط ، ومن فقرهم وحزنهم أنجبوا شعراء وفلاسفة بعثوا ذكرى المسترعين والأنبياء العبرانيين الذين وضعوا الاسس الروحية للعالم الغربى .

وكان استئصال شافة اليهود فى أسبانيا الآن كاملا تقريبا ، فلم يكن لهم من بقاء الاختيار مختبىء فى الدم الاسبانى ، حتى أن أسقفا أسبانيا استطاع أن يعرب عام ١٥٩٥ عن ارتياحه لأن اليهود المتنصرين أمكن استيعابهم بنجاح بطريق التزاوج بينهم وبين المسيحيين ، وأن أخلافهم الآن مسيحيون أتقياء (٢) . ولكن ديوان التفتيش لم يوافق على رأيه هذا ففى ١٦٥٤ أحرق عشرة رجال فى كوينكا واثنا عشر فى غرناطة ، وفى ١٦٦٠ قبض على واحد وثمانين فى اشبيلية ، وأحرق سبعة ، بتهمة التمسك سرا بالشعائر اليهودية (٣) .

X ترد لفظة « صفارد » فى النوراة (١) اسما لاقليم فى غربى آسيا انزل فيه المنفيون اليهود بعد استيلاء البابليين على اورشليم . وفى تاريخ لاحق أصبحت الكلمة اصطلاحا عبريا على أسبانيا ، فأصبح اليهود من أصل اسبانى أو برتغالى يسمون الصفارديم .

وفى البرتغال ، على الأخص ، واصل الكثير من المتنصرين فى الظاهر (الكونفرسو conversos أو المارانو) ممارسة اليهودية ونقلها فى عزلة بيوتهم ، ووقع أكثر من مائة منهم ضحايا لديوان التفتيش لأنهم مرتدون (relapsos) بين عامى ١٥٦٥ و ١٥٩٥ (٤) - ووجد اليهود المتسرون مكانا قلقا فى الحياة البرتغالية كتابا ، واساتذة ، وتجارا ، وماليين ، بل ورهبانا وقسيسين ، على الرغم من كل أخطار الكشف عن حقيقتهم . وكان ألمح الأطباء يهودا متخفين ، وفى لشبونة طورت أسرة مديس شركة مصرفية من أعظم الشركات فى أوروبا .

وبعد أن اندمجت البرتغال فى أسبانيا (١٥٨٠) ، زاد نشاط ديوان التفتيش البرتغالى ، وفى السنين العشرين التالية أقيم خمسون احفالا لادانة المهرطقين ، وحكم على ١٦٢ بالاعدام ، وعلى ٣٩٧٩٠ تاتبا بالعقوبات التكفيرية ، وأحرق فى لشبونة (١٦٠٣) راهب فرنسيسكانى يدعى ديوغودا أسومساو ، يبلغ الخامسة والعشرين ، بعد أن اعترف باعترافه اليهودية (٥) . وهاجر الى أسبانيا الكثير من المارانو بعد أن وجدوا ديوان التفتيش البرتغالى أشد وحشة من نظيره الأسبانى . وفى ١٦٠٤ ، بفضل رشوة قدرها ١٨٦٠٠٠ دوكاتيه دفعوها لفيليب الثالث ، ورشا أقل لوزرائه ، أقنعوا الملك بأن يحضر من البابا كلمنت الثامن على مرسوم يأمر فيه فضة التفتيش البرتغاليين بأن يفرجوا عن جميع المارانو المسجونين ويفرضوا عليهم عقوبات روحية . فقط . فاطلق فى يوم واحد (١٦ يناير ١٦٠٥) سراح ٤١٠ من هؤلاء الضحايا . ولكن مفعول هذه الرشا وأمثالها كان يضعف بمضى الوقت . ولم يلبث الارهاب البرتغالى أن عاد سيرته الاولى عقب موت فيليب الثالث (١٦٢١) . وفى ١٦٢٣ قبض على مائة من « المسيحيين المحدثين » فى بلدة مونتمور أو نوفو . وفى كوامبرا ، مركز المملكة الثقافى ، قبض على ٢٤٧ فى ١٦٢٦ ، وعلى ٢١٨ فى ١٦٢٩ ، وعلى ٢٤٧ فى ١٦٣١ . وخلال عشرين عاما (١٦٢٠ - ٤٠) أحرق ٢٣٠ يهوديا برتغاليا شحصيا ، و ١٦١ دمية تمثلهم بعد أن هربوا ، و « صولح » ٤٩٩٥ بعقوبات أخف (٦) . وفر آلاف المارانو من البرتغال كما فروا من قبل من أسبانيا ، مخاطرين بحياتهم وتاركين ثروتهم خلفهم الى أركان المسكونة كلها .

٩ - قصة الحضارة

والتست الكثرة العظمى من منفيي الصفارديم ملاذا فى بلاد المسلمين ، وكونوا أو انضموا الى مستوطنات يهودية فى شمال أفريقية ، وسالونيك ، والقاهرة ، والاسكتانة ، وأدرنة ، وأزمير ، وحلب ، وإيران . فى هذه المراكز تعرض اليهود لقيود سياسية واقتصادية ، ولكن ندر أن تعرضوا لاضطهاد بدنى . وبلغ اليهود مكانة مرموقة لا بوصفهم أطباء فحسب ، بل مشاركين فى شئون الدولة . من ذلك أن يوسف ناصي ، أحد المارانو كان مقربا لسليم الثانى ، وكان بصفته دوق ناكسوس (١٥٦٦) يتسلم إيراد عشر جزر فى الأرخبيل (٧) . وكان يهودى ألمانى يدعى سليمان بن ناتان أشكنازى سفيراً لتركيا فى فيينا فى ١٥٧١ ، ودخل فى مفاوضات هناك لابرام صلح أنهى الحرب حيناً مع الباب العالى .

أما فى ايطاليا فان حظوظ اليهود كانت بين صعود وأفول تبعاً لحاجات الادواق والبابوات وأمزجتهم . وفى ميلان ونابلى ، وكلاهما كانت تحكمه أسبانيا ، كادت الحياة تستحيل عليهم ، وفى عام ١٦٦٩ طردهم مرسوم صريح من جميع الممتلكات الاسبانية . أما فى بيزا وليفورنو (لجهورن) فقد منحهم كبار الادواق التوسكانيون الحرية الكاملة تقريبا ، لحرصهم على تنمية تجارة هذين الثغرين الحرين . وصدر فى ١٥٩٣ مرسوم للتجار فى هاتين المدينتين كان فى حقيقته دعوة موجهة للمارانو « نود ألا يقوم أى . . . تحقيق دينى ، أو افتقاد ، أو تنديد ، أو اتهام . ضدكم أو ضد أسرکم ، حتى ولو كانوا فيما مضى يعيشون خارج أملاكنا متخفين كمسيحيين ، أو تسموا بأسماء المسيحيين (٨) » ونجحت الخطة ، وازدهرت ليفورنو ، واشتهرت جاليتها اليهودية - التى لم تفقها عددا سوى حالبتي رما والبندقية - بثافتها كما اشتهرت بثرائها .

أما مجلس شيوخ البندقية فكان يطرد اليهود المرة بعد المرة خوفاً من علاقاتهم بتركيا ، ويسمح لهم المرة بعد المرة بالعودة باعتبارهم عنصراً ذا قيمة لا فى التجارة والمالية فحسب بل فى الصناعة أيضاً ، فقد استخدمت المشاريع اليهودية فى البندقية أربعة آلاف عامل مسبحى (٩) . واستوطنتها اليهود الألمان والشرقيون كما استوطنتها لليهود الصفارديم ، وبسط مجلس الشيوخ عليهم حمايته من ديوان

'التفتيش' . وكانوا كلهم تقريبا يعيشون فى حى اليهود ، « الجوديكا » ، ولكنهم لم يلزموا بسكناه ، وكان هذا « الغيت ghetto » يضم الكثير من الأسر الغنية ، والبيوت الجميلة ، ومجمعا مؤثنا تأثيثا فاخرا بنى فى ١٥٨٤ ، ثم أعيد بناؤه فى ١٦٥٥ بأشراف المعمارى الشهير بلداسارى لونحنيا . وكان يهود البندقية الستة الآلاف أرقى ثقافة من أى جالية يهودية فى هذا العصر .

واستقرت فى فرارا حوالى ١٥٦٠ مستوطنة من المارانو القادمين أصلا من البرتغال ، ولكنها شتتت فى ١٨٥١ بأمر البابا ، الذى فعل هذا تحت ضغط ديوان التفتيش البرتغالى . وفى مانتوا كان أدواق جونزاجو يحمون اليهود ، ولكنهم يسلبونهم دوريا بالتبرعات و « القروض » ؛ وفى ١٦١٠ أجبر جميع يهود مانتوا على مسكنى حى مسور لليهود تقفل بواباته عند الغروب وتفتح فى الفجر (١٠) . فلما تفشي الطاعون فى مانتوا اتهم اليهود بأنهم هم الذين جلبوه اليها ، وحين استولى جنود الامبراطور على المدينة ابان حرب الوراثة المانتوية ، نهبوا حى اليهود تماما ، واغتصبوا ٨٠٠.٠٠٠ سكودى جواهر ونقودا ، وأمروا اليهود أن يرحلوا عن مانتوا خلال ثلاثة أيام غير آخذين من مقتنياتهم الا ما يستطيعون حمله (١١) .

أما فى روما ، حيث درج البابوات من قبل على حماية اليهود ، فانهم بعد عام ١٥٦٥ (باستثناء سيكستوس الخامس) أصدروا سلسلة طويلة من المراسيم المعادية لهم . فأمر بيوس الخامس (١٥٦٦) جميع السلطات الكاثوليكية بأن تطبق تطبيقا كاملا كل ما فرض على اليهود من قيود وحدود دينية . فلا بد منذ الآن أن يقصروا على أحياء معزولة عزلا ماديا عن السكان المسيحيين ، وعليهم أن يلبسوا شعاعرا أو ثوبا مميرا ، ولاحق لهم فى تملك الأرض ، ولا فى أن يكون لهم أكثر من مجمع واحد فى أية مدينة . وفى ١٥٦٩ ، بمقتضى مرسوم بابوى اتهم اليهود بالربا ، والقوادة ، والشعوذة ، وفنون السحر ، أمر بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من الولايات البابوية فيما عدا مدينتى أنكونا وروما (١٢) . وحرّم جريجورى الثالث عشر (١٥٨١) على المسيحيين استخدام الأطباء اليهود ، وأمر بمصادرة الكتب العبرية ، ووجد (فى ١٥٨٤) الزام اليهود بالاستماع الى مواعظ هدفها هدايتهم

الى المسيحية . وأنهى سبكنوس الخامس هذا الاضطهاد بعض الوقت..
ففتح حى اليهود (١٥٨٦) ، وسمح لليهود أن يسكنوا أنى شاءوا فى
الولايات البابوية ، وإعفاهم من ارتداء أى شارة أو لباس مميز ، وأذن
لهم بطبع التلمود وغيره من المؤلفات العبرية ، ومنحهم حرية العبادة
كاملة ، وأمر المسيحيين بأن يعاملوا اليهود ومجامعهم بالاحترام
والرافة (١٣) . ولكن هذه البابوية المسيحية كانت قصيرة الأجل ، فقد
جدد كلمنت الثامن مرسوم الطرد (١٥٩٣) . وما حل عام ١٦٤٠ حنى
كان جميع يهود ايطاليا تقريبا بسكنون الغيت ، فاذا بارحوه كن عليهم
أن يلبسوا شارة تدل على سبطهم ، وحرموا من الاشتغال بالزراعة أو
الانتماء الى الطوائف الحرفية . وقد وصف مونتيني أثناء جولته فى
روما عام ١٥٨١ كيف كان اليهود فى السبت يلزمون بارسال سنين من
شبابهم الى كنيسة ستانجيلو فى سكيريا لبستمعوا الى عظات تحضهم
على اعتناق المسيحية (١٤) . وقد شهد جون ايفلين احتفالا كهذا فى
روما (٧ يناير ١٦٤٥) ، ولاحظ أن « الاهتداء أمر نادر جدا » وكان
كثير من خصائص اليهود المنفرة ، سواء البدنية والخلقية ، نتيجة
لطول الحبس والذل والفقر .

أما فى فرنسا فقد كان اليهود من الناحية النظرية خاضعين لجميع
القيود التى طلب بيوس الخامس فرضها عليهم ، أما من الناحية الفعلية
فقد أكسبتهم أهميتهم فى الصناعة والتجارة والمالية تسامحا صامتا .
وفد أكد كولبير فى أحد أوامره المزايا التى تحصل عليها مرسيليا من
مشروعات اليهود التجارية (١٥) . واستقر لاجئو المارانو فى بوردو
وبايون ، وبلغ اسهامهم فى الحياة الاقتصادية لجنوب غربى فرنسا
مبلغا حمل السلطات على السماح لهم بممارسة شعائهم اليهودية فى
تخف يقل شيئا فشيئا . ولما غزا جيش من المرتزقة بوردو فى ١٦٧٥ ،
خشي مجلس المدينة أن يعطل نزوح اليهود المرتاعين فى أعداد كبيرة
عن المدينة نراءها ، فبدونهم - كما قال ناظر ملكى فى تقريره -
ستخرب لا محالة تجارة بوردو والاقليم بأسره (١٦) . وبسط لويس
الرابع عشر حمايته على الجالية اليهودية فى متر ، فلما عذب القضاة
المحليون يهوديا حتى الموت (١٦٧٠) لاتهامه بقتل طفل قتل طقسيا
إدان الملك اعدام الرجل قائلا انه جريمة قتل ارتكبها القضاء ، وأمر

بأن تعرض بعد ذلك الاتهامات الجنائية لليهود على المجلس الملكى (١٧) . وقرب ختام حكم لويس ، حين أفضت حرب الوراثة الاسبانية بالحكومة الفرنسية الى شقا الافلاس ، وضع المالى اليهودى صموئيل برنار نروته تحت تصرف الملك ، ودان الملك المتكبر بالشكر المعونه « أعظم مصرفى فى أوربا (١٨) » .

٢ - أورشليم الهولندية

لعبت هجرة اليهود من أسبانيا والبرتغال دورا (مبالغا فيه احيانا) (١٩) فى انتقال الزعامة التجارية من هاتين الدولتين الى الاراضي المنخفضة . هناك قصد اليهود المنفيون أنتورب أولا ، ولكن فى ١٥٤٩ أمر شارل الخامس بأن يطرد من الاراضي المنخفضة كل المارانو الذين دخلوها من البرتغال فى السنوات الخمس الاخيرة . والتمس عمد أنتورب الاستثناء من هذا المرسوم ، ولكنه نفذ ، واسنانف المهاجرون الجدد بحنهم عن وطن يلجأون اليه . وفقدت أنتورب تفوقها التجارى لا نتيجة لهذه الهجرة الجزئية ، بل للخطوب التى ألت بالمدينه فى حرب التحرير ومعاهدة وستفاليا ، التى أقفلت السلب فى -وجه الملاحه .

واجتذبت حربة العبادة فى الاقاليم المتحدة ، تلك الحربة المنزايدة رغم ما سابها من نقص ، اليهود الى المدن الهولندية - الى لاهاى ، وروتردام ، وهارلم ، وأهم من ذلك كله أمستردام . هناك ظهر يهود المارانو فى ١٥٩٣ ، وبعد أربع سنين افتتحوا مجمعا لهم . وكانت العبرية لغة عبادتهم ، والاسبانية أو البرتغالية لغتهم فى حيانهم اليومية . وفى ١٦١٥ ، وبعد تقرير وضعه هوجو جروتىوس ، أقرت سلطات المدينة رسميا وجود الجالية اليهودية ، ومنحتها حرية العبادة ، ولكنها منعت اليهود من التزاوج مع المسيحيين ومن التهجم على الدين المسيحى (٢٠) ، ومن هنا هذا الذعر الذى استولى على رؤساء المجمع حين مست هرطفات أوريل أكوسنا وباروخ سبينوزا أسس العفيدة المسيحية .

وكان من بين اليهود نفر من أغنى التجار فى النغر المزههر وكانوا يدبرون قسما هاما من التجارة الهولندية مع شبه الجزيرة

الاسبانية ، ومع جزر الهند الشرقية والغربية . وفى احدى المناسبات ، فى زفاف فتاة يهودية ، كان اربعون من الضيوف يمتلكون ثروات جعلتها اربعون مليون فلورين (٢١) . وفى ١٦٨٨ ، حين كان رئيس الدولة وليم الثالث يخطط لحملته التى قام بها ليظفر بتاج انجلترا ، أقرضه اسحاق سواسو - فيما روى - مليونى فلورين دون فائدة قائلا « اذا حالفك الحظ ستردها الى ، والا فانى راض بأن أخسرها (٢٢) » . وكان بعض هذا الثراء لافتا للنظر فوق ما ينبغى ، مثال ذلك أن داود بنتو أسرف فى تزيين بيته اسرافا حمل السلطات المدنية على توبيخه (٢٣) ، على أننا يجب أن نضيف أن آل بنتو تصدقوا بالملايين على مشروعات البر اليهودية والمسيحية (٢٤) . وكان من وراء هذه الواجهة الاقتصادية حياة ثقافية نشطة ، حفلت بالعلماء والاحبار والطباء والشعراء والرياضيين والفلاسفة . وكانت المدارس توفر التعليم ، وأصدرت مطبعة عبرية أسسها منسى بن اسرائيل فى ١٦٢٧ عددا كبيرا من الكتب والنشرات ، وسوف تكون أمستردام طوال القرنين التاليين مركز التجارة اليهودية فى الكتب . وفى ١٦٧١ - ٧٥ دلت الجالية البرتغالية - اليهودية على ثرائها بتشديد المجمع البديع الذى ما زال احد معالم امستردام ، وقيل ان المسيحيين ساهموا فى تكريمه . لقد كانت لحظة سعيدة فى حياة اليهود المحدثين .

على أن هذه الشمس كان يشوبها الكلف . فحوالى سنة ١٦٣٠ وفد اليهود الاشكنازيم (أى الشرقيون X) على أمستردام من بولنده والمانيا . وكانوا يتكلمون لهجتهم الألمانية ، وأنشأوا مجمعا خاصا بهم ، وتكاثروا سريعا ، وأثاروا الكثير من العداء بين يهود الصغارديم ، الذين كانوا فخورين بما بزوهم به من لغة ، وثقافة ، ولباس ، وثروة ، ونظروا الى التزاوج مع اليهود الاشكنازيم كأنه مروق عن الدين . وتكون داخل جماعة الصغارديم انقسام طبقي ، فكان صغار الحرفيين والفقراء

X يظهر لفظ « اشكنازى » لأول مرة فى الاصحاح العاشر والعدد الثالث من سفر التكوين اسما لحفيد بعيد من أحفاد نوح ، وفى الاصحاح ١١ والعدد ٢٧ من سفر ارميا اطلق على مملكة فى غرب آسيا ، واطلقه الاحبار فى العصور الوسطى على المانيا لاسباب نجهلها ، وأصبح لفظ « الاشكنازيم » مرادفا لليهود المانيا ، وبولنده ، وروسيا .

المتكاثرون ينددون بـ « أصحاب الملايين » الذين يسيطرون على سياسة المجتمع وموظفيه . وقد ورد فى هجاء معاصر . « ان الريال يحل ويربط ، وهو يرفع الجهال الى أكبر المناصب فى المجتمع (٢٥) » . وكان القادة الفكريون - شارل ليفى مورتيرا ، واسحاق أبوآب دا فونسيكا ، ومنسى بن اسرائيل - رجلا ذوى كفاية ونزاهة ، ولكنهم كانوا محافظين يحذر فى شئون السياسة والدين والاخلاق . وأصبحوا متزمتين تزمّت الأسبان الذين اضطهدوا أسلافهم ، ومارسوا التفتيش اليقظ عن الهرطقات المحتملة (٢٦) .

وترك منسى بن اسرائيل بصمته على التاريخ بفتح انجلترا لليهود من جديد . ولد فى لاروشيل لأبوين من المارانو وصلا حديثا من لسبونة ، وأخذ الى امستردام فى طفولته ، وانقطع لدرس العبرية والاسبانية والبرتغالية واللاتينية والانجليزية ، واختير وهو فى الثامنة عشرة واعظا لمجمع نيفه شالوم . وقد سر المسيحيين واليهود على السواء بتأليفه « ال كونسليادور » ليوافق بين التناقضات المزعومة فى التوراة . وكان له الكثيرون من المراسلين والاصدقاء المسيحيين - هويت ، وجروتيوس ، وكركستينا ملكة السويد ، وديونيسيوس فوسيوس الذى ترجم كتابه الى اللاتينية ، ورمبرانت الذى حفر صورته فى ١٦٣٦ . وأهم من ذلك أنه أثار اهتمام الحالمين من المسيحيين لأنه بشر بفرب مجيء « مسيا » يحكم الأرض .

ذلك أن منسى كان قبلانيا ومثاليا صوفيا يحلم بقرب العثور على أسباط اسرائيل العشرة المفقودة وتوحيدها ، وبأنهم ربما كانوا الهنود الأمريكيين ، وبأن اليهود سيسمح لهم بالعودة الى انجلترا واسكندناوه ، وبأن الأرض المقدسة ستعاد عندئذ لاسرائيل فى كل مجد المسيا . وراسله البيورتان من شيعة الملكية الخامسة فى انجلترا ، ومع أن مسيحهم المنتظر لم يكن مسيحه ، فأنهم رحبوا بأرائه فى قرب مجيء ملكوت الله . واذ وجد هذا التشجيع فانه نشر (١٦٥٠) رسالة عن تطلعات اسرائيل ، يناشد فيها السلطات أن ترد لليهود الى انجلترا . وقده لترجمة لاتينية للكتاب بمقدمة موجهة الى البرلمان الانجليزى ، وبين أن عودة اليهود الى وطنهم مسبقها طبقا لنبوءات الكتاب المقدس تشتبهم فى جميع الاقطار ، ورجا الحكومة الانجليزية أن تعين على

تحقيق هذا الشرط الاولى بقبول اليهود فى انجلترا والسماح لهم بممارسة دينهم وبناء مجامعهم . وأعرب عن أمله فى أن يؤذن له بالمجئ الى انجلترا ليسانع فى تكوين مجتمع عبرى .

وكان كرومويل ميالا لأجابة هذا الطلب ، فقال « ان تعاطفى عظيم مع هذا الشعب المسكين الذى اختاره الله وأعطاه ناموسه (٢٧) » . وبعث اللورد مدلسكس ، ربما ممثلا للبرلمان برسالة اقرار بالجميل وشكر « لأخى العزيز ، الفيلسوف العبرى ، منسى بن اسرائيل » . وزار السفير الانجليزى فى هولنده منسى ، فاستقبل بالموسيقى والصلاة العبريتين (أغسطس ١٦٥١) . ولكن فى أكتوبر أقر البرلمان قانون ملاحه وجه بشكل ظاهر ضد التجارة الهولندية ، وأفضت المنافسة التجارية الى الحرب الهولندية الاولى (١٦٥٢ - ٥٤) ، وكان على منسى أن يتريث حتى تواتيه الفرصة ، وتلقى « برلمان بيريون » (١٦٥٣) بالرضا طلبه المجدد ، وأرسل اليه اذنا بدخول انجلترا فى أمان ، فلما وضعت الحرب أوزارها أيد كرومويل الدعوة ، وفى أكتوبر ١٦٥٥ عبر منسى وابنه البحر الى انجلترا .

٣ - انجلترا واليهود

لم يكن مسموحا لليهود بالعيش فى انجلترا فى الفترة بين طردهم منها فى ١٢٩٠ وتقلد كرومويل السلطة فى ١٦٤٩ . وربما ظهر بعض الباعة اليهود المتجولين فى القرى ، وبعض تجارهم وأطبائهم فى المدن ، ولكن كل ما كان يعرفه الاليزابيثى تقريبا عن اليهود أو يراه فيهم كان مصدره الأقاويل أو المؤلفات المسيحية . من هذين المصدرين استقى مارلو شخصية باراباس وشكسبير شخصية شيلوك .

وطن بعض النفاذ (٢٨) أن شكسبير كتب « تاجر البندقية » استجابة لاقتراح من فرقته بالافادة من عاصفة العداء للسامية التى أثارها فى انجلترا حديثا قضية رودريجو لوبيز ، الذى أعدم عام ١٥٩٤ لما قبل من محاولته تسميم الملكة اليزابيث . وقد ولد لوبيز هذا فى البرتغال لأبوين يهوديين ، وأقام بلندن فى ١٥٥٩ ، وشق طريقه الى التفوق فى مهنة الطب . واستخدمه إيرل ليستر طبيبا له ، فاتهم

مساعدته على التخلص من أعدائه بالسم ، وفى ١٥٨٦ أصبح كبير
طباء الملكة . وقد عالج فيمن عالج إيرل اسكس الثانى ، ولكنه أثار
عداءه لأنه إفتى سر علله . وحوالى ١٥٩٠ انضم الى فرانسس
والسنجهام فى دسائس مع بلاط أسبانيا ضد دوم أنطونيو ، المطالب
بعرش البرتغال ، وتلقى خاتما من الماس قدر يومها بائة جنيه ، من
عملاء فيليب الثانى فيما يبدو . وفى ١٥٩٣ قبض على اسطفان داجاما
فى بيت لوبيز بتهمة التآمر على أنطونيو ، وقبض على آخرين ،
واتهمت بعض الاعترافات لوبيز بالاشتراك فى مؤامرة ضد اليزابث .
ونزعم انهام الطبيب اسكس ، الذى كان يؤيد أنطونيو ، فلما وضع
نوبيز على دولاب التعذيب ، اعترف بأنه تلقى وتكتم عرضا بخمسين
آلف دوكانية ليدس السم للملكة ، ولكنه زعم أنه لم يقصد الا لسلب مال
ملك أسبانيا . فشقق هو واثنان آخران وأفرغت أحشاؤهم وقطعوا
ترباعا . وقد أعلن وهو يلفظ أنفاسه أنه يحب الملكة ويحب المسيح ،
وهو ما أثار احتقار المتفرجين (٢٩) . وأخرج شكسبير ، الميال الى
اسكس ، « تاجر البندقية » بعد هذا الاعدام بشهرين ، ولا بد أن كثيرا
من المستمعين للمسرحية لاحظوا أن اسم الضحية التى أراد شيلوك
البطش بها كان أنطونيو .

وقد خفف انتشار الكتاب المقدس ، الذى عجلت به ترجمة الملك
جيمس ، من حدة العداء لليهود لأنها وثقت معرفة إنجلترا بالعهد القديم .
وتغلغت أفكار العبرانيين القدماء ومشاعرهم فى فكر البيبورتان
وعباراتهم . وبدت لهم حروب اليهود صورة سابقة لحروبهم مع تشارلز
الاول ، وكان يهوه رب الجنود - على نحو ما - أنسب لحاجاتهم من
ملك السلام الذى جاء وصفه فى العهد الجديد . ورسم الكثير من الكتاب
لبيبورتانبة أسد يهوذا على راياتهم ، وسار أعوان كرومويل « ذوو
الجوانب الحديدية » الى المعركة وهم يتغنون بأغاني كتابية . واذ قبل
لبيبورتان أدب التوراة الرائع على أنه كلمة الله بحذافيرها ، فانهم
تحسوا بأنهم مضطرون الى الاعتراف باليهود مختارين من الله ليكونوا
المتسلمين المباشرين لوحيه ، وأخبر أعظم منهم شعب كنيسه أن اليهود
ينبغى أن يظلوا مكرمين باعتبارهم مختارى الله ، وسمى بعض جماعة
« المسوين » أنفسهم يهودا (٣٠) . وشعر كثير من البيبورتان أن تأكيد
المسيح الصريح لنا موسى موسى يرجح رفض بولس اياه ، وحملوا جميع

المسيحيين المتمسكين بالكتاب المقدس على الالتزام بممارسة ذلك الناموس . واقترح احد قادة البيورتان ، وهو اللواء توماس هاريسون ، وكان من الصق مساعدى كرومويل به ، جعل الشريعة الموسوية جزءا من القانون الانجليزى (٣١) . وفى ١٩٤٩ قدم مشروع قانون لمجلس العموم بتغيير يوم الرب من الاحد الوثنى الى السبت اليهودى . فالانجليز أيضا هم الآن - فى زعم البيورتان - شعب الله المختار .

وكانت جماعة صغيرة من المارانز سكنت لندن على عهد جيمس الاول (١٦٠٣ - ٢٥) . وكانوا أول الأمر يُختلفون الى الصلوات المسيحية ، ولكنهم بعد ذلك لم يعبأوا باخفاء ولائهم لليهودية . وشارك المالئون اليهود أمثال انطونيو كارفاجال فى تلبية حاجات البرلمان الطويل والجمهورية للمال (٣٢) . فلما تقلد كرومويل السلطة استخدم التجار المارانز مصادر للمعلومات الاقتصادية والسياسية المتصلة بهولندة وأسبانيا ، ولاحظ فى شيء من الحسد ما أصابته التجارة الهولندية من توفيق يرجع بعضه الى تدفق اليهود وعلاقاتهم الدولية .

وبعد أن وصل منسى بن اسرائيل الى انجلترا بقليل استقبله كرومويل ، ووضع مسكنا فى لندن تحت تصرفه . وقدم منسى ملتصبا ، ونشر عن طريق الصحف « اعلانا » بالمبررات الدينية والاقتصادية الداعية للأذن اليهود بدخول انجلترا . وبين السبب فى أن اليهود اضطرتهم القيود القانونية ، وعدم أمنهم المادى والمالى ، الى الزهد فى الزراعة والاقبال على التجارة . وأشار الى أن يهود أمستردام يرتزقون من الاستثمار فى التجارة لا من اقراض المال ، وأنهم لا يتعاملون بالربا بل يضعون أموالهم السائلة فى مصارف ويقتنعون بفائدة قدرها خمسة فى المائة على ودائعهم . ودلل على انعدام أى اساس للأسطورة التى زعمت أن اليهود يقتلون الاطفال المسيحيين ليستعملوا دمههم فى الشعائر الدينية . وأكد للمسيحيين أن اليهود لا يبذلون محاولات ليقتنوا الناس عن دينهم . واختتم بطلب السماح لليهود بدخول انجلترا ، شريطة أن يقسموا يمين الولاء للملكة ، وبأن يمنحوا الحرية الدينية ، والحماية من العنف وأن يقضى احبارهم وقوانينهم فى خلافاتهم دون اضرار بالقانون والمصالح الانجليزية .

وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٥ ، جمع كرومويل فى هوايتهول مؤتمرا من الفقهاء وكبار الموظفين ورجال الدين للبحث فى قبول اليهود . ودافع هو شخصيا عن الفكرة بقوة وفصاحة ، مؤكدا الجانب الدينى والاقتصادى اذ لا بد من تبشير اليهود بالانجيل الطاهر ، ولكن « أنستطيع تبشيرهم اذا لم نحتمل عيشهم بين ظهرانينا (٣٣) ؟ » ولم تلق حججه تعاطفا كثيرا . وأصر رجال الدين على أن لا مكان لليهود فى دولة مسيحية . واعترض ممثلو التجارة بأن التجار اليهود سينتزعون التجارة والثروة من أيدي الانجليز . وقرر المؤتمر أن اليهود لا يستطيعون المقام فى انجلترا « الا بأذن خاص من سموه (٣٤) » .

لقد كان الرأى العام معاديا لقبولهم عداء طاغيا . وذاعت شائعات زعمت أن اليهود اذا سمح لهم بدخول انجلترا سيحولون كثرائية القديس بولس الى مجمع يهودى . وأصدر وليم برين (١٦٥٥ - ٥٦) كتابا سماه « اعتراض موجز » جدد فيه الاتهامات القديمة لليهود بأنهم يزيفون العملة ويقتلون الاطفال ، وكان قد أثار زوبعة قبل ذلك بعشرين سنة بهجومه على المسرح الانجليزى فى كتابه *Historiomastix* ورد بيورتانى متحمس يدعى توماس كوليز على برين ، ولكنه أضعف حججه بمطالبته باكرام اليهود باعتبارهم شعب الله المختار . ونشر منسى نفسه (١٦٥٦) « دفاعا » ناشد فيه روح الانصاف فى الشعب الانجليزى . وقال « يستطيعون حقا أن يصدقوا «تلك الفرية العجيبة الرهيبة... التى تزعم أن اليهود اعتادوا الاحتفال بعيد الفطير ، بتخميره بدم بعض المسيحيين الذين قتلوهم لذلك الغرض ؟ » وقال كم من مرة فى التاريخ افترى شهود الزور بمثل هذه التهم أو لم يؤيدها غير اعترافات انتزعت بالتعذيب ، وكم من مرة وضحت براءة اليهود المتهمين بها بعد اعدامهم . ثم اختتم بايمان وحرارة مؤثرين قائلا :

« والى الشعب الانجليزى الأكرم أرفع رجائى المتواضع بأن يعيدوا قراءة حججى دون تحيز ، ... مسلما نفسى تماما الى فضلهم ورضاهم ، متضرعا الى الله بحرارة أن يتفضل ويعجل بالوقت الذى وعد به (النبى) صفياء ، يوم نخدمه تعالى جميعا برأى واحد ، وبطريقة واحدة ، ويكون لنا كلنا رأى واحد ، وأنه بما أن اسمه واحد ، فكذلك تكون مخافته واحدة ، ونرى جود الرب (تبارك اسمه الى الابد) وتعزيات صهيون (٣٥) » .

ولكن الدعاء لم يكسب الشعب الانجليزى ، ولم يظفر منسى بقبول
رسمى لليهود . وطرح كرومويل المشكلة جانبا فى غمرة جهوده لحماية
حكومته وحياته ، ولكنه أجاز منسى بمعاش سنوى قدره مائة جنيه (لم
يدفع قط) من الخزانة العامة . وفى سبتمبر ١٦٥٧ مات ابن منسى .
وأعانتته منحة من حامى الجمهورية على نقل جثة ولده الى هولنده
لدفنها ، ولكن « الرسول المبعوث الى انجلترا » مات فى مدلبورج
فى ٢٠ نوفمبر بعد أن أعياه السفر وهذه الحزن ، غير مخلف من المال
ما يكفى لتشجيع جنازته .

على أنه فى واقع الامر لم يفشل فى مهمته . كتب ايفلين فى
« يوميته » تحت يوم ١٤ ديسمبر ١٦٥٥ « الآن قبل اليهود » لم يبح
عودتهم الى انجلترا شرعا أى مرسوم من حامى الجمهورية ، أو قانون
من البرلمان ، ولكن أعدادا متزايدة دخلت بموافقة كرومويل الصامتة .
وفى ١٦٥٧ سمح لليهود لندن ببناء مقبرتهم الخاصة بوصفهم يهودا
لا مسيحيين ، وما لبثوا أن افتتحوا مجمعا ومارسوا شعائهم فى
هدوء . فلما عادت الملكية الى انجلترا ، تذكر تشارلز الثانى الدعم
المالى الذى تلفاه فى منفاه بهولنده من منديس دا كوستا وغيره من
العبرانيين ، وأدرك المنافع التى حصلت عليها انجلترا من المشروعات
التجارية التى اضطلع بها يهود لندن ، فأغضى عن المزيد من الهجرة
اليهودية لانجلترا . وواصل وليم الثالث هذا الموقف التسامح وهو يذكر
كذلك معونة اليهود ، وذلك برغم شكاوى التجار ورجال الدين الانجليز
المتكررة . واكتسب سليمان مدينا أول لقب فروسية يهودى بخدماته
متعهدا للجبس لوليم الثالث . وملبره (٣٦) . وما أقبلت سنة ١٧١٥ حتى
كان السماسرة اليهود يعملون فى سوق لندن المالية ، والماليون اليهود
قوة صعبة فى البلاد . وفى عام ١٩٠٤ احتفل اليهود الانجليز
بالذكرى الثلاثمائة لمولد منسى .

٤ - الأشكنازيم

فى سنة ١٥٦٤ كانت بقية لا يستهان بها من المستوطنات اليهودية
حاقية فى ألمانيا لا سيما فى فرانكفورت - أم - مين ، وهامبورج ،
موفورمز ، برغم للحملات الصليبية الوسيطة ومئات الانقلابات . غير أن

حركة الإصلاح البروتستنتى لم تكن قد خففت من تلك الكراهية التى أحس بها المسيحيون نحو شعب غريب لم يستطع أن يقبل المسيح على أنه ابن الله ، بل زادت حدة . ففى فرانكفورت حرم على اليهود أن يبرحوا حيهم الا لأمر عاجل ، ولم يكن مباحا لهم استضافة زوار من خارج المدينة دون علم القضاة ، وكان عليهم أن يضعوا على ملابسهم شعارا أو لونا خاصا ، وأن تحمل بيوتهم علامات مميزة كثيرا ما كانت غريبة قبيحة المنظر . وقد اشترت رشوة موظفى المدينة أحيانا الاعفاءات من هذه القيود المذلة ، ولكن عداء أفراد الشعب البسطاء كان خطرا دائما يهدد حياة اليهود وممتلكاتهم . مثال ذلك ما حدث فى سبتمبر ١٦١٤ حين اقتحم جمع مسيحي باب حى اليهود بينما كان معظم يهود فرانكفورت يقيمون الصلاة ، وبعد أن استمتعوا بلبلة من النهب والتدمير ، أجبروا ١٣٨٠ يهوديا على مبارحة المدينة دون أن يحملوا من المتاع الا ما على أجسادهم من ثياب . وأطعمت عدة أسر مسيحية اللاجئين وآوتهم ، وألزم رئيس أساقفة مينز بلدية فرانكفورت بردهم لبيوتهم ، ونعويضهم عن خسائرهم ، وشنق زعيم الغوغاء (٣٧) . وبعد سنة قامن حركة مماثلة فى فورمز ، فطردت اليهود من المدينة وانتهكت حرمة مجامعهم ومدافنهم ، ولكن رئيس أساقفة فورمز وأمير هسي - دارمشتات قدما الملجأ للمنفيين ، وبسط عليهم ناخب بالاتين حماينه فى رجوعهم . ويمكن القول عموما ان كبار الاكليروس وأفراد الطبقات العليا كانوا مبالين للتسامح ، ولكن صغار الاكليروس وجماهير الشعب كان من السهل اتارتهم واشعال نار الحقد فى نفوسهم . وكانت القيود القديمة - حتى بعد تخفيفها - مصلطة أبدا فوق رعوس اليهود ، واحتمالات الاهانة والأذى ماثلة فى أى يوم . وكان بعض المسيحيين الغيورين يخطفون الاطفال من فوق صدور أمهاتهم ويعمدونه بالكراه (٣٨) . حقا لولا الجهل لما كان للتاريخ وجود .

وتركت حرب الثلاثين يهود ألمانيا فى سلامة نسبية . فقد استغرق البروتستنت والكاثوليك فى قتل بعضهم البعض استغراقا كاد ينسيهم أو يقتلوا اليهود ، حتى ولو كانوا أقرضوهم مالا . وكان الامبراطور فرديناند الاول قد فرض لوائح ثقيلة على يهود النمسا ، وطردهم من بوهيميا (١٥٥٩) ، ولكن فرديناند الثانى حماهم ، وسمح لهم بأن

حبنا مجمعا فى فيينا الكاثوليكية وأن يخلعوا شعاراتهم ، وأباح رجوع اليهود الى بوهيميا . وتعهد يهود بوهيميا بدفع أربعين ألف جولدن كل عام اسهاما منهم فى القضية الامبراطورية فى تلك الحسب الكبيرة . ورغبة فى تهدئة خواطر المسيحيين الذين تدمروا من سياسة فرديناند الثانى المتسامحة ، أمر (١٦٣٥) بأن يستمع يهود براغ كل أحد للعظات المسيحية ، وفرض الغرامات عقابا للتهرب أو النوم أثناء العظات .

واتسعت المستوطنات العبرية فى ألمانيا بسرعة بعد صلح وستفاليا . فقد سوت فظائع الحرب الى حد ما سمعة التعصب والاصطهاد . وأقبل مئات اليهود من بولنده بعد المذابح المنظمة التى تلت ثورة القوزاق التى نشبت فى ١٦٤٨ . وفيما بين عامى ١٦٧٥ و ١٧٢٠ كان يختلف الى سواق لبيزج من التجار اليهود كل سنة ٦٤٨ ناجرا فى المتوسط . واستعان الامراء الالمان بالمهارة اليهودية فى ادارة مالياتهم وتنظيم تموين جيوشهم وقصورهم . مثال ذلك أن صموئيل أو بنهايمر أشرف على المالية الامبراطورية خلال الحملات التى اختتمت بها القرن السابع عتر ، وأشرف سمسون فرتايمر على القوميسارية الامبراطورية فى حرب الوراثة الاسبانية . وكان من أثر نفوذ الامبراطورة مارجريت تريزا ، الاسبانية المولد اليسوعية الروح ، على زوجها ليوبولد الاول أنه أمر بنفى اليهود من النمسا ، ولكن الناخب الأكبر فردريك وليم رحب بكثير من المنفيين فى براندنبورج ، ونمت الجالية اليهودية فى برلين حتى غدت من أكبر الجاليات فى أوربا .

ومنذ القرن الثانى عشر كان يهود وسط أوربا يطورون لهجتهم « Yiddish » البيديية المؤلف معظمها من ألفاظ ألمانية مع اضافات عبرية وسلافية ، والمكتوبة بأحرف عبرية . وواصل اليهود المتعلمون دراسة العبرية ، ولكن المطبوعات العلمانية التى نشرها الاشكنازيم أصبح معظمها بالبيديية . وظهر أدب ييدى ، غنى بالفكاهة المرة والعاطفة البتية ، فى قصص شعبية منقولة عبر القرون والحدود ، وفى تمثيلات قصيرة Purimspiele المهرحان الربيع المرح ، وفى أمثال من الحكمة البسيطة (كقولهم « أب واحد بعول عشرة أبناء ، ولكن عشرة أبناء لا يعولون أب واحد ») (٣٩) . وقبل ١٧١٥ لم يكن فى استطاعة هذا اللاد أن يفاخر الا بمؤلف مرموف واحد ، هو أبليا بوشر ، وهو عالم

فى العبرية وشاعر بالبيدية ، كتب رومانسيات غريبة فى مقطوعات
مانية من الشعر ottava rima وترجم المزامير الى لغة الشعب .
وظهرت ترجمة ييدية للاسفار الموسوية الخمسة فى ١٥٤٤ ، بعد خمسة
عشر عاما فقط من ترجمة لوثر الالمانية للكتاب المقدس ، ونشرت ترجمة
بيدية للعهد القديم كله بأمرستردام فى ١٦٧٦ - ٧٩ . لقد كان اليهود
الآلمان فى طريقهم الى زعامة شعبهم الثقافية .

وفى القرن العاشر دخل اليهود بولنده من ألمانيا وزكوا وتكاثروا
تحت حماية الحكومة رغم المذابح العارضة ، وفى ١٥٠١ كان هنا نحو
خمسین ألف يهودى فى بولنده ، وفى ١٦٤٨ نصف مليون (٤٠) ،
وباصر الاعيان szlachta الذين يهيمنون على مجلس الأمة
اليهود ، لأن الملاك تبينوا فيهم كفاية خاصة فى جمع الايجارات وجباية
الضرائب وادارة الضياع ، وكان حكام بولنده فى القرنين السادس عشر
والسابع عشر ، فيما عدا قلة منهم ، من أكثر ملوك زمانهم تسامحا . فأصدر
ستيفن باتورى مرسومين يؤكدان الحقوق التجارية لليهود ، ويدمغان
تهم القتل الطقسي التى يرمى بها اليهود بانها « افتراءات » قاسية
لا يسمح بها فى المحاكم البولندية (١٥٧٦) (٤١) . ولكن عداء الشعب
لليهود لم يخف . فلم ينقض عام واحد على هذين المرسومين حتى هاجم
جمع من الغوغاء الحى اليهودى فى بوزنان ، ونهبوا البيوت ، وقتلوا
كثيرا من اليهود . وفرض باتورى غرامة على موظفى المدينة لفشلهم فى
وقف الشعب . وواصل سجسند الثالث سياسة التسامح الملكى .

وتضافر عاملان لانهاء هذا العهد الذى توافرت فيه حسن نية
الحكومة قبل اليهود . أولهما أن التجار الآلمان فى بولنده كرهوا منافسة
اليهود لهم ، فاشعلوا ثورات شعبية فى بوزنان وفيلنو ، حيث هدم
مجمع لليهود ونهبت بيوت اليهود (١٥٩٢) ، وقدموا للملك ملتمسا
de non tolerandis Judaeis بعدم التسامح مع اليهود (١٦١٩) .
وانصم الى الحملة لوقف التسامح اليسوعيون الذين استقدمهم باتورى
وما لبثوا أن تولوا القيادة الفكرية للكاثوليك فى بولنده . وظفرت
اتهامات اليهود بالقتل الطقسي باعتراف الحكومة بها الآن . وفى ١٥٩٨
عثر فى لوبلن على جثة صبي فى مستنقع ، فأكره ثلاثة يهود بالتعذيب
على الاعتراف بانهم قتلوه ، ثم شنقوا وانتزعت أحشائهم وقطعوا

أرباعا ، وأصبح جتمان الصبى الذى حفظ فى كنيسة كاثوليكية محر
الاجلال الدينى . وازدادت المؤلفات المعادية للسامية صراوة عن
ذى قبل .

وفى ١٦١٨ ستر سبستيان مبشنى الكراكاوى كتب اسم « من -
للناح البولندى » اتهم فيه اليهود بقتل الاطفال ، والسحر ، والسرفه ،
والنصب ، والخيانة ، ودعا مجلس الامة لطرد جميع اليهود من بولنده .
وانار الكنبب الشعور العام اثاره حملت سجموند على مصادره . وابيه
طبيب من بولندى الأطباء اليهود بتسيم الكاثوليك بشكل منظم .
(١٦٢٣) وأمر الملك لاديسلاس الرابع السلطات البلدية بأن تحمى
اليهود من الثورات الشعبية ، وحاول التخفيف من عداء المسيحيين له .
يمنع اليهود من السكنى فى الاحياء المسيحية ، أو بناء مجامع جديدة ،
أو فتح مدافن جديدة ، دون ترخيص ملكى . وألزم برلمان ١٦٤٣ جمع
التجار بالا تتجاوز أرباحهم ٧ ٪ ان كانوا مسيحيين ، و ٣ ٪ ان كانوا
يهودا ، وكانت النتيجة أن المسيحيين أقبلوا على الشراء من اليهود
فأثروا وأثاروا مزيدا من الحقد .

وتكاثر اليهود البولنديون برغم الكراهية والفيود والسدائد والفقير
وبسوا المعابد والمدارس ، وتناقلوا تقاليدهم وأخلاقهم ونواميسهم التي
أعانتهم على الاستقرار ، وصانوا ايمانهم المعزى . ونظم المدارس
الأولية معلمون خصوصيون ينقدهم الآباء أجورهم بواقع التلميذ
والفترة ، أما التلاميذ العاجزون عن الدفع فان معظم الجاليات اليهودية
أنفقت على مدرسة خاصة بهم من الاموال العامة . وكان حضور المدرسة
الأولية الزاميا على الصبية من السادسة الى الثالثة عشرة . ووفر التعليم
العالى فى كلية (يشيبا) يشرف عليها الأخبار . وفيما يلى وصف
للنظام بقلم حبر معاصر (١٦٥٣) :

« كانت كل جالية يهودية تعول طلاب الكلية (الباهور) وتمنحهم
قدرا من المال كل أسبوع . . . ويكلف كل طالب من هؤلاء الباهور بتعلم
هبيين على الأقل . . . فالجالية ذات الخمسين أسرة يهودية تعول
ما لا يقل عن ثلاثين من هؤلاء الشباب والصبيان ، فتوفر الأسرة الواحدة
الطعام لطلاب كلية وتلميذه ، ويجلس الطالب الى مائدة الأسرة كواحد

من أبنائها... وندر أن وجد بيت... لم تدرس فيه التوراه ، أو لم يكن رب البيت ، أو ابنه ، أو صهره ، أو طالب الكلية الذى يتناول الطعام على مائدته ، خبيراً فى الثقافة اليهودية (٤٢) » .

ونحن اذا نظرنا الى تعليم اليهود البولنديون وأدبهم من وجهة نظرنا الحديثة والعلمانية ، وجدناهما ريانيين بشكل ضيق ، لأنهما بكادان يقتصران على التلمود ، والتوراة ، والقبلانية ، والعبرية ، ولكن لما كان التلمود مشتملا على الشريعة اليهودية اشتماله على الدين والتاريخ اليهوديين ، فقد صلح أداة لضبط الذهن ضبطا صارما متعمقا . وما من ريب فى أن الجاليات المطاردة شعرت بأنه لا يولد فيهم القوة على احتمال التعبير والاضطهاد والشدائد والمخاطر المتصلة غير الايمان الدينى الحار ، والدراسة التى تمد جذورها فى تقاليد الشعب اليهودى وعاداته . وقد ظل اليهود البولنديون يعيشون كأنهم فى العصور الوسطى حتى أصبحت الحداثة حديثة بقدر يكفى لاعطائهم الحرية - أو الموت .

وجاءهم عام ١٦٤٨ بتذكير رهيب لهم بوضعهم القلق فى العالم المسيحى . ذلك أن الثورة التى تفجرت آنذاك بين القوزاق ضد ملاكهم البولنديين و اللتوانيين وقعت وطأتها على كاهل اليهود الذين كانوا يعملون وكلاء للضياع أو جباة للضرائب . فذبح الآلاف منهم فى بيرياسلاف ، وبيرياتين ، ولوبنى ، وغيرها من المدن ، سواء كانوا يخدمون النبلاء أو لا يخدمونهم . واحتفظ بعضهم بحياتهم اما باعتناقهم مذهب الروم الارثوذكس ، واما بالالتجاء الى التتار الذين باعواهم عبدا . وقد اشتط غيظ القوزاق المكبوت فأتسم بشراسة لا تصدق . يقول مؤرخ روسي :

« كان القتل مصحوبا بضروب من التعذيب الهمجى : فكان الضحايا تسلخ جلودهم أحياء ، أو يمزقون أربا ، أو يضربون بالهراوات حتى يموتوا ، و يشوون على الجمر ، أو يحرقون بالماء المغلى ... على أن أبشع ألوان القسوة أصاب اليهود . فقد حكم عليهم بالإبادة الكاملة ، وكانت أقل علامة على الرأفة بهم تعتبر خيانة . وانتزع القوزاق لفافات الشريعة من الجامع وراحوا يرقصون عليها وهم

يشربون الوسكى . ثم طرحوا عليها اليهود وذبحوهم بغير رحمة .
ولقى آلاف الاطفال اليهود فى الكبار أو أحرقوا أحياء (٤٣) » .

وروى أن ٦٠٠٠ يهودى هلكوا فى هذه الثورة فى مدينة واحدة
هى نيميروف . وفى تولشيمن حوصر ١٥٠٠ يهودى فى حديقة عامة
وخيروا بين اعتناق المسيحية أو الموت ، وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخ
الأخبارى اليهودى فان ١٥٠٠ اختاروا الموت . وقيل ان ١٠٠٠٠ (؟)
يهودى فى مدينة بولونوى قتلهم القوزاق أو أسرهم التتار . ونشبت فى مدن
أوكرانية أخرى مذابح منظمة أقل شأنا . ولما تحالف القوزاق مع روسيا
بعد أن تصدى لهم الجيش البولندى (١٦٥٤) ، انضم الجنود
المسكوفيون الى القوزاق فى قتل أو طرد يهود موجيليف ، وفيتيبسك ،
وفيلنو ، وغيرها من المدن التى انتزعت من اللتوانيين أو البولنديين .

وفى ١٦٥٥ خلق غزو شارل العاشر ملك السويد لبولنده مشكلة
أخرى لليهود . ذلك أنهم ككثيرين من البولنديين قبلوا الفاتح السويدى
دون مقاومة ، منقذا لهم من الروس المرهوبين . فلما قام جيش بولندى
جديد وطرد السويديين ، ذبح اليهود فى جميع أرجاء ولايات بوزنان ،
وكاليتس ، وكراكاو ، وبيوتركوف ، فيما عدا مدينة بوزنان ذاتها . وعلى
الجملة كانت هذه الكوارث التى منى بها اليهود من ١٦٨٤ الى ١٦٥٨
فى بولنده ولتوانيا وروسيا ، حتى عصرنا الحاضر ، أدمى الكوارث فى
تاريخ اليهود الأوربيين ، ففاقت فى هولها وضحاياها مذابح الحروب
الصليبية ، والموت الاسود . وقد حسب تقدير متحفظ أن ٣٤٧١٩
يهوديا ماتوا ، و ٥٣١ جالية يهودية أبيدت (٤٤) . هذا العقد الفاجع
هو الذى بدأ هجرة اليهود الجماعية من الاراضى السلافية الى أوربا
الغربية وأمريكا الشمالية ، مما أسفر عن توزيع جديد كامل للسكان
اليهود على سطح الارض .

وفى بولنده عاد من بقى من اليهود على قيد الحياة الى بيوتهم
وأعادوا فى صبر بناء جالياتهم التى دمرت . وأعلن الملك يوحنا كازيمير
عن عزمه على تعويض رعاياه اليهود قدر استطاعته عن النكبات التى
تحملوها ، فمنحهم مراسيم جديدة بالحقوق والحماية ، واعفاء مؤقتة
من الضرائب فى تلك المراكز التى اشتد كرها . ولكن العداء الشعبى

واللاهوتى ظل قائما ، تخفف منه المواساة المسيحية بين الحين والحين .
ففى ١٦٦٠ أعدم حبران بالتهمة القديمة التى طالما استنكرها البابوات ،
وهى تهمة القتل الطقسي ، وفى ١٦٦٣ لقي صيدلى يهودى فى كركاو
الموت بتهمة لم تثبت عليه ، وهى أنه كتب هجاء يندد فيه بعبادة مريم
العذراء ، وكان موته بالترتيب الهمجى الذى قضت به المحكمة : فبترت
شفاته ، وأحرقت يده ، وقطع لسانه ، وأحرق جسده على
الخازوق (٤٥) . وارسل قائد الطريقة الدومنيكية من روما (٩ فبراير
١٦٦٤) رسالة يحض فيها الرهبان الدومنيكان فى كركاو « على الدفاع
عن اليهود التعساء ضد كل فرية تفترى عليهم (٤٦) » . وفى لفوف
غزا تلاميذ أكاديمية بسوعية حى اليهود ، وقتلوا مائة منهم ، وهدموا
البيوت ، وانتهكوا حرمة المحامع (١٦٦٤) ، ولكن الطلبة اليسوعيين
فى فيلنو حموا اليهود من الغوغاء محدثى الشغب (١٦٨٢) (٤٧) .
وحاول سوبيسكى السمع الكريم (١٦٧٤ - ٩٦) جاهدا أن يطيب
خاطر يهود بولنده ، فأكد من جدد حقوقهم المنتهكة ، وحررهم من
قضاء السلطات البلدية الخاضعة لعواطف الجماهير ، واستمع فى تعاطف
الى المندوبين الذين قدموا التماسات اليهود الى بلاطه . فما اختتم
حكمه حتى كان اليهود البولنديون قد أفاقوا ، عدديا ، من ذلك العقد
القاسى ، ولكن أهواله ظلت عالقة أجيالا بذاكرة اليهود .

لم يكن فى روسيا ، قانونا ، يهود قبل ١٧٧٢ . وقد أبدى ايفان
الرهيب رأيه فيهم فى جوابه على طلب رجاه فيه سجسوند الثانى أن
يسمح لليهود اللتوانيين بدخول روسيا للمتاجرة (١٥٥٠) :

« ليس من المناسب السماح لليهود بالمجئ الى روسيا بسلعهم لأن
شرورا كثيرة تنجم عنهم . ذلك أنهم يدخلون الاعشاب السامة الى
مملكتنا ، ويفتنون الروس عن المسيحية . اذن ينبغى له (أى الملك)
الا بعيد الكتابة عن هؤلاء اليهود (٤٨) » .

ولما احتل الجيش الروسى مدينة الحدود البولندية بولوتسك
(١٥٦٥) ، أرسل ايفان أوامره بتحويل اليهود المحليين الى
المسيحية ، أو اغراقهم . وحين نشبت الحرب بين روسيا وبولنده فى
١٦٥٤ أدهش الروس أن يجدوا مدنا كثيرة فى لتوانيا وأوكرانيا بها

أقسام كاملة أهلة باليهود . فقتلوا بعض هؤلاء « المهرطقين الخطرين » ، وأخذوا بعضهم أسرى الى موسكو ، حيث أصبحوا نواة لمستوطنة يهودية صغيرة غير شرعية . وفى ١٦٩٨ تلقى بطرس الأكبر وهو فى هولنده عن طريق عمدة أمستردام ، ملتمسا مقدما من بعض اليهود يرجونه فيه السماح لهم بدخول روسيا ، وكان جوابه :

« عزيزى ويتسن ، انك تعرف اليهود ، وتعرف أخلاقهم وعاداتهم ، وكذلك تعرف الروس . وأنا أعرف الاثنين ، وصدقنى أن الوقت لم يحن للجمع بين القوميتين ~ فقل لليهود انى شاكر لهم اقترحهم ، واننى مدرك كم ستفيدنى خدماتهم ، ولكنى مشفق عليهم ان يعيشوا بين ظهرائى الروس (٤٩) » .

وظلت هذه السياسة الروسية ، سياسة ابعاد اليهود ، معمولا بها حتى الملتمس البولندى الأول (١٧٧٢) .

٥ - الهامات الايمان

لا بد لى نفهم عداء المسيحيين لليهود أن نفخذ الى ذهن كاثوليك العصور الوسطى وبروتستنت حركة الاصلاح الدينى . لقد تذكروا صلب المسيح ، ولكنهم لم يتذكروا جموع اليهود العريضة التى استمعت فى فرح الى المسيح ورحبت به فى دخوله اورشليم . وآمنوا بيسوع ذلك « المسوح » ، ابن الله ، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يروا فى المسيح ذلك المسيا الذى وعدهم به أنبيأؤهم ، والمخلص الذى سيحررهم من رقهم ويجعلهم من جديد شعبا حرا مرفوع الرأس . وكان عسيرا على المسيحيين ان ينظروا نظرة التسامح الأخوى الى قلة لم تكن وحدانيتهم منافسا بعيدا كوحداية الاسلام ، بل صرخة حارة ، تسمع من مجامع نتكاثر فى قلب العالم المسيحى - « أصغ يا اسرائيل ! الرب الهنا واحد ! » وشعر المسيحيون أن العقيدة السامية المتكبرة هى تحد مائل أبدا للايمان المسيحى الاساسي ، الايمان بأن ابن الانسان الذى مات على الصليب هو فى كل الحق ابن الله ، الذى كفرت ذبيحته غير المحدودة عن خطايا الانسان ، وفتحت له أبواب الفردوس . أيمن أن يكون فى الحياذ شيء أثمن وأعظم تشديدا للنفس من ذلك الايمان ؟

ولكى يحمى مسيحيو أوروبا ذلك الايمان حاولوا عزل اليهود
بالحواجز الجغرافية ، والقيود السياسية ، والرقابة الفكرية ، والاغلال
الاقتصادية . فلم يسمح لهم بالمواطنة الكاملة وبحقوقها فى أى بلد فى
أوروبا المسيحية قبل الثورة الفرنسية - ولا حتى فى أمستردام . وحيل
بينهم وبين الوظائف العامة ، والجيش ، والمدارس والجامعات ،
والاشتغال بالقانون فى المحاكم المسيحية . وفرضت عليهم الضرائب
الباهظة ، وتعرضوا للقروض الاجبارية ، ولمصادرة ثروتهم فى أى
وقت . وأبعدوا عن الزراعة بقيود على ملكية الأرض ، وبانعدام الأمن
الذى ما برح ملازما لهم والذى أكرههم على وضع مدخراتهم فى النقد
أو السلع المنقولة . وحرّموا من الانضمام للطوائف الحرفية لأنها كانت
من بعض الوجوه دينية شكلا وهدفا ، واشترطت اليمين والشعائر
المسيحية . واذ قصر نشاطهم على الصناعات الصغيرة ، وعلى التجارة
والمالية ، فانهم وجدوا أنفسهم مطاردين حتى فى هذه الاشغال
تحريمات خاصة تتفاوت بتفاوت المكان وتتغير فى أى وقت . ففى اقليم
حرم عليهم أن يكونوا باعة متجولين ، وفى آخر أن يتجروا فى
دكاكين ، وفى ثالث أن يتعاملوا فى الجلد أو الصوف (٥٠) . ومن ثم
عاش أكثر اليهود تجارا صغارا ، و باعة متجولين ، أو تجارا فى
البصائع المستعملة أو الثياب القديمة ، أو خياطين ، أو خداما لمواطنيهم
الأغنياء ، أو صناعا يصنعون السلع لليهود . ومن هذه الاشغال ، ومن
ذل العيش فى الغيت ، اكتسب فقراء اليهود عاداتهم تلك فى اللبس
والحديث ، وحيل التجارة وخصائص الذهن التى مجتها الشعوب
الأخرى والطبقات العليا من الناس .

ومن فوق هذه الكثرة المتواضعة كان الاحبار ، والاطباء ، والتجار ،
والماليون . وقد لعب نشاط المصدرين والمستوردين اليهود دورا هاما فى
نراء هامبورج وأمستردام . وكان جزء على اثنى عشر من تجارة
انجلترا الخارجية يمر بأيدى اليهود فى النصف الاول من القرن
السابع عشر (٥١) . وغلب العنصر اليهودى فى استيراد الجواهر
والمنسوجات من الشرق . وانتفع اليهود فى التجارة الدولية من علاقاتهم
الاسرية فى مختلف الدول ، ومن اجادتهم للغات ، وكان لهم مسالكهم
التي تصلهم منها المعلومات ، فهدتهم بين الحين والحين الى توقعات

نافعة فى السوق المالية (٥٢) . ومكنتهم هذه الاتصالات الأجنبية من تطوير خطابات الاعتماد والكمبيالات . ولم يكن اليهود بالطبع مخترعى الرأسمالية الحديثة ، فقد رأينا ذلك النظام ينمو مستقلا تمام الاستقلال عنهم ، وفى الصناعة أكثر منه فى المالية ، وكان دورهم حتى فى المالية صغيرا اذا قورن بدور آل مديتشي الفلورنسيين ، أو آل جريماليرى الجنوبيين ، أو آل فوجير الأوجزبورجيين . وكان مقرضو المال اليهود يتقاضون فوائد عالية ، ولكنها لم تكن أعلى مما يتقاضاه المصرفيون المسيحيون الذين يواجهون أخطارا معادلة .

واكتسب الذهن اليهودى ، الذى سحذته الشدائد والظلم والدراسة ، فى التجارة والمالية مقدرة مرهفة على الكسب لم يغتفرها لليهود منافسهم قط . ولم تر أخلاقيات اليهود فى الثروة أى عيب أو وصمة عار ، شأنها فى ذلك شأن أخلاقيات البيورitan . ورأى فيها الاحبار دعامة البر ، وعصب المجمع ، والملجأ الأخير اذا أريد الخلاص من أذى الملوك أو الجماهير المضطهدة . ومع ذلك فصحيح أنه وجد فى الجاليات اليهودية فى هولنده وألمانيا وبولنده وتركيا رجال جعلوا جمع المال مسرة نفوسهم لا مجرد أداة لحماية شعبهم ، واستعملوا فى جمعه الحيلة أكثر مما استعملوا الضمير ، وأظهروا بنى جلدتهم بذلك المظهر المزعج مظهر الثراء العريض يلوثه الترف الواضح ، ولا تكفر عنه أعمال البر الكبيرة الا جزئيا . ومن حولهم فى الغيت كان ثلث اخوانهم يعيشون فى فقر ، لا يحول دون تصورهم جوعا غير الصدقات (٥٤) .

ولقد عانى دين اليهود كما عانت أخلاقهم من فقر الحياة فى الغيت وانطوائها وهوانها . فالأحبار الذين كانوا فى العصور الوسطى رجلا ذوى شجاعة وحكمة ، أصبحوا فى هذا العصر أتباع صوفية تهرب من جحيم الاضطهاد والفاقة الى جنة الاحلام التعويضية . وقد حل التلمود فى العصور الوسطى محل النوراة روحا لليهودية ، اما الآن فقد حلت القبلانية محل التلمود . وزعم مؤلف فرانكفورتى من كتاب القرن السابع عشر أنه كان فى أبامه أحبار كثيرون لم يروا تورا قط (٥٥) . وكان سليمان لوريا (١٥١٠ - ٧٢) علامه عينت هذا الانتقال ، فقد بدا بالتلمود ، وبى عليه كتابه « يم شيل سلومو » (بحر سليمان) ، ولكن حتى ذهنه المرهف استسلم آخر الامر للقبلانية ، فقد كانت

« التقليد السرى » لتصوفة اليهود فى العصر الوسيط ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا وحيا الهيا مستترا فى رمزية الاعداد ، والحروف ، والألفاظ ، لا سيما فى الحروف التى يتألف منها اسم يهوه الذى لا ينطق به . وكان العالم تلو العالم فى الغيت يضل فى هذه الأوهام ، حتى لقد صرح أحدهم بأن من يهمل حكمة القبلانية السرية يستحق الحرم (٥٦) . يقول أكبر المؤرخين اليهود المحدثين انه فى القرنين السادس عشر والسابع عشر « خنقت القبلانية الطفيلية حياة اليهود الدينية بجمالها . وكل الاحبار وقادة الجاليات اليهودية تقريبا ... وقعوا فى شراكها » من أمستردام الى بولنده الى فلسطين (٥٧) .

وكان سند الحياة فى نظر اليهود المشتتين على هذا النحو ، والذين كثيرا ما كانوا معدمين مفترى عليهم ، هو الايمان بأنه فى يوم قريب سيأتى المسيا الحقيقى لينتشلهم من وهدة تعاستهم وعارهم ويرفعهم الى مكان القوة والمجد . ومن المؤسف أن نرى كيف كان دجال أو متعصب يظهر القرن بعد القرن فيقبله اليهود على أنه هذا المخلص الذى طال ارتقابهم له . ولقد رأينا فى موضع سابق من هذا الكتاب كيف أن داود روينى العربى هلك له عبرانيو البحر المتوسط فى ١٥٢٤ على أنه المسيا ، مع أنه هو نفسه لم يدع هذا . وها هو ذا يهودى من أزمير يدعى سبتاى زيفى ، يظهر عام ١٦٤٨ ويزعم أنه الفادى الموعود .

لقد بدا هذا المختار ، من الناحية الجسمية ، اختيارا جديرا بالاعجاب . فهو رجل طويل القامة ، حسن التكوين ، مليح الوجه ، له شعر الشاب الصفاردي ولحيته السوداءوان (٥٨) « اجتذبت كتابات سليمان لوريا الى القبلانية ، فأخضع ذاته لنظام صارم من النسك أملا فى أن يصبح بهذا جديرا بالتقليد السرى » فى أكمل اعلانه . فأذل جسده ، وأكثر من الاستحمام فى البحر فى جميع الفصول ، وغالى فى الاحتفاظ بنظافته حتى لقد احتفل أتباعه برائحة لحمه الزكية . ولم يشعر بميل للنساء ، وقد تزوج فى شبابه الباكر امثاللا للعرف اليهودى، ولكن زوجته ما لبثت أن طلقته لفشله فى أداء واجباته الزوجية . ثم تزوج ثانية ، بنفس النتيجة . والتف الشبان من حوله ، معجبين بصوته الرخيم وهو يرتل التراتيل القبلانية ، متسائلين أليس هذا قديسا مبعوثا من السماء . وكان أبوه أحد جماعة آمنّت بقرب مجيء المسيا -

وبان ذلك لن يتجاوز سنة ١٦٦٦ . وسمعهم سبتاي يتنبأون بأن الفداء العظيم سيأتى على يد رجل طاهر النفس شديد الورع ، ملم بأسرار القبلانية ، قادر على جمع شمل كل الابرار ليعيشوا فى عصر السلام الموعود . وخبل اليه ، بعد أن طهره الزهد ، أنه القادى الالهى . وكان « الظهر » ، وهو نص فى القبلانية يرجع الى القرن الثالث عشر ، قد حدد السنة اليهودية ٥٤٠٨ (١٦٤٨ الميلادية) فاتحه لعصر الفداء . فى تلك السنة أعلن سبتاي أنه المسيا ، وكان آنئذ فى الثانية والعشرين .

وصدقه رهط من مريديه . فادانتهم حاخامية أزميز باعتبارههم مجدفين ، ولكنهم أصروا ، فنعوا من المدينة . وانتقل سبتاي الى سالونيك ، وهناك أقام احتفالا قبلانيا زوج فيه نفسه للتوراة ، فطرده اُخبار سالونيك ، فمضى الى أثينا ، ثم الى القاهرة ، حيث ضم اليه تابعا عنبا يدعى رفائيل شلبى ، تم انتقل الى اورشليم ، وهناك وقع زهده موفعا طيبا حتى فى نفوس الاحبار . وأوفدت الجالية اليهودية فى اورشليم سبتاي ليلتمس المعونة فى القاهرة بعد أن أفقرها انقطاع الصدقات من يهود أوكرانيا المنكوبين . فعاد الى اورشليم مصحوبا لا بالمال بل بزوجة ثالثة تدعى ساره ، أضفى حسننها الاشراق على دعاواه وفى غزة - التى مر بها فى طريقه - انضم اليه تابع غنى آخر يسمى ناتان غزاتى ، أذاع أنه هو ذاته ايليا ، ولد من جديد ليقوم الطريق أمام المسبا ، وأنه لن ينقضى عام حتى يسقط المسيا السلطان العثمانى ويقيم ملكوت السماوات . وصدقه آلاف اليهود ، وأذلوا أجسادهم ليكفروا عن ذنوبهم ويصبحوا جديرين بالفردوس الارضى . فلما عاد سبتاي الى أزميز ، دخل عام ١٦٦٥ المجمع فى رأس السنة اليهودية ، وأعلن نفسه المسيا مرة أخرى . وقبله هذه المرة جمع غفير أخذته نشوة الفرح . فلما رماه حبر عجوز بأنه دجال نفاه سبتاي من أزميز .

وانتشر نبا مجيء المسيا فى أرجاء عربى آسيا فكهرب الجاليات اليهودية . وحمل البشرى تجار مصر وإيطاليا ، وهولنده ، وألمانيا ، وبولنده ، الى بلادهم ، وخبروا بالمعجزات التى نسبت الى سبتاي فى عدد متزايد . وتشكك بعض اليهود ، ولكن الآلاف صدقوا بعد أن أعدتهم لذلك النبوءات القبلانية والامال الحارة . لا بل ان بعض المسيحيين

شاركوهم الابتهاج ، وقالوا ان مسيا ازمير هو حقا المسيح المولود من جدبد . ذكر هنرى أولدنبرج فى رسالة من لندن الى سبينوزا (ديسمبر ١٦٥٥) أن « كل العالم هنا يتحدث عن شائعة عودة الاسرائيليين المشتتين منذ أكثر من الفى عام الى وطنهم . وقليلون يصدقون الخبر ، وكثيرون يتمنونه ... فاذا تأكد ، فربما أحدث ثورة فى كل تية (٥٩) » . وفى أمستردام أعلن أحبار بارزون ايمانهم بسبتاى ، واحتفل فى المجمع بمجىء الملكوت بالموسيقى والرقص ، وطبعت كتب الصلوات لتعلم المؤمنين ضروب التكفير والتراتيل الممهدة لدخول أرض الميعاد . ففى مجمع هامبورج راح العائدون اليهود من جميع الأعمار يثبون ويطفرون ويرقصون وفى أيديهم درج الناموس . وفى بولنده هجر يهود كثيرون بيوتهم وأماكنهم ورفضوا أن يشغلوا قائلين ان المسيا آت بنخصه سريعا وسيقودهم فى موكب النصر الى اورشليم (٦٠) . واتخذ آلاف اليهود أهبتهم للرحيل الى فلسطين - كان منهم أحيانا جاليات بأكملها ، كجالية أفنيون . واقترح بعض المتحمسين فى أزمير ، الذين أثار عواطفهم ذلك الولاء العالمى لزعيمهم ، أن توجه الصلوات اليهودية منذ الآن ، لا الى يهوه ، بل الى « ابن الله البكر ، سبتاى زيفى ، المسيا والغادى » (وكذلك كان المسيحيون يصلون للمسيح أو العذراء أكثر مما يصلون لله) . وأرسل أمر من أزمير بأن يحتفل منذ الآن بأيام الحداد المقدسة عند اليهود أعيادا للفرح ، وبأن كل فروض الناموس المضنية ستبطل سريعا فى أمن الملكوت وسعاده .

ويلوح أن سبتاى ذاته انتهى الى الايمان بقواه المعجزة . فاعلن أنه ماض الى الآستانة ، ولعل هدفه كان تحقيق نبوءة غزائى بأن المسيا سيأخذ فى هدوء تاج الدولة العثمانية (بما فيها فلسطين) من السلطان . (على أن بعضهم زعم أن القاضي التركى فى أزمير أمره بالثول بين أيدي كبار موظفى الدولة فى العاصمة) . وقبل أن يبرح سبتاى أزمير قسم العالم وحكومته بين أخلص معاونيه . ثم انطلق الى الآستانة فى أول يناير ١٦٦٦ وبرفقته نفر من مريديه . وكان قد تنبأ بتاريخ وصوله ، ولكن عاصفة عطلت سفينته . وقلب رفاقه خطاه الحسبى هذا الى برهان جديد على ألوهيته ، وقالوا انه أسكت العاصفة بكلمة الهية منه .

وما ان رسا على ساحل الدردنيل حتى فبض عليه ، وجيء به الى الاسانة مكبلا بالاغلال ، وزج به فى السجن . وبعد شهرين نقل الى سجن أرحم فى أبيدوس . وسمح لزوجته أن تلحق به ، ووفد عليه أصدقاؤه من كل فج ليواسوه ، ويقدموا له الولاء ، ويأتوه بالمال . ولم يفقد أتباعه ايمانهم به ، فزعموا ان أوثق النبوءات تنبأت بأن المسيا سيرفض أولا من رؤساء هذا العالم ، الذين سيوقعون به ألوانا من العذاب والهوان . وتوقع اليهود فى كل أرجاء أوربا الافراج عنه فى أى لحظة ، وأنه سيحقق نبوءات أسعد . وعلق حرفا اسمه الاولان ، س ، ز فى الجامع . وفى أمستردام ، ولجهورن ، وهامبورج ، كادت أعمال اليهود التجارية تتعطل تماما ، فقد اشتد ايمان اليهود هناك بأنهم عائدون جميعا عما قريب الى الارض المقدسة . وتعرض من أعرب من اليهود عن شكوكهم فى أن سبتاى هو المسبا لخطر الموت كل يوم .

وحير السلطات التركية ذلك الهياج الذى اضطربت له الحياة الاقتصادية لكثير من المجتمعات العثمانية ، ولكن الترك خشوا أنهم لو اعدموا سبتاى بوصفه نائرا ودجالا لعملوا بذلك على تقديسه شهيدا ، ولحولوا حركته الى تمرد يكلفهم ثمنا غاليا ، لذلك قرروا أن يجربوا حلا سلميا . فآخذ سبتاى الى أدرنه . وهناك أخبر بأن أمرا قضى بأن يسحل فى الشوارع ويغذب بالمشاعل الموقدة ، ولكن فى استطاعته أن يتفادى هذه النهاية وأن يظفر بأسباب التكريم الكبير فى الاسلام لو اعتنق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقبل ، وفى ١٤ سبتمبر مثل أمام السلطان ، وأكد مروقه عن دبنه بخلع ملابسه اليهودية وارتداء الزى التركى . وخلع عليه السلطان اسم محمد أفندى ، وعينه حاجبا لبابه براتب كبير . ونالت سارة ، التى اعتنقت الاسلام هى أيضا ، الهدايا الثمينة من السلطنة .

وقوبل نبأ هذا الارتداد بالتكذيب من يهود آسيا وأوربا وأفريقيا ، ولكن حين تأكد النبأ آخر الامر كاد ينفطر له قلب العالم اليهودى . فكاد الحاخام الأكبر فى أزمير يموت حزيا وهو الذى قبل سبتاى بعد تشكك كثير . وأصبح اليهود فى كل مكان أضحوكة المسلمين والمسيحيين . وحاول أعوان سبتاى مواساة أتباعه بأن بينوا لهم أن، اعنائه الاسلام انما هو جزء من خطة مأكرة ليكسب المسلمين الى،

صفوف اليهود ، وأنه عما قريب عائد الى الظهور يهوديا والعالم الاسلامى كله فى ركابه . وحصل سبتاى على اذن بتبشير يهود أدرنه ، مؤكدا للسلطات التركية أنه سيهدى سامعيه الى الاسلام ، وأصدر فى الوقت نفسه رسائل سرية لليهود قال فيها انه مازال المسيا ، وان عليهم ألا يفقدوا ايمانهم به . ولكن لم يبد على اليهود ، لا فى أدرنه ولا فى أى مكان آخر ، أى علامة على قبولهم الاسلام . فلما خاب أمل الحكومة العثمانية رحلت سبتاى الى أولسينج فى ألبانيا ، حيث لا يوجد يهود . وهناك مات المسيا المحطم فى ١٦٧٦ . وظل المؤمنون به نصف قرن يواصلون حركته ، ويؤكدون قداسته ، ويعودون بقيامته من بين الاموات .

٦ - المهرطقسون

كان الاحبار عليمين بان الدين فى المجتمعات اليهودية التى يطوقها أعداء عتاة هو دعامة الحياة ، وحياة الشريعة ، لذلك زهدوا اليهود فى الدراسة العلمانية التى قد تفتح ثغرة للتشكك فى الدين . من ذلك أن يوثيل سركيس ، الحاخام الكبير فى كركاو ، أدان الفلسفة لأنها أم الهرطقة ، و « العاهرة » المهلكة التى قال فيها سليمان « كل من دخل إليها لا يؤوب (٦١) » ورأى حرم أى يهودى فى قضائه يدمن الفلسفة . وفزع يوسف سليمان ديلميديجو لخلو منهاج الدراسة والقراءة عند اليهود من العلوم ، وكان قد وفد على بولنده (١٦٢٠) من ايطاليا التى مازالت تجيش بحرارة النهضة ، وكتب يقول « ها هى ذى الظلمة تغشى البلاد والجهلة كثيرون . وهم يقولون ان الرب لا يبتهج بالسهام المشحودة فى أيدي النحاة والشعراء والمناطق ، ولا بمقاييس الرياضيين ولا بحسابات الفلكيين (٦٢) » .

وكان ديلميديجو هذا حفيدا لايلىا ديلميديجو ، الذى كان يعلم العبرية فى أوساط آل مديتشي . وبدأ انحرافاتة بتعلم اليونانية كما تعلم التلمود من أبيه ، وكان حاخاما فى كريت ، وحصل على بعض التربية العلمية فى جامعة بادوا التقدمية ، حيث كان جاليليو معلمه المشرف على دراسته ثم امتهن الطب الذى يسر له الرزق وخلع عليه اسمه الايطالى ، ولكن العلم - لا سيما الرياضة - ظل يفتنه ، وفى

سبيل طلبه نفى عنه بعض ايمانه الدينى ، وتغيير الالهة القديم على هذا النحو يخلف جلدا حساسا ، وقد يزعزع الخلق حيناً . لذلك راح يوسف يتنقل من بلد الى بلد مقتلع الجذور لا يستقر على حال . وانضم مؤقتا وهو فى القاهرة والاستانة الى شيعة القرائين ، وهم يهود رفضوا التقاليد والتنقيحات الكهنوتية (كالبروتستنت) وتمسكوا بالتوراة مصدرا اوحدا للاهوتهم . وفى هامبورج وأمستردام وجد معلوماته الطبية أسد تخلفا من معلومات الاطباء اليهود هناك ، حتى لقد نحول فى سبيل الرزق سنيا ، والتحق بالحاخامية ، وأخيرا دافع عن القبلانية ومات طبيبا مغمورا فى براغ (١٦٥٥) .

أما ليو بن اسحاق مودينا فكان انسانا أكثر رهافه وعمقا . اتخذ اسمه ايطالى من المدينة التى هاجرت اليها أسرته عند طرد اليهود من فرنسا . وكان أعجوبة بين الاطفال ، فقرأ الانبياء فى الثالثة ، ووعظ فى العاشرة ، وألف أول كتبه المنشورة فى الثالثة عشرة . والكتاب حوار ض القمر ، الذى كان ليو حجة فيه ، لأنه ظل وفيا له الى نهاية حياته . وكان أعظم مقامراته زواجه فى ١٥٩٠ وهو فى التاسعة عشرة . أما أبناؤه الثلاثة فقد مات أحدهم فى السادسة والعشرين ، وقتل الثانى فى عراق ، انصرف الثالث الى حياة الفجور ثم اختفى فى البرازيل . وماتت إحدى بنتيه وهو حى ، أما الأخرى فبعد أن فقدت زوجها أصبحت عالة على أبيها الذى أصيبت زوجته بالجنون . ووسط هذه الصدمات حرم ليو لتمامه فى لعب الورق . وكتب رسالة تثبت أن الاحبار تجاوزوا الناموس فى قرارهم ، الذى عدلوا عنه سريعا .

وكان أثناء ذلك قد ملك ناصية أدب التوراة والتلمود الربانى ، ودرس الفيزياء والفلسفة ، وكتب بالعبرية والايطالية شعرا لا بأس به . ولما قبلته الحاجامية فى البندقية ، ألقى خطبا ايطالية كان فيها من العلم والبلاغة ما اجتذب كثيرا من المسيحيين الى سماعه . وكلفه أحد أصدقائه المسيحيين ، وكان نبيل انجليزيا ، بأن يكتب عرضا للشعائر اليهودية . وقد انتهى ليو فى كتابه هذا *Historia dei riti ebraici*

« تاريخ الشعائر العبرية » (١٦٣٧) الى أن كثيرا من المراسم التقليدية التى بعدت الآن عن هدفها الاصلى قد فقدت الكثير من دلالتها . وفى كتاب غفل من اسم المؤلف « قول صقل » اقترح تنقيح

الصلوات والطقوس العبرية وتبسيطها ، والغاء قوانين الصوم ، وخفض عدد الايام المقدسة والتخفيف من صرامتها . وفى هذا الكتاب انتقد اليهودية الربانية لأنها مجموعة من التعقيدات التى لا مبرر لها أضيفت الى الشريعة اليهودية الاصلية ، وطالب بالرجوع من التلمود الى التوراة ، ولكنه مد هرطقاته الى التوراة ذاتها ، بل الى الوحي الموسوى بأكمله . وقد ترك هذا التصريح الثورى دون نشر ، فلما عثر عليه بين أوراقه بعد وفاته (١٦٤٨) ، كان مصحوباً برسالة مرافقة تدافع عن اليهودية السنية . ولم ير أحد الكتابين النور حتى عام ١٨٥٢ . ولو أن ليو اجترأ على نشر « قول صقل » فى حياته ، لبدأت حركة الاصلاح اليهودية نشاطها فى القرن السابع عشر ، ولكنه كان أشد ذكاء من أن يسبق التاريخ .

أما أشقى المهرطقين اليهود فهو أوريل أكوستا الامستردامى . كان أبوه ينتمى لأسرة من المارانو أقامت فى أوبورتو ولاعت تماماً بين نفسها وبين المذهب الكاثوليكي . وتلقى جابرييل - وهو اسمه فى البرتغال - العلم على يد اليسوعيين الذين روعوه بمواعظهم عن الجحيم ، ولكنهم شحذوا ذهنه بالفلسفة الكلامية . فلما درس الكتاب المقدس أثر فيه اعتراف الكنيسة بالعهد القديم كلمة لله ، وقبل المسيح ورسله الاثنى عشر لناموس موسى . وانتهى الى أن اليهودية من الله ، وتشكك فى حق القدس بولس فى سلخ المسيحية عن اليهودية ، وصمم أن يعود الى دين أجداده فى أول فرصة . فاقنع أمه واخوته (وكان أبوه قد مات) بالانضمام اليه فى محاولة للروغان من ديوان التفتيش والهروب من البرتغال . ووصلوا أمستردام بعد أن جازوا مخاطر كثيرة (حوالى ١٦١٧) وهناك غير جابرييل اسمه الى أوريل ، وأصبحت الاسرة أعضاء فى مجمع اليهود البرتغاليين .

بيد أن هذه الروح ذاتها التى حدث به الى ترك الكنيسة ، روح التقصي والتفكير المستقل ، جعلته قلقاً لا يحس بالاطمئنان النفسى داخل عقائد المجمع التى لا تقل صرامة عن عقائد الكنيسة ، فقد صدمه ادمان الاحبار ، حتى أحبار أمستردام المثقفين ، لسخافات القبلانية الفكرية ، قومخ شركاءه الجدد بجرأة على تلك الطقوس والنظم التى ليس لها اساس ظاهر فى التوراة ، والتى رآها تتعارض أحياناً تمام التعارض

مع طرق التوراة . واذ لم يؤت من الحاسة التاريخية الا القليل ، فقد خيل اليه أنه كان خطأ كبيرا أن تتغير الشعائر والمعتقدات اليهودية على مدى تسعة عشر قرنا . وكما رجع قبل ذلك من العهد الجديد الى القديم ، فكذلك طالب الآن بالرجوع من التلمود الى التوراة . وكان قد نشر فى ١٦١٦ بهامبورج نشرة برتغالية عنوانها « حجج ضد التقاليد » التى بنى عليها التلمود . فأرسل نسخة منها الى مجمع اليهود بالبندقية ، فأعلن المجمع حرمه (١٦١٨) ، وطلب الى ليو مودينا ، وهو ذاته مهرطق ، بحكم منصبه فى الحاخامية ، أن يفند دعوى أكوستا بأن أوامر الاحبار فى كثير من الحالات ليس لها سند من الاسفار المقدسة . وأنذر أحبار أمستردام أكوستا بأنهم هم أيضا سيحرّمونه ما لم يعدل عن آرائه ، وكان قد رماهم بالفريسية . فأبى ، وضرب بنظم المجمع عرض الحائط جهارا ، فأعلن حرمه (١٦٢٣) ، وهو حرم يقطع كل صلة له بأخوانه اليهود ، فتجنبه الآن حتى أقرباؤه . ولم يكن قد تعلم الهولندية بعد ، فوجد نفسه بغبر صديق واحد . وراح الاطفال يجرّمونه بالحجارة فى الشوارع .

وفى مرارة عزلته تقدم (كما تقدم سبينوزا بعده بقرن) الى هرطقة هاجمت معتقدا أساسيا لكل شخص تقريبا فى أوروبا . فجاهر بأنه برفض الايمان بخلود النفس لأنه غريب جدا على العهد القديم ، فالنفس فى رأيه انما هى الروح الحية المتدفقة فى الدم ، وهى تموت مع الجسد (٦٣) . وحاول طبيب يهودى يسمى صموئيل داسيلفا الرد على آراء أكوستا . فنشر بالبرتغالية « رسالة فى خلود النفس » (١٦٢٣) وصف فيها أكوستا بأنه جاهل ، عاجز ، أعمى . ورد أوريل بكتاب سماه « فحص للتقاليد الفريسية » . ورد على صموئيل داسيلفا ، المفترى الكذاب » (١٦٢٤) . ورغبة فى حماية الحرية الدينية للجالية اليهودية ، أعلم زعمائها قضاة امستردام بأن أكوستا بانكاره الخلود انما يقوض المسيحية كما يقوض اليهودية . فقبض عليه القضاة ، وغرموه ثلاثمائة جولدن ، وأحرقوا كتابه . وما لبث أن أفرج عنه ، ويبدو أنه لم يلحق به اذى بدنى .

على أن عقابه كان عقابا اقتصاديا واجتماعيا . ذلك أن اخوته الصغار أصبحوا معتمدين عليه ، واذن فعلى حريته - المحرمة الآن -

فى الدخول فى علاقات اقتصادية مع اخوانه . ولعل هذا السبب ، فضلا عن رغبته فى الزواج ثانية ، هو ما دعا أوريل الى أن يقرر الخضوع للمجمع ، وانكار هرطقاته ، وأن يصبح « قردا بين القردة (٦٤) » على حد تعبيره . وقبل انكاره (١٦٣٣) وعاش الشكاك المتحمس حيناً فى سلام نسبي . ولكن هرطقاته استمرت فى الخفاء واتسعت . كتب فى فترة لاحقة يقول « لقد خامرنى الشك فى ناموس موسى ، أهو حقاً ناموس الله ، ثم انتهيت الى أنه من مصدر بشرى (٦٥) » . ونبذ الآن الدين كله ، اللهم الا ايماناً غامضاً بالله هو والطبيعة واحد (كما كان ايمان سبينوزا فيما بعد) . وأهمل الممارسات الدينية الثقيلة المفروضة على اليهودى السنّى . فلما جاءه مسيحيان يعلنان عن رغبتهما فى اعتناق اليهودية ثنّاهما وحذرهما من النير الثقيل الذى سيضعانه فوق عنقيهما . فأنهبا ذلك الى المجمع . فاستدعاه الاحبار واستجوبوه ، ووحدوه غير نادم ، فأوقعوا عليه الآن حرماً آخر أشد صرامة من سابقه (١٦٣٩) . وعاد أقرباؤه بقصونه عن حياتهم ، وشارك اخوه يوسف فى اضطهاده (٦٦) .

واحتمل هذه العزلة سبع سنين ، ثم عرض الخضوع حين وجدها تؤذبه اذى بلبغا فى رزقه وأمام القانون . واذ أسخط القادة اليهود طول مقاومته وما حرت عليهم من متاعب ، فقد حكموا عليه بضرب من الانكار والتكفير نقلوه عن ديوان التفتيش البرتغالى (٦٧) . فأكره ، على طريقة احتفالات الديوان بادانة المهرطقين ، على أن يرقى منصة فى المجمع ، وبتلو أمام جمهور كبير من المصلين اعترافاً بأخطائه وذنوبه ، ويتعهد بأغلظ الايمان أنه منذ الآن سيمتثل لكل نظم الجماعة ويعيش عيشة اليهودى الصالح . ثم خلعت ثيابه الى خصره ، وحلد تسعاً وثلاثين جلدة . وأخيراً أجبر على ان يطرح نفسه على عتبة المجمع ، وخطا من فوقه الحاضرون وهم يغادرون المكان وفيهم أخوه الذى كان بناصبه العدا .

وفام من هذه العقوبة المذلة لا مدعنا بل ناقما ساخطا . فمضى الى بيته ، وأغلق على نفسه باب مكتبه عدة أيام وليال ، وكتب آخر وأمر بتدديداته باليهودية التى ضحى بالكثير فى سبيل اعتناقها ، والتى لم يفهم قط فى تعاطف تاريخها الانطوائى ، وصرامتها الواقية التى

فرضتها عليها قرون من الظلم . وفى كتابه هذا « مثال من حياة البشر »-
فص سيرته الفكرية مثالا على ما يصيب الانسان المفكر . وقد أحس بأن
« كل الشرور تنجم عن عدم اتباع العقل الرشيد وقانون الطبيعة (٦٨) »
وقابل بين الدين « الطبيعى » والدين الموحى ، وزعم أن هذا يعلم
الناس النغضاء ، أما ذاك فيعلمهم المحية . فلما فرغ من مخطوطته ،
حسنا طبيعتين ، وترصد بجوار نافذته لأخيه يوسف حتى مر ، وأطلق
عليه النار فأخطاه (٦٩) . ثم أطلق على نفسه الرصاص (١٦٤٧ ؟) .

وحاول المجتمع اليهودى أن يدفن هذه الفاحشة فى صمت ، ولكن
لابد ان بعض أفرادهم وجدوا نسيانها عسيرا . وكان سبينورا غلاما فى
الخامسة عشرة حين أوقع على أكوستا طقس الحرم ، ولعله كان بين
جماعة العابدين الذين رأوه بوقع عليه ، ولعله مشى فى رهبة وارتياح
فوق جسد المهرطق المطروح أرضا . وعن طريق ذلك الفتى ، دخلت
رؤيا أكوستا ترات الفلسفة بعد أن نظهرت مما علق بها من سخط (٧٠) .

الكتاب الرابع

المغامرة الفكرية

١٦٤٨ — ١٧١٥

الفصل السابع عشر

من الخرافة الى العلم

١٦٤٨ - ١٧١٥

١ - المعسوقات

كانت الطبيعة كما تصورها كل الاوربيين فى القرن السابع عشر - فيما عدا قلة قليلة منهم - نتاجا ، أو ساحة قتال ، لكائنات خارقة ، خيرة أو شريرة ، تسكن أجساد البشر نفوسا ، أو تسكن الأشجار والغابات والانهار والرياح أرواحا محيية ، أو تدخل الكائنات الحية ملائكة أو شياطين ، أو تجوب الهواء عفاريت خبيثة . وليس من هذه الارواح ما يخضع لقانون لا يمكن خرقه ، أو يمكن حسابه ، فأى روح منها يستطيع أن يتدخل بطريقة معجزة فى حركات الاحجار أو النجوم أو البهائم أو البشر ، وكانت الأحداث التى لا تنجم بشكل مرئى عن المسلك الطبيعى أو المنتظم للجسام أو العقول ، تنسب لهذه القوى الخارقة التى تقوم بدور غامض خفى فى شئون هذه الدنيا ، يذخر بشر أو ينبىء بخير أو يقتبأ بالمستقبل . وكل الأشياء الطبيعية ، وكل الكواكب وسكانها ، وكل الأبراج والمجرات ، ان هى الا جزر لا حول لها ولا قوة فى بحر خارق للطبيعة .

وقد مرت بنا ألوان من الخرافة فى العصور السابقة لهذا القرن . وعمر أكثرها بعد مجيء العلم الحديث على يد كوبرنيك وفيساليوس وجاليليو ، وازدهر بعضها حتى فى نيوتن نفسه ، لقد استمر اضمحلال التنجيم والخيمياء (الكيمياء القديمة) ، ولكن النجمين كانوا عديدين فى بلاط لويس الرابع عشر (١) ، وفى فيينا « كان هناك عدد هائل من المشتغلين بالخيمياء (٢) » كما روت الليدى مارى ورتلى مونتايجو فى ١٧١٧ . وكان البريطانيون الأشداء لا يزالون يؤمنون بالارواح ، ويتطيرون ، ويدفعون ثمنا للطوالع ، وياخذون احلامهم على أنها نبوءات ، ويحسبون أيام السعد والنحوس ، أما البريطانيون الأضعف منهم فيلتمسون من الملك ابراء الداء الخنازيرى الذى ابتلوا به بلمسة

منه . وقد ورد فى العدد السابع من صحيفة « سبكتاتور » وصف للانقلاب الذى يحدثه فى اسرة بريطانية قليل من الملح يتناثر ، أو سكين وشوكة توضعان متقاطعتين على صحن ، أو ثلاثة عشر شخصا يجمعون فى حجرة أو جماعة (ويلاحظ عدم وجود طابق ثالث عشر فى بعض فنادق القرن العشرين) . وفى فرنسا أصبح جاك ايمير بطل زمانه (١٦٩٢) لأنه كان يستطيع (فى اعتقاد الكثيرين) بشد أملود بندق يمسكه بيده أن يكتشف قرب مجرم منه (٣) .

وفى ألمانيا كانوا يستعملون عصا سحرية لوقف النزف وشفاء الحروح وجبر العظام (٤) . وفى السويد اتهم شتيرنهيلم بالسحر حين أحرق لحية فلاح بمرأة مكبرة ، ولم ينقذ صاحب التجربة من الموت غير تدخل الملكة كرسينا (٥) .

كان المتشككون فى السحر يتزايد عددهم ، ولكن الراجح أن المؤمنين به كانوا أكثر منهم بكثير . وكانت حاشية تشارلز الثانى لا تأبه كثيرا بأى عفاريت قد تفسد عليهم لهوهم ، ولكن « الكثرة الساحقة » وأبرز المؤلفين بين رجال الدين الانجليز ، كانوا لا يزالون يؤمنون بأن البشر يستطيعون أن يتحالفوا مع الشيطان فينالوا بهذا التحالف قوى خارقة (٦) . وقد ذهب جوزف جلانفيل ، وهو قس أنجليكانى راجح العقل قوى الاسلوب ، فى كتابه « خواطر فلسفية حول الساحرات والسحر » (١٦٦٦) الى أنه من العجب العجائب أن « رجالا فيهم ذكاء وحذق فى غير هذا الامر ، يتوهمون أنه ليس هناك شيء اسمه ساحرة أو شبح » ونبه قراءة الى أن شكوكا من هذا النوع تفضي الى الالحاد . كذلك رعى قسيس مشهور آخر اسمه رالف كدورث فى كتابه « نظام الكون الفكرى الصحيح » (١٦٧٩) بالكفر كل من ينكر وجود الساحرات (٧) . وقد دافع أفلاطونى كمبريدج ، هنرى مور ، فى كتابه « ترياق الالحاد » (١٦٦٨ ؟) دفاعا حارا عن قصة « ساحرة » تزوجت الشيطان ثلاثين عاما ، ورآه تجديفا كبيرا أن يتشكك متشكك فى قدرة الساحرات على اثارة العواصف بالتعزيم ، أو ركوب الهواء على مكنسة (٨) .

وخف اضطهاد الساحرات شئيا فشيئا ، ولكن رجال الدين.

الاسكتلنديين تفردوا بغيرتهم المحرقة . مثال ذلك أن ست نساء فى مدينة
ليث عذبن بشقى ضروب التعذيب عام ١٦٥٢ لحملهن على الاعتراف
بالسحر ، فعلقن من أباھمهن ، وجلدن ، ووضعت الشموع الموقدة تحت
أقدامهن وفى أفواههن التى فتحت عنوة ، ومات أربعة من الستة من
التعذيب (٩) . وفى عام ١٦٦١ كان هناك أربع عشرة محكمة تحاكم
الساحرات فى اسكتلنده ، وفى ١٦٦٤ أحرق تسع نساء معا فى ليث .
واستمرت أحكام الأعدام هذه فى اسكتلنده على نحو متقطع حتى
١٧٢٢ . وفى انجلترا شنقت ساحرتان سنة ١٦٦٤ فى بورى سانت
ادموندر ، وأعدمت ثلاث فى ١٦٨٢ ، وعدد غير مؤكد فى ١٧١٢ .
وقوضت الحجج التى أتى بها وير ، وسبى ، وهويز ، وسبينوزا ،
وغيرهم ، شيئا فشيئا وهم السحر فى أوساط العلمانيين المثقفين ووقف
المحامون والقضاة بدرجة متزايدة فى وجه اللاهوتيين ، ورفضوا الاتهام
أو الادانة بالسحر . وفى ١٧١٢ قضت هيئة محلفين من الانجليز
البسطاء على جين وينهام بأنها مذنبه بالسحر ، ولكن القاضي رفض
الحكم عليها ، فندد به رجال الدين المحليون (١٠) ، ولكن لم يعدم أحد
بتهمة السحر فى انجلترا بعد ذلك التاريخ . وفى فرنسا حصل كولبير
على مرسوم من لويس الرابع عشر (١٦٧٢) بمنع أحكام الادانة بتهمة
السحر (١١) . واحتج برلمان روان بأن هذا المنع انتهاك للأمر الوارد
فى التوراة ، « لا تدع ساحرة تعيش » (خروج ٢٢ - ١٨) ، وأفلح
بعض الحكام المحليين فى حرق سبع « عرافات » فى فرنسا فيما بين
عامى ١٦٨٠ و ١٧٠٠ ، ولكننا لا نسمع بأحكام اعدام بعد ١٧١٨ .
واستمر الايمان بالسحر حتى الانتصار المؤقت الذى أحرزته العقلانية
فى حركة تنوير القرن الثامن عشر ، ومازال موجودا فى أماكن متفرقة
هنا وهناك .

وتعاونت الرقابة والتعصب مع الخرافة على الحد من نمو المعرفة
وانتشارها . وفى فرنسا حالت الصراعات التى احتدمت بين الملوك
والبابوات ، وبين الكنيسة الفرنسية والبابوية ، وبين الجانسينيين
واليسوعيين ، وبين الكاثوليك واليهيغونوت - هذه الصراعات حالت
دون وحدة الرقابة . ونباتها ودقتها ، وهى الرقابة التى عزلت أسبانيا
فى هذا العصر عن حركات العقل الأوربى . ووجد المؤلفون المهرطقون

طرقا للروغان من الرقباء ، ولعل الذكاء الفرنسي قد شحذته ضروره التعبير عن الافكار بطريقة تدق على فهم موظفى الرقابة . وفى كولونيا الكاثوليكية فرض رئيس الاساقفة الناخب الرقابة على الاحاديث أو المطبوعات الدينية . وفى براندنبورج البروتستنتية أمر الناخب الاكبر برقابة دقيقة ليهدىء الصراع الدينى . وفى انجلترا واصلت الحكومة سجن المؤلفين البغيضين وحرق الكتب المهرطقة رغم صدور قانون التسامح (١٦٨٩) (١٢) . على أن تنوع الملل والنحل فى الدول البروتستنتية جعل الرقابة فيها أقل حدوى منها فى الدول الكاثوليكية ، ولعل هذا بعض السبب فى تفوق انجلترا وهولنده فى العلم والفلسفة فى القرن السابع عشر .

لقد اتفقت المذاهب المتنافسة على التعصب . وحاجت الكنيسة الكاثوليكية فى اقناع بانه ما دام كل المسيحيين تقريبا يقبلون الكتاب المقدس على انه كلمة الله ، وبما أن ابن الله أسس الكنيسة كما نص الكتاب ، فواضح اذن أن من حقها وواجبها أن تقمع المهرطقة وانتهت المذاهب البروتستنتية الى استنتاج مماثل وان كان أقل تعطشا للدماء . فما دام الكتاب كلمة الله ، فكل من يحيد عن تعاليمه (حسبما تفسر رسميا) يجب على الأقل أن يقمع ، وأن يكون شاكرا لأنه لم يقتل . واعترفت معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) بمذاهب شرعية ثلاثة فى ألمانيا : الكاثوليكية ، واللوترية ، والكلفنية ، وترك كل حاكم حرا فى أن يختار أيا منها ، وأن يفرضه على رعاياه . أما الدول الاسكندنافية فلم تسمح بغير اللوثرية . وأما سويسرة فأباحب لكل ولاية تقرير عقيدتها . وافتتحت فرنسا الطريق الى التسامح باصدارها مرسوم ناننت (١٥٩٨) ، تم طريق العدول عنه بالغاء المرسوم (١٦٨٥) . أما انجلترا فقد خففت بعد ١٦٨٩ من القيود المفروضة على المنتسقين من البروتستنت ، واستمرت تفرضها على الكاثوليك ، وأبادت ثلث الكاثوليك فى ايرلنده . ووافق العقلانى هوبر البابوات على ضرورة عدم التسامح .

ولكن التسامح كان فى ازدياد . وبدأت الدراسة الناقدة للكتاب المقدس فى هذا العصر تجعل الناس احرارا فى الاعجاب به أدبا والتشكك فيه علما ، وجعل تعدد المذاهب النظام الاجتماعى أعسر فأعسر بدون التسامح المتبادل . وفى « انجلترا الحديدية » أعلن روجر وليمير

(١٦٤٤) أنها « ارادة الله وأمره » أن « تباح لجميع الناس ، فى جميع الأمم ، أشد المعتقدات والعبادات وثنية ، أو يهودية ، أو تركية ، أو عداء للمسيح (١٣) » وطالب جون ملتن بـ « النشر دون رخصة » (١٦٤٤) ، ودافع جيريمى تيلور عن « حرية التنبؤ » (١٦٤٦) . وأجاز جيمس هارنجن (١٦٥٦) الحرية الدينية بغير حدود فقال : « حيث تكون الحرية المدنية كاملة ، فانها تشتمل على حرية الضمير ، وحيث تكون حرية الضمير كاملة . . . فان للانسان حسبما يملئ عليه ضميره الحق فى الممارسة الكاملة لدينه دون أن يكون ذلك عائقا لترويقته أو توظيفه فى الدولة (١٤) » . أما فى الدول التجارية مثل هولندة ، وحتى فى البندقية الكاثوليكية ، فقد اقتضت ضرورات التجارة التسامح مع شتى أديان التجار القادمين من بلاد أجنبية . وهولندة المتحررة هى التى نشر سبينوزا فيها فى « الرسالة اللاهوتية السياسية » (Tractatus theologico - Politicus) (١٦٧٠) دعوة للتسامح الكامل مع الأفكار المهرطقة ، وفى هولندة دافع بيل عن التسامح فى كتابه « تعقيب فلسفى على الآلية : ألزمهم بالدخول » (١٦٨٦) ، وبعد سنين من الإقامة فى هولندة نشر لوك كتابه « رسائل فى التسامح » (١٦٨٩) . وازدادت المطالبة بالحرية الفكرية عقدا بعد عقد ، حتى اذا بلغ القرن السابع عشر ختامه لا نجد كنيسة تجرؤ على صنع ما صنعتها الكنيسة ببرونو فى ١٦٠٠ ، أو بجاليليو فى ١٦٣٣ « ومع ذلك فهى تدور " Eppur si muove »

٢ - التعليم

كانت المعرفة تنتشر فى بطء عن طريق الصحف ، والمجلات ، والنشرات ، والكتب ، والمكتبات ، والمدارس ، والأكاديميات ، والجامعات . وأصبحت الأنباء فى القرن السابع عشر سلعة تباع وتشترى ، أولا للمصرفيين ، ثم للحكام ، ثم لئى انسان . وفى ١٧١١ كان مجموع ما وزع من الصحف البريطانية اليومية أو الاسبوعية ٤٤.٠٠٠ (١٥) .

وأدركت « الجورنال دى سافان » (صحيفة العلماء) التى تأسست فى ١٦٦٥ أن الأحداث فى عالم الأدب والعلم يمكن أن تكون أيضا أنباء ، فما لبثت أن رسخت أقدامها وسيطا دوليا بين الدارسين

والعلماء والأدباء . ولم تمض سنوات قليلة حتى ظهر لها منافسون ، « الجورنالى دى ليتراتى » فى روما ، (١٦٦٨) ، و « الجورنالى فينييتو » فى البندقية (١٦٧١) و « الاكثا ايروديتورم » فى ليبزج (١٦٨٢) . وأسس بيل مجلة مشهورة بروتردام فى ١٦٨٤ تسمى « أنباء جمهورية الأدب » ، وبعد عامين بدأ جان لكليز مجلة « المكتبة العالمية » الشهيرة ، وقد احتوت هذه الدوريات على آراء من أهم ما صدر عن لوك وليبنتز .

وكان تداول الكتب يزداد بسرعة . ففي ١٧٠١ كان هناك ١٧٨ من كبار تجار الكتب فى باريس، منهم ستة وثلاثون طباعا وناشرا (١٦) . وكانت المكتبات قديمها وحديثها تجعل كنوزها ميسرة لعدد أكبر من القراء . وفى عام ١٦١٠ حصل السر توماس بودلى من « شركة الوراقين » على منحة تحصل مكتبة بودلى التى أنشأها فى أكسفورد (١٥٩٨) بمقتضاها على نسخة من كل كتاب ينشر فى إنجلترا ، وهكذا أصبحت فى ١٩٣٠ تملك ١٢٥٠٠٠٠ مجلد . وفى ١٦١٧ قضى مرسوم أصدره لويس الثالث عشر بأن تودع فى المكتبة الملكية (القومية الآن) نسختان من كل مطبوع جديد فى فرنسا . وفى ١٦٢٢ أصبح مجموع كتب هذه المكتبة ٦٠٠٠٠ مجلد ، وفى ١٧١٥ زاد الى ٧٠٠٠٠ ، ومعظم الفضل فى هذه الزيادة يرجع الى غيرة كولبير ، وفى ١٩٢٦ بلغ ٤٠٠٠٠٠٠ . وأسس ناخب براندنبورج الأكبر مكتبة قومية ببرلين فى ١٦٦١ . وفى ذلك العام أوصى مازاران بمكتبته الثمنية التى ضمت ٤٠٠٠٠٠ مجلد للويس الرابع عشر وفرنسا ، وفى ١٧٠٠ حول حفدة السر روبرت بروس كوتون ملكية المكتبة الكوتونية للمتحف البريطانى . وافتتح توماس تنسن عام ١٦٩٥ بلندن أول مكتبة انجليزية مفتوحة لعامة الشعب .

أما التعليم فكان يجاهد لتعويض الخسائر التى تكبدها من جراء الحروب الدينية فى فرنسا ، والحرب الاهلية فى إنجلترا ، وحرب الثلاثين فى ألمانيا . ولم تعد المدارس والاداب الالمانية الى مكانتها التى بلغت أيام لوثر ، وأولريش فون هتن ، وملانكتون قبل قرنين ، الا حين جاء ليستج (١٧٢٩ - ٨١) . فى هذه الفترة ظلت اللاتينية غير المتمازجة لغة غربية مقتصرة على القلة المتعلمة ، فى حين أصبحت الالمانية مجرّد

أداة سوقية بعد أن بلغت عنفوانها فى لوثر ، ولم يرق كاتب ألمانى واحد الى مقام الشهرة الدولية خلال هذا التكفير الطويل عن جيل من حرب التقتيل بين الاخوة . أما النبلاء الالمان ، الذين احتقروا الحذلقه اللاتينية للجامعات ، فقد أرسلوا أبناءهم الى « مدارس الفرسان Ritterakademien » أو كلفوا معلمين خصوصيين ليعدوا الشباب العريق النسب لما تتطلبه القصور الأميرية من واجبات ولطائف . وفى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى نظم أوجست فرانكى ، التقوى ، فى هاله معاهده التى سماها Stiftungen ، وهى مؤسسات خيرية هذا منها الساخرون ووصفوها بـ « المدارس المهلهة » ، وظل طوال اثنين وثلاثين عاما (١٦٩٥ - ١٧٢٧) يطعم فيها أبناء الفقراء ويكسوهم ويعلمهم . ولم يلبث أن أضاف اليها مدرسة أعلى توفر التعليم الثانوى لالع فتياته ومدرسة نظيرها للع فتياته . وهذه المدارس كلها كانت تخصص نصف وقتها للدين .

ووجدت الروح العلمانية فى ألمانيا معبرا عنها فى شخص كرستيان توماسيوس . وسنشير بذكره فيلسوفا فى موضع لاحق ، أما الآن فنراه أعظم المعلمين الألمان فى جيله . فبعد أن طرد من موطنه فى ليبزج لهرطقاته ، رحل الى هاله فى دولة براندنبورج - بروسيا الناهضة (١٦٩٠) ، وأدت محاضراته هناك الى انشاء الجامعة ، وقد أصبح أشهر أساتذتها ، والمناضل الذى جعل منها أول جامعة « حديثة » . وقد هذا بالسكولاستيه ، وأحل الألمانية محل اللاتينية لغة للتعليم ، وأصدر مجلة ألمانية ، وأدخل البرامج العلمية فى المنهج ، وكافح فى سبيل حرية المعلمين والطلاب فى التفكير . ولقبه فردريك الأكبر أبا التنوير الألماني .

وجعل التعليم الاولى عاما والزاميا للجنسين فى دوقية فورتمبرج عام ١٥٦٥ ، وفى الجمهورية الهولندية عام ١٦٩٨ ، وفى دوقية فيمار فى ١٦١٩ ، وفى اسكتلنده عام ١٦٩٦ ، وفى فرنسا عام ١٦٩٨ ، وفى انجلترا عام ١٨٧٦ . وكان تخلف انجلترا راجعا الى الانتشار الواسع للتعليم الاهلى بفضل الهيئات الدينية الخاصة ، وإلى شعور الطبقات الحاكمة بأن تعليم الفقراء فى النظام الاقتصادى السائد آنئذ غير ضرورى بل ربما كان غير مرغوب فيه . وقد بدأت « جمعية تشجيع

المعرفة المسيحية « فى ١٦٩٩ تنشيء « مدارس خيرية » للأطفال الفقراء ،
لنشر اللاهوت والتهديب المسيحيين بصفة خاصة ، واشترط أن يكون
مدرسوها كلهم أعضاء فى الكنيسة الانجليزىة ، وأن يحصلوا على
ترخيص من الاسقف . وندد بهذه المدارس بزناد ماندفيل ، الذى أحدث
ضجة فى ١٧١٤ بكتابه « خرافة النحل » ، وقال انها مضىعة للمال ،
وأن الآباء اذا كانوا أفقر من أن يدفعوا نفقات تعليم أبنائهم « فان من
الوقاحة أن يتطلعوا الى ما فوق قدراتهم (١٧) » .

أما فى فرنسا فقد فرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة أولىة .
وكان المدرس عادة علمانيا ، يختاره الاسقف ويشرف عليه ، وكان التعليم
كاثوليكيا لا تهاون فيه . أما « المدارس الصغىرة petites écoles
التي أنشأها البور - رويال فلم تصل الا لقلّة منتقاة من الصبيان . وفى
١٦٨٤ أسس جان باتيست دلاسال « اخوة المدارس المسيحية » ، التي
عرفت بعد قليل بالاخوة المسيحيين Frères Chrétiens . وقد جعل
لاسال ، ذلك القس الزاهد ، الدين جوهر التعليم الذى وفره هؤلاء
« الاخوة المسيحيون » مجالنا لأبناء الفقراء . وخصص للممارسات
الدينية أربع ساعات فى اليوم ، وأضيفت القراءة والكتابة والحساب ،
ولكن الهدف الذى لم يرغب عنهم قط كان تدريب الكاثوليك الأوفياء ،
وتخليص النفوس من طيش الحياة الدنيا ومن النار الأبدية . ووجد أن
الجلد نافع لهذه الأغراض . وكان المعلمون يحضون على التعليم بالقوة
أكثر من المبدأ . وفى ١٦٨٥ افتتح الاخوة المسيحيون مؤسسة لعلها كانت
أول مؤسسة حديثة لتدريب معلمى المدارس الأولىة .

وظل التعليم الثانوى بفرنسا فى أيدي اليسوعيين ، وكان لا يزال
حير تعليم فى البلاد المسيحية . وغيّرت كليتهم اليسوعية الواقعة وراء
الصوريون مباشرة اسمها الى «كلية لويس الأكبر Collège Louis -le- Grand»
بعد أن حضر الملك مسرحية أخرجها هناك التلاميذ فى ١٦٧٤ . وافتتح
لويس الرابع عشر فى ١٦٨٦ ، تحت الحاح مدام دمانتنون ، فى
سان - سير (على ثلاثة أميال من فرساي) أول مدرسة داخلية فرنسية
للبنات . وكانت الاديّار توفر النعيم العالى لبنات الصفوة ممن يدفعن
نفقاته ، مع التركيز دائما على الدين . وأجمعت السلطات الكاثوليكية

والبروتستنتية على أن الطبيعة البشرية تتنافر أشد التنافر مع ضوابط الحضارة بحيث لم يكن سبيل لترويضها على الفضيلة والنظام إلا سبيل مخافة الله . وما زالت محاولة تهذيب الخلق دون معونة من الدين في مرحلتها التجريبية .

أما الجامعات فكانت الآن في دور الاضمحلال ، وذلك باستثناء الجمهورية الهولندية ، فالمذاهب الدينية المنتصرة تقوم بتطهيرها من المخالفين ، والطلبة المشاغبيون ينشرون فيها الفسوضي ، والخلافات اللاهوتية تسيطر عليها . وكانت الدرجات الجامعية في فرنسا وألمانيا تباع بالمال . ولم يكن بين أساتذتها أحد من أفذاذ فلاسفة العصر ، إلا قلة من كبار العلماء ، وكان هوبز ، وليبنتز ، وبيل ، يتحدثون عن الاساتذة باحتقار لا يغتفر ضغوط الجماهير على الموظفين العموميين .

وفتحت في هذه الفترة بعض الجامعات الجديدة : جامعة دويسبرج (١٦٥٥) ، ودرم (١٦٥٧) ، وكيل (١٦٦٥) ، ولند (١٦٦٦) ، وانسبروك (١٦٧٣) ، وهاله (١٦٩٤) ، وبرسلاو (١٧٠٢) .

وكان أكثرها مؤسسات صغيرة قل إن زاد أساتذتها على العشرين وتلاميذها على الأربعمئة . وفي معظمها كان المنهج قد تجمد بمرور الزمن ، واشتراطات السنية شلت حركة الطلاب والمعلمين على السواء ، وقد شكا ملتن من أن الجامعات الانجليزية « تسلب الشبان استعمال عقولهم بتعاويز من الميتافيزيقا ، والمعجزات ، والتقاليد ، والأسفار السخيفة » . وقال انه يشعر أنه ضيع شبابه في كمبردج محاولا أن يهضم « وليمة حمير كلها اشواك وعليق فاسد » وغير ذلك من « الهراء السفسطائي (١٨) » وقد استمر قيد التقاليد هذا في اكسفورد وكمبردج الى أن حفز مثال « الجمعية الملكية » ، وأستاذية نيوتن بكلية ترنيتي (١٦٦٩ - ١٧٠٢) ، جامعة كمبردج على أن تفسح للعلم صدارة جريئة .

وكافح الشعراء والقساوسة ، والصحافيون ، والفلاسفة ، ليعثوا النشاط والحيوية في التعليم . ولقد لخصنا من قبل « رسالة ملتن الى مستر هارتلب » (١٦٤٤) عن المدرسة المثالية . ولكن لم يكن لوصفاته أي تأثير في التعليم الفعلي . أما في فرنسا فكان أمتع ما كتب في هذا الباب رسالة فنيلون « في تعليم البنات » (١٦٨٧) . وكانت مدام دبولييه قد طلبت اليه أن يجمع بعض المبادئ التي يهتدى بها في

تعليم بناتها . وأكد الكاهن بالطبع تقوية الناموس الاخلاقي بالدين ، ولكنه استنكر ما شاب التعليم الديرى من تقشف وعزلة . وقال انه يشعر ان اديار الراهبات « لا تهيبء للحياة فى هذه الدنيا ، وهى حياة تدخلها خريجة الدير وكأنها خرجت من كهف لتقابل ضوء النهار الساطع (١٩) » وطالب بالطرق اللينة فى التعليم ، فيجب أن يوائم التعليم بين نفسه وبين طبيعة الطفل وميوله وحساسيته ، لا أن يخضع التلاميذ كلهم لقاعدة جامدة واحدة . فلنعلم بالطريقة التى تعلم بها الطبيعة - لا بالتجريدات ، بل بهداية الطفل الى لب الاشياء ، ولتكن ألعابهم وميولهم الطبيعية وسيلة التعليم (ها هنا بيداجوجيه روسو ، وتعليم القرن العشرين « التقدمى » يشرحه كاهن من كهنة القرن السابع عشر) . ويريد فنيلون أن تقرأ البنات الآداب القديمة ، بلغاتها الاصلية ان استطعن ، وينبغى أن يتعلمن شيئاً من التاريخ ، ومن القانون ما يكفى لادارة ضيعة ، ولكن لا شأن لهن بالعلم - فعلى الفتاة أن تبدى « بعض الحياء فى العلم » (une pudeur sur la science) . لقد كان الكاهن الوسيم حساسا لمفاتيح الأنثى ، ولم يرد لهذه المفاتيح أن تكتسى بعلم الجبر ، وما كان ليفهم قط غرام فولتير بمدام دوشاتليه ، أستاذة الميكانيكا النيوتنية .

وبعد مقال فنيلون هذا بعشر سنوات ، نشر ديفو دعوته لتعليم النساء تعليما عاليا . فالبنات الانجليزيات فى القرن السابع عشر لم تتح لهن الا فرص ضئيلة فى التعليم الثانوى ، اذا استثنينا البيوت الغنية . فكان عليهن أن يعتمدن على المدرسين الخصوصيين ، كما كان شأن استر.جونسن مع جوناثان سويفت ، أو أن يختلن المعرفة بجهدهن الخاص كما فعلت ابنة ايفلين الأثيرة لديه . وعند ماكولى أن « نساء ذلك الجيل (١٦٨٥ - ١٧١٥) الانجليزيات ، حتى فى أرقى الطبقات ، كن قطعاً أسوأ تعليماً منهن فى أى فترة أخرى منذ حركة احياء العلوم » (٢٠) . وقد قدر سويفت أنه لا تكاد توجد امرأة راقية واحدة فى كل ألف لقنت القراءة أو الهجاء (٢١) ، ولكن ذلك الكاهن المتشائم كان يزكو على المبالغات . على أى حال كان رأى ديفو أن اهمال تعليم المرأة ظلم همجى « لست اعتقد أن الله تعالى جعل النساء مخلوقات غاية فى الرقة والنبيل ، وجملهن بهذه المفاتيح ... ليكن مجرد مدبرات لبيوتنا ، وطاهيات ، واماء » . لذلك اقترح أن يكون للبنات أكاديمية شبيهة بالمدارس الخاصة فى انجلترا ، يتعلمن فيها - بالاضافة الى الموسيقى والرقص - « اللغات ،

خصوصا الفرنسية والايطالية ، وأنا أجرؤ على تقديم اقتراح مؤذ ، هو تعليم المرأة أكثر من لسان واحد » . وينبغى أن يتعلمن التاريخ ، ويكتسبن كل آداب الحديث ولطائفه . واختتم الروائى الغزل بقوله : ان امرأة أحسنت تربيتها وتعليمها ، وزودت بفضائل اضافية من المعرفة والسلوك ، لهى مخلوق لا نظير له . أبدع وأرق ما فى خليفة الله « ، وان « الرجل الذى كانت مثل هذه المرأة من نصيبه ليس عليه الا أن يغتبط بها ويكون شاكرا » (٢٢) .

كان كتاب جون لوك « خواطر فى التعليم » (١٦٩٣) (٢٣) ، الى حد كبير ، أعمق الابحاث التى كتبت فى النظرية التربوية فى عصر لويس الرابع عشر وأعظمها نفوذا ، وقد كتبه المؤلف بعد أن مارس التعليم مدرسا خصوصا عدة سنوات فى أسرة. ايرل شافتسبرى الأول . واقترح الفيلسوف - مترسما بادرات مونتيني - أن يكون هدف المعلم أولا صحة الجسد وعافيته ، فالجسم السليم شرط لا غنى عنه للعقل السليم . لذلك كان على تلاميذه أن يتناولوا الطعام البسيط ، ويعودوا أنفسهم على اللباس القليل ، والفراش القاسي ، والجو البارد ، والهواء الطلق ، والرياضة الكثيرة ، والنوم المنتظم ، والامتناع عن النبيذ أو الخمر ، وعلى « قليل جدا من الدواء أو لادواء اطلاقا » . ويأتى بعد ذلك فى الزمان ولكنه يتقدم عليه فى الأهمية تكوين الاخلاق ، فكل التعليم سواء الجسدى أو العقلى أو الخلقى يجب أن يكون تدريبا على الفضيلة . وكما أن الجسم يجب تدريبه على الصحة باحتمال المشاق ، فكذلك يجب تشكيل الخلق بغرس نكران الذات فى جميع الاشياء التى تتعارض مع العقل الناضج . « ينبغى أن يعود الاطفال على اخضاع رغباتهم ، والاستغناء عن مشترياتهم ، حتى وهم فى المهد » . فضبط الشهوات أشبه بالعمود الفقرى للخلق . ويجب أن يجعل هذا الضبط سارا ما أمكن ، ولكن لا بد من الاصرار عليه فى مراحل التربية كلها . ولن تكفى فى ذلك الافعال الطيبة المفردة ، اذ لا بد من تربية الطالب بتكرار الافعال الطيبة لتكون « عادات » طيبة ، لأن « العادات تعمل بثبات ويسر أكثر من العقل ، الذى قل أن يستشار بفزاهة ونحن أحوج ما نكون اليه ، ونندر أن يطاع » . ويتردد لوك بين أرسطو وروسو . فهو يؤثر تعليميا تحريبا على تعليم يتجاهل ميل الطفل وفرديته ، وينبغى أن تجعل الدروس مشوقة ، والنظام رحيفا ، ولكنه يقبل الفكرة القائلة بأنه من المرغوب فيه بين

الحين والحين توقيع العقوبات البدنية على سوء السلوك المتعمد . يضاف الى هذا « أن تعويد الاطفال فى لطف على تحمل درجات الألم دون احجام سبيل لاكساب اذهانهم الثبات وارساء أساس للشجاعة والعزيمة فى مستقبل حياتهم » .

وتربية العقل ينبغى أن تكون تدريبا على طرائق التفكير ومشقة الاستدلال ، لاختلاصة للآداب القديمة أو تراشقا باللغات . ويجب أن تعلم الفرنسية واللاتينية للاطفال فى سن مبكرة ، وبالحديث لا بالنحو . أما اليونانية والعبرية والعربية فتترك للدارسين المحترفين ويحسن افراد وقت للجغرافيا والرياضة والفلك والتشريح ، وفى مرحلة تالية للأخلاق والقانون ، وأخيرا للفلسفة . « ليست مهمة التعليم أن يمكن الصغار من علم بعينه ، بل أن يفتح أذهانهم ويشكلها بحيث يتيح لهم القدرة على اتقان أى علم حين يعكفون عليه فى مستقبل أيامهم » وكما أن الفضيلة تعلم بالعادة فكذلك يعلم الفكر بالاستدلالات المتكررة :

« ولا سبيل الى هذا خير من الرياضة ، التى أرى بناء عليه وجوب تعليمها لكل من يتاح لهم الوقت والفرصة ، لا لجعلهم رياضيين بل لجعلهم مخلوقات مفكرة ... فقد ولدنا لنكون - اذا شئنا - مخلوقات مفكرة ، ولكن سبيلنا الى هذا هى الممارسة والتمرين ، والواقع أننا لن نتجاوز فى هذا ما أوصلنا له جهدنا وعكوفنا ... وقد ذكرت الرياضة وسيلة لتقر فى الذهن عادة الاستدلال بدقة وتمسلسل ، ... ، فاذا اكتسبوا طريقة الاستدلال التى توصل تلك الدراسة الذهن اليها ، استطاعوا نقلها الى ما يتاح لهم من أقسام أخرى من المعرفة (٢٤) » .

وقد قصد لوك برسالته ضربا من « التعليم المتحرر » - أى الذى يعنى أساسا بالفنون والآداب والسلوك ، والذى يهدف الى انتاج «الجنتمان» أى الانسان « الكريم » المولد ، الذى لن يضطر أبدا لكسب قوته بعرق جبينه X . ومع أن منهاجه يسمح ببعض العلوم ، فإنه على العموم

X كلمة « جنتمان » أصلها اللاتينى gens ، وهى العشيرة أو الأسرة من الأحرار . والتعليم الحر أو المتحرر liberal كان فى الأصل التعليم الموضوع للرجال الأحرار (liberi)

يلتزم « الانسانيات » - وهى الدراسات التى حببها انسانيو النهضة الاوربية . وقد اشتمل كذلك على الرقص وركوب الخيل ، والمصارعة والمثاقفة ، وحتى « حرفة يدوية ، بل حرفتين أو ثلاثا » ، معوانا على الصحة والخلق ، لا سببا للرزق . أما الفنون فتعلم على سبيل الترويح لا الاحتراف ، وعلى الشباب ألا يأخذ هذه الامور مأخذ الجد الشديد ، عليه أن يستمتع بالشعر ، ولا ينظمه الا للمتسلية ، ويجب أن يعلم الاستمتاع بالموسيقى دون أن يحاول اتقان العزف على أية آلة ، فهذا يقتضيه الكثير جدا من الوقت ، كما أنه يلقي بالشباب فى « صحبة غريبة جدا » ، وهكذا كانت رسالة لوك تجمع بين المحافظة والتحرر ، فهى فى استنكارها الاستغراق السكولاستى فى اللغات القديمة ، وتقليلها من التركيز على الدين واللاهوت ، واهتمامها بالصحة والخلق ، وجهدها فى اعداد الشباب العريق الاصل للحياة والخدمة العامتين ، كانت تومىء الى المستقبل ، وكان لها تأثير هائل فى انجلترا وأمريكا . وقد شاركت فى تكوين الجانب البدنى والخلقى للتربية فى المدارس الخاصة " public " الانجليزية . فلما ترجمت الرسالة الى الفرنسية (١٦٩٥) طبعت منها خمس طبعات فى خمسين سنة ، وأوحت الى روسو بالكثير من الآراء . أما تلميذ لوك ، ايرل شافتمبرى الثالث ، الذى سنلتقى به ثانية ، فقد شرف نظريات استاذة وخلقها .

٣ - الدارسون

واصل كبار الدارسين صياغة المستقبل بانارة الماضي ، وذلك برغم ما بدأ من انشغالهم باللغات المحتضرة والمناظرات الميتة ، ووجد بعضهم أنفسهم مشتبكين فى صراع المسيحية مع الفكر الحر .

ومن صغار الأدباء والعلماء من يستحق منا لفظة اجلال عابرة . مثال ذلك شارل دوفريسن ، سيد كانج ، الذى أدهش معاصريه - وقد عرفوه محاميا فى برلمان باريس - باصداره (١٦٧٨) قاموسا للاتينية الحديثة والوسيط فى ثلاثة مجلدات ، بلغت من دقة الدراسة مبلغا يجعلها الى اليوم الحجة فى بابها . أما بيير أوويه فقد اكتشف وحقق مخطوطة هامة لأوريجانوس ، وتعلم السريانية والعربية ، والكيمياء ، وأجرى ثمانمائة تشريح ، وكتب الشعر والقصة ، واشترك

مع مدام داسييه العاملة فى نشر الطبعة « الدلفية » الشهيرة ذات الستين مجلدا للآداب اللاتينية ، وذلك لتعليم الدوفان (ولى العهد) ، وقد عين رئيسا لأساقفة آفرانش ، وحين مات خلف مكتبته التى هى الآن جزء ثمين من المكتبة القومية . وواصل أتباع بولاند من اليسوعيين نشر موسوعتهم المئينة Acta Sanctorum (أعمال القديسين) وفى باريس ، وتحت قيادة جان مابيون ، صنف مجمع سان - مورالبندكتى (١٦٦٨ - ١٧٠٢) تاريخا من عشرين مجلدا للقديسين البندكتيين ، وألقوا بهذا الضوء الهام على حوليات فرنسا الوسيطة وآدابها . وأعطى مابيون نفسه شكلا جديدا للطريقة القديمة لكتابة اللاتينية بمؤلفه De Re diplomatica (١٦٨١) ، الذى لم يكن كتيباً فى الدبلوماسية بل رسالة فى تاريخ المراسيم والمخطوطات القديمة وطبيعتها وحجبتها . كتب مابيون بعد أن أتم جزءا من أجزائه الضخمة ، « ليت الله لا يؤاخذنى على أننى أنفقت هذه السنين الطوال فى دراسة أعمال القديسين ، دون أن أشابههم الا قليلا » (٢٥) .

أما عملاق التبحر فى الدراسات القديمة فى هذا العصر فكان رتشرد بنتلى - الناظر الصارم لكلية ترنتى (بكمبرج) طوال اثنين وأربعين عاما . فلقد ألقى شبابه فى استيعاب المكتبة البودلية ، وكان وهو بعد فى التاسعة والعشرين من أكبر علماء أوربا تفقها فى آداب اليونانية واللاتينية والعبرية وآثارها . وفى ذلك العام (١٦٩١) نشر رسالة فى مائة صفحة Epistola ad Millium موجهة الى « جون مل » سابق ، بلغ من دقتها وعمقها العلميين أنها أذاعت صيته فى طول أوربا وعرضها . واختبر فى الثلاثين ليلقى أول سلسلة من المحاضرات التى دبر لها المال ووضع لها الاسم فى وصية الكيمياى الورع روبرت بويل . وقد استجاب بتقديم الحجج القوية على أن النظام الكونى الذى كشف سره فى كتاب نيوتن « المبادئ » (Principia) الحديث الصدور يثبت وجود الله . وكان هذا عزاء عظيما لنيوتن الذى اتهم من قبل بالالحاد . وعين بنتلى فى وظيفة الامين الملكى للمكتبة ، وأعطى مسكنا فى قصر سانت جيمس . وهناك كان يلتقى مرارا بنيوتن ، وايفلين ، ورن ، ومن قلعتة تلك خاص معركة من أشهر معارك العلم البريطانى .

أما المعركة فنجمت عن مشاركة الانجليز فى الجدل القائم حول

مزايا الأدب القديم تجاه الجديد . بدأ السر وليم تمبل المعركة بمقالته « فى العلم القديم والجديد » (١٦٩٠) التى دافع فيها عن القديم . ولعل بنتلى كان مثنيا على المقالة لولا اشادتها بفالاريس مثالا على علو كعب اليونان فى الأدب . أما فالاريس هذا فكان دكتاتورا حكم أجراجاس (أجريجنو) فى صقلية اليونانية فى القرن السادس قبل الميلاد . وقد وصفه التاريخ أو وصفته الاساطير بأنه كان يشوى أعداءه فى بطن ثور نحاسى ، ولكن التاريخ كرمه راعيا للأدب ، وقد انحدر الينا عبر القرون ١٤٨ خطابا قيل انها بقلمه . ونشر هذه الخطابات عام ١٦٩٥ طالب فى كلية كرايست تشيرش بأكسفورد يدعى تشارلز بويل . وطلب وليم وبون الى بنتلى الفصل فى حجة الخطابات ، اذ كان يعد طبعة ثانية (١٦٩٧) لكتابه « تأملات فى العلم القديم والحديث » الذى عارض فيه تمبل . ورد ببنتلى بأن نستنها الى فالاريس خطأ وأنها كتبت فى القرن الثانى للميلاد ، ثم أسار عرضا الى بعض الهفوات فى طبعة تشارلز بويل ، ونشر بويل ومعلموه دفاعا حارا عن صحة نسبة الخطابات لفالاريس . ودخل جوناثان سويفت ، سكرتير تمبل ، المعركة فى صف استاذة بأن هزا ببنتلى فى كتابه « معركة الكتب » . وظاهر رأى الأدباء العام بويل ، وحزن أصحاب بنتلى على ما بدا من انهيار سمعته . ولكن رده عليهم جدير بأن نتذكره : « ان أحدا من الناس لم تخسف سمعته الا بيده » (٢٦) . وفى ١٦٩٩ أصدر كتابا مطولا عنوانه « رسالة فى خطابات فالاريس » . ولم يثبت الكتاب صواب رأيه فحسب ، بل ألقى من الضوء على تطور اللغة اليونانية ما جعل دنيا العلم والأدب تشيد به علامة جديرا بأن يقف على قدم المساواة مع كازويون وسلاماسيوس سكاليجر . وقال ببنتلى انه حنى أسلوب الخطابات ينم على القرن الذى كتبت فيه ، وأضاف :

« كل لغة حية لا تكف عن الحركة والتغيير ، شأنها فى ذلك شأن أجسام الكائنات الحية التى تفرز العرق ، فبعض الألفاظ تذبل وتصبح مهجورة ، وغيرها يدخل اللغة ويزداد استعماله شيئا فشيئا ، أو قد تحول ذات الكلمة الى معنى ومفهوم جديدين ، يحدثان بمضي الزمن من التغيير الملحوظ فى جو اللغة وملامحها ما يحدثه الزمن فى خطوط الوجه وسحنه . وكل الناس يحسون هذا فى لغاتهم القومية ، حيث

١٢ - قصة الحضارة

الاستعمال الدائم يجعل من كل انسان ناقدا ، فأي انجليزي لا يأنس في نفسه ، من مجرد صياغة الأسلوب وزيه ، القدرة على التمييز بين الانشاء الانجليزي الجديد وانشاء قديم انقضي عليه مائة عام ؟ ومثل هذه الفروق الواقعية المحسوسة موجودة في عهود اللغة اليونانية العديدة . . . ولكن القلة القليلة هي التي أتبح لها من التفقه والمرانة على تلك اللغة ما يبلغها تلك الرهافة في الذوق » (٢٧) .

ها هنا أديب قادر على كتابة الانجليزية قدرته على قراءة اليونانية .

وفي ١٦٩٩ رقى بنتلى الى نظارة كلية ترنتى بكمبريدج باجماع الأساقفة الستة الذين عينهم وليم الثالث لترشيح من يشغل الوظيفة الشاغرة . فاحكم صبط الطلبة ، وأصلح المنهج ، وبنى مختبرا للكيمياء ومرصدا للفلك . ولكنه نفر هيئة التدريس والآداب بالكلية بخطرسته وعتوه وولعه بالمال ، حتى لقد حكم برفته مرتين ، ولكنه ناضل للرجوع الى وظيفته ، واحتفظ بها الى النهاية . ونشر خلال ذلك عددا كبيرا من الدراسات اليونانية واللاتينية ، وشجع ومول الطبعة الثانية من كتاب نيوتن « المبادئ » وهدم أنطونى كولنز فى كتابه « ملاحظات على مقال حديث فى الفكر الحر » (١٧١٣) ، وغامر فى تهور بالخروج من ميدانه ، بأن علق على قصيدة ملتن « الفردوس المفقود » بتصحيحات متفجرة لنحو ملتن ونصه . وجلب على نفسه عدااء الشاعر الكسندر بوب اذ قال فى ترجمة بوب للالياذة « قصيدة جميلة يا مستر بوب ، ولكن يجب ألا تسميها هومر » . روى بنتلى أن « الشبل المنذر بالشر » لم يصفح عنه قط . وهزأ به بوب فى « ملحمة المغفلين » The Dunciad (ابريل ١٧٤٢) ببيتين من الشعر قال فيهما :

« المعلق الجبار ، الذى سفهت تحقيقاته المضنية هوراس ، وحقرت قوافى ملتن » (٢٨) .

وفى يوليو مات بنتلى بعد أن اصطلح عليه بوب وذات الجنب . لقد كان أعظم وأنقل أديب أنجبته إنجلترا .

وفى هذه الأثناء مد انجليزي آخر يدعى توماس ستانلى آفاق

الذهن البربطانى بأول كتاب انجليزى فى « تاريخ الفلسفة » (١٦٥٥ - ٦٢) ، وأدهش قراءه بتخصيص آخر مجلداته الاربعة للفلسفة الكلدية (العربية) . لقد أخذ العلم يجرؤ على تجاوز روما القديمة واليونان الى الشرق الأدنى والأوسط ، وكان لهذه الجراءة نتائج مزعجة . فاكشف ادورد بوكوك وحقق أربع ترجمات سريانية لرسائل العهد الجديد (١٦٣٠) ، وأنشأت أكسفورد لأجله أول كرسي للغة العربية فيها ، وفتحت محاضراته فيها عيون الانجليز على الحضارة الاسلامية . أما فى فرنسا فان الموسوعة التى أفنى فيها بارتملى ديريلو عمره ، وهى « المكتبة الشرقية » الصخمة (١٦٩٧) - التى وضع لها عنوانا فرعيا هو « قاموس عالمى شامل بصفة عامة لكل ما يتصل بمعرفة الشرق » - هذه المكتبة كانت كشفا عن التاريخ والعلم العربيين ، ولعبت دورا فى توسيع الأفاق الفكرية توسيعا حطم كل القيود فى حركة تنوير القرن الثامن عشر . وتعجب الطلاب من ذلك الغنى فى شعر العرب وتاريخهم وفلسفتهم وعلومهم ، ولاحظوا كيف حافظ العرب على علم اليونان وفلسفتهم فى الوقت الذى طواهما فيه النسيان ابان عصور غربى أوربا المظلمة ، وعرفوا أن محمدا لم يكن مجرد دجال أفاك بل كان حاكما ذكيا وسياسيا أربيا ، وحيرهم ألا يجدوا فى العالم الاسلامى جرائم أكثر ولا فضائل أقل مما فى العالم المسيحى . وأصبحت نسبة الاخلاق واللاهوت خميرة مذيبة فى ذهن المسيحى .

وكان من أثر الدراسات للتاريخ الشرقى - بما فيه المصرى والصينى - تقويض الحساب اليهودى الذى أرخ خلق العالم بسنة ٣٧٦١ قبل الميلاد ، والحساب الذى وضعه جيمس آش ، رئيس الاساقفة الانجليكانى لأرما - بأرلنده - (١٦٥٠) وقرر فيه أن الخلق حدث « فى بداية الليلة السابقة ليوم الاثنين ٢٣ أكتوبر ٤٠٠٤ ق م (٢٩) وكان سبينوزا - كما سنرى بعد قليل - يستهل (١٦٧٠) حركة « النقد الأعلى » للكتاب المقدس - أى دراسته بوصفه انتاجا بشريا ، غنيا فى العظمة والسمو ، وفى الاخطاء والسخافات .

وقد جلب أعلم تناقد الكتاب المقدس فى القرن السابع عشر على رأسه غضب بوسويه وسخطه فى محاولته الرد على سبينوزا ، لأنه سلم فى النهاية بالكثير مما زعمه الفيلسوف . وهذا الناقد ، واسمه ريشار

سيمون ، وأبوه كان حدادا ، التحق بالمصلى فى باريس ، ورسم قسيساً (١٦٧٠) وكتب فى ذلك العام نشرة دافع فيها عن يهود متز الذين اتهموا بقتل طفل مسيحى . وفى ١٦٧٨ ، بعد سنوات من البحث شملت دراسات مع عدة أحبار يهود ، أعد العدة لنشر كتابه « تاريخ نقدى للعهد القديم » . ورأى ، فى الطريق ، أن يفند حجج سبينوزا ضد الوحي الالهى للأسفار المقدسة . فسلم بأن أسفار العهد القديم ليست تماماً من عمل المؤلفين الذين نسبت لهم ، وأنه لا يمكن أن يكون موسى قد كتب الأسفار الخمسة كلها (التى ورد فيها وصف لموت موسى) ، وأن أسفار الكتاب عراها التغيير الكثير عن صورتها الأصلية بأفلام الكتبة والناشرين الذين نقلوها الى الخلف . وناضل سيمون للاحتفاظ بسلامة عقيدته وبرخصة طبع كتابه ، فزعم أن هؤلاء المراجعين كانوا هم أيضاً يعملون بالوحي الالهى ، ولكنه اعترف بأن جميع نسخ العهد القديم الموجودة شوحتها التكرارات والتناقضات. والالتباسات وغيرها من الصعوبات بحيث لا تتيح الا أساساً واهياً للاهوت عقائدى . ورأى أن يهاجم البروتستنت بهذه النقطة ، فقال ان ايمانهم بالوحي الشفوى للأسفار المقدسة يتركهم عاجزين أمام النقد النصي فى حين يستطيع الكاثوليكى الموالى لكنيسته أن ينجو من أذى هذه الدراسة الناقدة بقبوله التفسير الذى وضعته كنيسة روما للنص . واختتم سيمون بالقول بأن الوحي الالهى للكتاب المقدس لا يصدق على أى حال الا على أمور الايمان .

ووافق رئيس المصلى على نشر كتاب سيمون . وبينما كانت أصوله فى المطبعة وقعت بعض صفحات تجارب الطبع فى يد أرنو « الكبير » رجل البور - رويال ، فروعه ما قرأ . وأطلع بوسويه على التجارب ، فندد هذا على الفور بالكتاب باعتباره « نسيجا من الكفريات. ومعقلا للالحاد . . . سيهدم سلطان الأسفار القانونية (٣٠) » وناشد بوسويه السلطات الزمنية أن تمنع نشر الكتاب . فصادت المطبعة بأكملها ، وقوامها ألف وثلاثمائة نسخة ، وعجنتها عجنا واعتكف سيمون خورياً مغموراً فى نورمنديه ، ولكنه وجد السبل لطبع مخطوطته فى روتردام (١٦٨٥) وبعد أربع سنوات نشر كتابه «تاريخ نقدى للعهد الجديد» وأراد أن يتوج جهوده بترجمة جديدة للكتاب المقدس ، وفرغ من ترجمة

العهد الجديد ، ولكن بوسويه الذى أفزعته الحرية التى تناول بها
سميون النص المقدس أقنع المستشار بمصادرة الكتاب (١٧٠٣) .
وتخلّى سيمون عن مشروعه ، وأحرق أوراقه ، ومات (١٧١٢) .

وأثارت ترجمته للعهد الجديد أربعين اعتراضا نفند هذه الترجمة
وتبين عصمته . على أنها ما زالت هى وكتاب سبينوزا « رسالة لاهوتية
سياسية » من المعالم فى الدراسة الحديثة للكتاب المقدس . وقد حذر
ليبنتز - بعد أن قرأ هذه الابحاث النقدية الاولى - من أن هذا الانجاه
فى التحقيق لو استمر سيدمر المسيحية (٣) . ولم يحن الوقت بعد للقول
هل كان مصيبا أم مخطئا فى زعمه هذا .

الفصل الثامن عشر

البحث العلمى

١٦٤٨ - ١٧١٥

١ - دولية العلم

كان مزاج أوروبا يتغير فى بطء - سواء كان التغيير خبرا أو شرا - من الايمان بالخوارق الى النزعة العلمانية ، ومن اللاهوت ، ومن آمال الجنة ومخاوف الجحيم الى خطط توسيع المعرفة وتحسين حياة البشر . فأما الطبقات العليا التى واصلت أساليب حياتها الابيقورية فلم تعترض كثيرا على ايمان دبنى كانت تراه مفيدا للجماهير الشقية التى حرمت فردوس الحسب والنسب ، ولكن كان هناك نفر ، حتى من بين هذه القلة المميزة ، ممن تلهوا بالعلم ، ووازنوا المعادلات ، وأحرقوا أصابعهم أو نشفوا بأنوفهم فى المختبرات ، أو تفرسوا بدهشة فى النجوم المتكاثرة . ففى باريس مثلا نزاحمت سيدات المجتمع العصريات على محاضرات ليميرى فى الكيمياء ، وعلى شروح دوفرنيه فى التشريح ، ودعا كوندنيه ليميرى الى صالونه الخاص جدا ، وعين لويس الرابع عشر دوفرنيه ليساعد فى تعليم الامبر الوارث للعرش . وفى انجلترا كان لتشارلر الثانى « مختبر كيميائى » خاص به ، وحاول البارونات ، والاساقفة ، والمحامون القيام بالتجارب ، وأقبلت الخيليات الانيفات فى مركباتهن ليسهدين عجائب المغناطيسية ، وهوى ايفلين الفيزياء ، وأراد انشاء معهد للحب العلمى ، ووجد ببببس وفتا - وسط شغله بالمراكب والنساء - لاستعمال المكروسكوب ، ومضخة الهواء وسكين التنريح ، وأصبح رئيسا للجمعية الملكية .

وتخلفت الجامعات عن الشعب فى هذا الاهتمام الجديد ، ولكن الأكاديميات الخاصة التقطته . ويلوح أن البادىء كان « أكاديمية أسرار الطبيعة » بنالى (١٥٦٠) ، ثم أكاديمية « دى لنتقى » بروما (١٦٠٣) التى كان جاليليو ينتمى اليها ، ثم أكاديمية « ديل تسيمينتو » ، التى أنشأها تلميذاه تفيانى وتوربتشيللى فى فلورنسة (١٦٥٧) . وقد

كرس هذا المعهد بحكم اسمه للتجارب ، واتخذ الشك الديكارتي منطلقا له ، فلا شيء يجب التسليم به بالايمان ، ولا بد من بحث كل مشكلة دون نظر الى أى ملة أو فلسفة موجودة (١) . ولم يعمر بعض هذه الأكاديميات طويلا ، ولكنها كانت تترك خلفاء لها بعد موتها . وأنشئت الأكاديميات فى شفينفورت (١٦٥٢) ، وألتدورف (١٦٧٢) ، وأوبسالا (١٧١٠) ، وفى ١٧٠٠ ، وبعد ثلاثين سنة قضائها ليعتزل فى اللاحاق ، خرجت أكاديمية برلين الى النور ، كذلك يرجع الفضل الى ليعتزل فى انشاء أكاديمية سانت بطرسبورج (١٧٢٤) .

وتطورت « أكاديمية العلوم » فى فرنسا من اجتماعات (١٦٣١ - ٣٨) مرسين ، وروبرفال ، وديزارج ، وغيرهم من العلماء فى بيت والد بسكال فى باريس ، أو فى صومعة مرسين . وقد صاغت برنامجا « للعمل على تحسين العلوم والآداب ، والبحث عموما عن كل ما يمكن أن يجلب المنفعة أو الراحة للنوع الانسانى » ، كذلك قررت أن « تحرر العالم من كل الأخطاء الشائعة التى انطلى زيفها على الناس منذ زمن طويل » ولكنها نصحت أعضائها بأن يجتنبوا الخوض فى الدين أو السياسة (٢) . وفى ١٦٦٦ ظفرت الأكاديمية بمرسوم ملكى ، وبحجرة فى المكتبة الملكية ، وفى فرساي ترى الى اليوم لوحة كبيرة بريشة تيسيتلان يقدم فيها لويس الرابع عشر هذا المرسوم لجماعة يرأسها كرسيتيان هويجنز وكلود بيرو . وكان كل عضو من أعضائها الواحد والعشرين يتلقى من الحكومة راتبا سنويا ، فضلا عن مبلغ يغطى النفقات ، وقد أصبحت الأكاديمية من الناحية الفعلية مصلحة من مصالح الدولة . وكان لويس يخصص الفلكيين بعطفه . فدعا كاسينى من ايطاليا ، ورويمر من الدنمرك ، وهويجنز من هولنده ، وشاد مرصدا فخما . وحين إلتهمت النيران المكتبة الثمينة التى يقتنيها هيفيلليوس الدانزجى ، والذى تفرد بدراساته للقمر ، نفحه الملك بعطاء سخى ليعوض خسارته (٣) . وقد نسب لابلاس الفضل للأكاديمية فى معظم ما أحرزت فرنسا من تقدم علمى ، ولكن اعتمادها على ملك وثيق التحالف مع الكنيسة كان ضارا بتقدم العلم الفرنسى (٤) ، بينما مضى الانجليز فى هذا الطريق قدما .

ومن سمات انجلترا أن أكاديمياتها العلمية كانت مؤسسات أهلية لا تدن للحكومة الا بفضل عارض ، يقول جون واليس انه حوالى عام

١٦٤٥ ، تعرف فى لندن الى « نفر من فضلاء القوم ، المحبين للاستطلاع فى الفلسفة الطبيعية وغيرها من فروع العلم الانسانى ، لا سيما ... الفلسفة التجريبية (٥) » . واتفقوا على الاجتماع مرة كل اسبوع لمناقشة الرياضه ، والفلك ، والمغنطيسية ، والملاحه ، والفيزياء ، والميكانيكا ، والكيمياء ، والدورة الدموية ، وغير ذلك من الموضوعات . وقد اسنوحث هذه « الكلية غير المنظورة » - كما كانت تسمى آنئذ - « بيت سليمان » الوارد فى كتاب بيكون « أطلانطيس الجديدة » فلما انتقل واليس الى اكسفورد أستاذًا للرياضة ، انقسمت الجمعية قسمين ، يجتمع أحدهما فى مسكن روبرت بويل بالجامعة ، والآخر فى كلية جريشام بلندن ، وكان رن وايفلين من أول الاعضاء هناك . وقطع هذه الاجتماعات اللندنية ما وقع من اضطراب سياسي بين موت كرمويل وعودة الملكية ، ولكن سرعان ما استؤنفت عقب تولى تشارلز الثانى العرش ، وفى ١٥ يوليو ١٦٦٢ منح الملك « جمعية لندن الملكية لترقية المعرفة الطبيعية » براءة رسمية . وكان « الزملاء الأصليون » البالغ عددهم ثمانية وتسعين لا يشملون علماء من أمثال بويل وهوك فحسب ، بل شعراء كدرايدن ووالر ، ورن العمارى ، وايفلين ، وأربعة عشر نبيلًا ، وعدة أساقفة . وفيما بين عامى ١٦٦٣ و ١٦٨٦ ضم اليها نحو ثلاثمائة زميل اضافى . ولم يكن هناك فوارق طبقية تقسمهم ، فكان الادواق والعامة سواسية فى هذا المشروع ، وأعطى الاعضاء الفقراء من رسوم العضوية (٦) . وفى ١٦٧٣ صرح لابينتر ، الذى سمح له بالعضوية ، بأن الجمعية الملكية أعظم الهيئات الفكرية احترامًا فى أوروبا . وفى تاريخ باكر (١٦٦٧) نشر توماس سبرات كتابه الممتاز « تاريخ الجمعية الملكية » وقد نأثر هو أيضا ، بالانسام البيكونيه التى كانت تهب على انجلترا ، وذلك برغم نرفيته أسقفا لروتشستر .

وشكا بعض اللاهوتيين من أن المعهد الجديد سيفوض الاحترام للجامعات والكنيسة الرسمية ، ولكن اعتدال الجمعية وحذرهما لم يلبثا أن هدها من معارضة رجال الكنيسة وروحت تجاربها الغريبة عن الحاشية والملك ، الذى ضحك حين سمع أنها تزن الهواء وتفكر فى الطيران الميكانيكى . وقد هجاها سويفت فى قصة « رحلات جليفرز » وسماها أكاديمية لاجادو العظمى ، وجعل أعضائها يضعون الخطط لاستنباط

ضوء الشمس من الخيار ، ولبناء البيوت ابتداء من الاسقف فما دون ، وذكر صموئيل بطلر ، مؤلف « هوديبيراس » كيف أن ناديا من العلماء هاج وماج لاكتشافه فيلا في القمر ، ثم تبين أنه فأر في تلسكوبهم (٨) . ولكن رعاية الجمعية الملكية هي صاحبة الفضل في تحسين ايفلين للزراعة الانجليزية ، وارساء السر وليم بنى علم الاحصاء ، وتقدم العلم والطب الانجليزيين بخطى تجاوزت كل ما عرف في فرنسا أو ألمانيا المعاصرتين ، وانشاء علم الكيمياء تقريبا ، واحداث رأى ثورة في علم النبات ، وودوارد في الجيولوجيا ، ونيوتن في الفلك . وأجبرت الجمعية آلاف التجارب في الكيمياء والفيزياء ، وكانت تتسلم جثث المجرمين الذين أعدموا وتشرحها وتدرسها ، وأصبحت مستودعا للتقارير الطبية تتلقاها من الاطباء في جميع أرجاء البلاد ، وجمعت تقارير التطورات التكنولوجية ، وكانت على صلة بالبحث العلمى في خارج إنجلترا . وسعده تأكيدها على العمليات الطبيعية والناموس الطبيعى الخرافة واضطهاد السحر .

وفى عام ١٦٦٥ بدأ سكرتيرها هنرى أولدنبرج اصدار مجلة « الاعمال الفلسفية للجمعية الملكية » التى استمرت الى يومنا هذا . وقد طلبت وتلقت المقالات من خارج البلاد . وكانت من أوائل طابعى اكتشافات مالبىحى وليوفنهويك . أما أولدنبرج هذا فقد وفد على إنجلترا فى ١٦٥٣ ليفاض فى ابرام معاهدة تجارية لوطنه بريمن ، فبقى بها ، وأصبح صديقا للثن ، وهوبز ، ونيوتن ، وبويل ، وراسل بنشاط العلماء والفلاسفة فى جميع أنحاء العالم . وقال ان أعضاء الجمعية الملكية « يمتحنون الكون كله (٩) » ، وكتب لسبينوزا يقول :

« اننا على ثقة من أن أشكال الاشياء وصفاتها يمكن تحليلها أفضل تحليل بأصول الميكانيكا ، وأن كل آثار الطبيعة تحدثها الحركة والشكل ، والنسيج ، والارتباطات المختلفة لهذه كلها ، وأنه لا حاجة بنا لان نلجأ الى الاشكال التى لا تفسر لها أو الصفات السحرية ملاذا من الجهل (١٠) » .

وبفضل هذه « الأعمال الفلسفية » الانجليزية و « مجلة العلماء » الفرنسية ، و « الجورنالى دى لتيراتى » الايطالية ،

و « الأكتا ايروديتورم » الألمانية استطاع العلماء والدارسون الاوربيون أن يتغلبوا على الحدود القومية ، ويكونوا على اتصال بأعمال بعضهم البعض وكشفهم ، ويؤلفوا جيشا متحدا يزحف فى مغامرة خلاقة هائلة . وكانوا وهم عاكفون بمئائى عن الانظار فى مكاتبهم ، ومختبراتهم ، وبعثاتهم ، متجاهلين أو منتصرين على جلبة السياسة ، وزحف الجيوش ، وطنين العقائد الدينية ، وضباب الخرافة ، وعملاء الرقابة المدنية أو الكنسية المتطفلين - كانوا وسط هذا كله يكون على النصوص ، وأنايب الاختبار ، والمكرسكوبات ، ويخلطون المواد الكيماوية فى فصول ، ويقيسون القوى والاحجام ، ويضعون المعادلات والرسوم البيانية ، ويتفحصون أسرار الخلية ، وينبشون طبقات الارض ، ويرسمون حركات النجوم ، حتى بدت حركات المادة وكأنها تنتظم فى قانون ، وبدت ضخامة الكون الهائلة وكأنها تمثل للذهن البشرى المذهل . وفى فرنسا كان فيرما ، وبسكال ، وروبرفال ، وماربوت ، وبيرو ، وفروع باكملها من آل كاسينى وفى سويسرة كان آل برنوى ، وفى ألمانيا كان جويريكى ، وليبنتز ، وتشرنهاوس ، وفارنهايت ، وفى هولندة كان هويجنز وليوفنهويك ، وفى ايطاليا كان فيفيانى وتورب تشبللى ، وفى الدنمرك كان سنيو ، وفى اسكتلنده كان جيمس وديفد جريجورى ، وفى انجلترا كان واليس ، ولستر ، وبويل ، وهوك ، وفلامستيد ، وهالى ، ونيوتن : هؤلاء كلهم وغيرهم كثيرون ، كانوا فى هذه الحقبة القصيرة من تاريخ أوربا من ١٦٤٨ الى ١٧١٥ ، يكدون فرادى وجماعات منعزلين ومتعاونين ، ليبنوا يوما فيوما ، وليلة فليلة ، صرح الرياضة ، والفلك ، والجبولوجيا ، والجغرافيا ، والفيزياء ، والكيمياء ، والاحياء ، والتشريح ، والفسولوجيا - هذه العلوم التى قدر لها أن تحدث ثورة مصيرية فى النفس الحديثة . أما أولدنرج ، الذى أحس دولية العلم هذه ، ولم بخطر بباله قط أن القومية قد تجعل العلم نفسه أداة حزبية ومدمرة ، فقد رأى فى هذا التعاون الملهم بشيرا بحياة أفضل . وكتب لهويجنز يقول « أرجو أن يأتى الوقت الذى تتعاقب فيه كل الامم ، حتى المتخلفة فى الحضارة ، عناق الرفاق الاعزاء ، وأن تتضافر قواها الفكرية والمادية لاقصاء الجهل ، وتغليب الفلسفة الصحيحة النافعة (١١) » . ومازال هذا رجاء العالم الى اليوم .

٢ - الرياضيات

بدأت الدولية الجديدة بشحن أدواتها • فطور بسكال وهووك وجوئيريكى البارومتر ، واستطلعت مضخة جوئيريكى الهوائية امكان احداث الفراغ ، وصنع جريجورى ونيوتن وغيرهما تلسكوبات أفضل من تلسكوبات كبلر وجليليو ، واخترع نيوتن آلة السدس ، وحسن هوك الميكروسكوب المركب ، الذى أحدث انقلابا فى دراسة الخلية ، وأصبح الترمومتر أوثق وأدق على يد جوئيريكى وأمونتونز ، وفى عام ١٧١٤ أعطاه فارنهايت شكله الانجليزى - الامريكى باستخدامه الزئبق بدلا من الكحول وسيطا ممتددا ، وقسم مقياسه عند الصفر ، و ٣٢ درجة و ٩٦ درجة (التى افترض انها حرارة جسم الانسان الطبيعية) •

أما أعظم الادوات قاطبة فكانت الرياضيات ، لأنها أضفت على التجربة شكلا كميا ومعايرا ، ومكنتها بمئات الطرق من التنبؤ بالمستقبل بل السيطرة عليه • قال بويل « ان الطبيعة تلعب دور الرياضي » وأضاف ليبنتز « ان العلم الطبيعى ليس الا الرياضة التطبيقية (١٢) » • ويشيد مؤرخو الرياضيات بالقرن السابع عشر لأنه كان وافر الثمر فى ميدانهم على الاخص ، فهو قرن ديكارت ، ونابيير ، وكافاليرى ، وفيرما ، ويسكال ، ونيوتن ، وليبننتز ، وديزارج • وكانت السيدات المعطرات بالنبالة يختلفن الى محاضرات الرياضة ، وقالت « صحيفة العلماء » مازحة ان بعضهن جعلن تربيع الدائرة الجواز الوحيد لرضائهن (١٣) ، ولعل هذا أن يفسر جهود هوبز الملحة فى حل تلك المعضلة المحيرة •

وانجب بيير دفيرما النظرية الحديثة للاعداد (دراسة أنواعها ، وخصائصها ، وعلاقاتها) وتخيل الهندسة التحليلية مستقلا عن ديكارت - وربما قبله ، واخترع حساب الاحتمالات مستقلا عن بسكال ، وسبق نيوتن وليبننتز الى حساب التفاضل • ومع ذلك عاش مغمورا بعض الشيء فى عضويته ببرلمان تولوز ، ولم يدل باسهاماته فى الرياضة الا فى خطابات لاصدقائه - لم تنشر الا سنة ١٦٧٩ ، بعد موته بأربعة عشر عاما • وفى أحد هذه الخطابات نستشف انتشاءه

بالرياضة . « لقد عثرت على عدد كبير جدا من النظريات الجميلة جدا (١٤) » وكان يطرب لكل حيلة جديدة أو انتظام مدهش فى الاعداد . وقد تحدى رياضي العالم « ان يقسموا المكعب الى مكعبين ، وربع القوة الى ربعى القوة » ، الخ ، وكتب يقول « لقد اكتشفت برهانا عجيبا حقا لما يعرف الآن بـ «آخر نظريات فيرما» ، ولكن لا برهانه ولا أى برهان قاطع عليها قد وجد الى الآن . وفى عام ١٩٠٨ أوصى استاذ المانى بمائة ألف مارك لأول شخص يبرهن على فرض فيرما ، ولم يطالب أحد الى الآن بالجائزة ، وربما نبط همتة هبوط قيمة المارك .

وكان كرستيان هويجنز أبرز علماء هذا العصر ، باستثناء عالم واحد فقط ، فكان التالى مباشرة لنيوتن . وكان أبوه قسطنطين هويجنز من الحج شعراء هولندية وساستها . ولد كرستيان فى ١٦٢٩ ، وبدأ فى النانية والعشرين نشر الابحاث الرياضية . وما لبثت كشوفه فى الفلك والعيزياء أن أذاعت شهرته فى أوربا ، فانتخب زميلا للجمعية الملكية بلندن فى ١٦٦٣ ، وفى ١٦٦٥ دعاه كولبير للانضمام الى أكاديمية العلوم بباريس ، فانتقل الى العاصمة الفرنسية ، وتلقى معاشا سخيا ، ومكث بها حتى ١٦٨١ ، ثم عاد الى هولنده لضيقه بالحياة فى ظل ملك تحول مضطهدا للبروتستنت . وكان تراسله بست لغات مع ديكارت ، وروبرفال ، وميرسين ، ويسكال ، ونيوتن ، وبويل ، وكثير غيرهم ، دليلا على الوحدة المتزايدة التى تربط الأخوة العلمية . قال « ان العالم وطنى ، والنهوض بالعلم دبنى (١٥) » . ومن عجائب زمانه عقله السليم فى جسمه السقيم - فقد كان جسمه علبلا أبدا ، وعقله خلاقا حتى موته فى السادسة والسبتين . وكان انتاجه فى الرياضة أقل جزء فى انجازاته ، ومع ذلك فان الهندسة ، واللوغاريتمات ، وحساب التفاضل والتكامل - كلها أفادت من جهوده . وفى ١٦٧٣ أثبت « قانون المربعات العكسية » (أى ان جذب الاجسام بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها) وهو القانون الذى أصبح بالغ الاهمية لفلك نبونن .

وكان نيوتن الآن بالطبع أسطع نجم تكند سماء العلم البريطانى ، وهو جدير بأن نفرد له فصلا خاصا ، ولكن كان لنجمه أقمار توابع .

ومنهم صديقه جون واليس ، القسيس الانجليكاني ، الذى أصبح استاذاً « سافيليا » للهندسة فى اكسفورد عام ١٦٤٩ وهو فى الثالثة والثلاثين ، وشغل ذلك الكرسي أربعة وخمسين عاماً . وقد صرف النحو والمنطق واللاهوت قلمه عن العلم ، ومع ذلك فإنه كتب بحوثاً ذات أثر فى الرياضة والميكانيكا ، والسمعيات والفلك ، والمد والجزر ، والنبات والفسيرولوجيا ، والجيولوجيا ، والموسيقى ، ولم يعوزه سوى بعض الحب والحرب لتكتمل شخصيته . ورسالته « فى تاريخ الحبر وممارسته » (١٦٧٣) لم تسهم بأفكار أصيلة فى ذلك العلم فحسب ، بل كانت أول محاولة جدية فى انجلترة لكتابة تاريخ الرياضة . وقد ابتهج معاصروه بالجدل الطويل ببنه وبين هوبز حول حساب تربيع الدائرة ، وانتصر واليس ، ولكن الفيلسوف العجوز واصل الكفاح الى نهاية سنيه الواحدة والتسعين . ويذكر التاريخ واليس على الاخص بكتابه « حساب اللانهائيات » (١٦٥٥) الذى طبق طريقة كالفالييري فى اللانقسمات على حساب تربيع المنحنيات ، وبهذا مهد لحساب التفاضل المتناهى الصغر .

أما كلمة calculus فكانت تعنى أصلاً حجراً صغيراً استعمله الرومان القدامى فى العد ، ولكن لا يستطيع تعريف حساب التفاضل على وجه الصحيح الآن غير الراسخين فيه \times . وقد لمح أرخميدس من بعيد ، واقترب منه كبلر ، واكتشفه فيرما ولكنه لم ينشر كشوفه ، وحمل كالفالييري وتوريتشيللى فى ايطاليا ، ويسكال وروبرفال فى فرنسا ، وجون والس واسحاق بارو فى انجلترة ، وجيمس وديفد جريجورى فى

\times أما بالنسبة لما نحن غير الخبيرين به ، فيمكن وصفه بأنه حساب المقادير الغالبة للتغير ، كمقادير الوزن ، أو المسافة ، أو الزمن ، فمنسوب الماء الذى يسكب بسرعة متماثلة فى محروط مفلوب يرتفع بسرعة أقل فأقل ، وحساب التفاصيل بحدود مبلغ ارتفاع المنسوب فى أى وحدة زمنية معلومة . فالجسم الساقط فى « وسط خال من المقاومة » يزيد من سرعة سقوطه مع كل زيادة فى الزمن ، وحساب التفاصيل يبين مدى سقوطه فى أى فترة معينة . وأشكال هذا الحساب الأكثر تعقيداً تتناول اشاء المساحات للمنحنيات ، والمساحات المحاطة بمنحنى ، وتقريب الخطوط المستقيمة المضاعفة لا نهائياً الى الدائرة . وحساب التفاضل المتناهى الصغر بحسب مقداراً قابلاً للتغير باختتراله دون حد الى جزء دقيق جداً بحيث يمكن اهمال معدل التغير . وحساب التكامل يحسب مقداراً ما من واقع العلم بسرعة بغيره . وقد تبين أن جميع طرق الحساب هذه بالغة الفائدة للأعمال الهندسية .

الاسكتلندية - هؤلاء كلهم حملوا لبنات للبناء فى تعاون القارة المدهش هذا . وأوصل نيوتن وليبنتز العمل الى التمام .

واقترح لفظة calculus على ليبنتز رجل يدعى يوهان برنوىي احد افراد أسرة نفردت بورائة النبوغ الاجتماعية تفرد آل باخ ، وبروجل وكوبرين . وكان نيقولاوس برنوىي (١٦٢٣ - ١٧٠٨) كاسلافه تاجرا . وارتقى الحساب التجارى عند ولده يعقوب برنوىي الاول (١٦٥٤ - ١٧٠٥) الى أشكال أرقى من الحساب . واتخذ يعقوب هذا شعارا له القول المأثور « اننى أدرس النجوم مخالفا ارادة أبى » ، فهوى الفلك ، وأسهم فى الهندسة التحليلية ، وحسن حساب التغيرات ، وأصبح أستاذًا للرباصيين فى جامعة بازل . وقد آتت دراساته للمنحنيات الكتيانية (وهى المنحنيات التى ترسم بسلسلة منتظمة معلقة بين نقطتين) - هذه الدراسات آتت أكلها فى فترة لاحقة فى تصميم الكبارى المعلقة وخطوط النقل العالية الفولت . واتخذ أخوه يوهان (١٦٦٧ ، ١٧٤٨) الطب مهنته - مخالفا خطط أبيه هو أيضا - ثم الرياضة ، وخلف يعقوب أستاذًا فى بازل ، واسهم فى الفيزياء ، والبصريات ، والكيمياء والفلك ، ونظرية المد والجزر ، والرياضة القلوع ، وابتكر حساب التفاضل الاسي ، وأنشأ أول نظام لحساب التكامل ، وأدخل استعمال كلمة integral بهذا المعنى . ونال أخ آخر لهما يدعى نيقولاوس الاول (١٦٦٢ - ١٧١٦) درجة الدكتوراه فى الفلسفة وهو بعد فى السادسة عشرة ، وفى القانون وهو فى العشرين ، ودرس القانون فى برن والرياضة فى سانت بطرسبورج . وسنلتقى بستة رياضيين آخرين من آل برنوىي فى القرن الثامن عشر ، وكان منهم اثنان آخران فى القرن التاسع عشر ، وهنا كفت البطاريات البرنوية عن عملها .

ومن مآثر هذا العصر ارساء الاحصاء علما أو ما يشبه العلم . ذلك أن خردجيا بدعى جرونت كان يتسلى بجمع سجلات الدفن المحفوظة بأبرشيات لندن ودراستها . وكانت هذه السجلات تذكر عادة السبب المتناقل لموت الميت ، مثل « مات جوعا فى الشارع » و « أعدم وعصر حتى الموت » و « داء الملك » (الخنازيرى) و « مات جوعا عند مرضعته » و « قتلوا أنفسهم (١٦) » وفى ١٦٦٢ نشر جرونت كتابا سماه « ملاحظات طبيعية وسياسية ... على سجلات الوفيات » ،

والكتاب بداية علم الاحصاء الحديث ، وقد خلص من جداوله الى أن ستة وثلاثين فى المائة من الاطفال يموتون قبل بلوغهم السادسة ، وأربعة وعشرين فى المائة فى العشر السنوات التالية ، وخمسة عشر فى المائة فى العشر التالية . الخ (١٧) ، وتبدو نسبة الوفيات فى الاطفال مغالى فيها كثيرا هنا ، ولكنها تومىء الى جهد الحب فى ملاحقة ملاك الموت . قال جرونت « من الوفيات العديدة ما يحمل نسبة ثابتة الى جملة المدفونين ، وأعنى الوفاة بالامراض المزمنة ، والامراض التى يعظم تعرض المدينة لها ، كالسل ، والاستسقاء ، واليرقان ، الخ (١٨) » ، ومعنى هذا أن أمراضا معينة ، وظواهر اجتماعية أخرى ، وان تعذر التنبؤ بها فى الافراد ، الا انه يمكن حسابها مسبقا بدقة نسبية فى الجماعة الكبيرة وهذا المبدأ الذى صاغه جرونت هنا أصبح أساسا للتنبؤ الاحصائى . وقد لاحظ أن وقائع الدفن فى لندن فى سنوات كثيرة فاقت وقائع العماد ، وانتهى الى أن لندن تتميز بوفرة احتمالات الموت ، كالموت من هموم العمل ، و « الدخان ، والروائح العفنة ، والهواء الفاسد » و « الافراط فى الطعام » ولكن بما أن سكان لندن كانوا يتزايدون رغم هذا ، فان جرونت عزا الزيادة الى وفود المهاجرين من الريف والمدن الصغيرة - وقدر سكان العاصمة فى عام ١٦٦٢ بنحو ٣٨٤٠٠٠ نسمة .

وطبق السر وللم بتى ، صديق جرونت ، الاحصاء على السياسة . وهنا أيضا مثال آخر على تعدد فى القدرات يستحيل العثور عليه اليوم فى فرد واحد ، فان بتى بعد أن تلقى العلم فى كان ، وأوترخت ، وليدن وأمستردام ، وباريس ، درس التشريح فى أكسفورد ، والموسيقى فى كلية جريشام بلندن ، وجمع ثروة ونال لقب الفروسية باشتغاله طبيا للجيش الملكى بارلندة X . وفى ١٦٧٦ ألف كتابا هو العمدة الثانى فى علم الاحصاء الانجليزى ، وهو « الحساب السباسبى » فالسياسة فى رأى بتى لا يمكن أن تصبح علما أو كالعلم الا اذا بنت استنتاجاتها على قياسات كمية . لذلك طالب بتعداد دورى يسجل الميلاد ، والجنس ، والحالة

X يقول أوبرى انه فى اكسفورد « كان يحتفظ بالجثة .. مخلفة أو مملحة » وكانت إحدى الحثث التى جىء بها اليه لتشريحها جثة نان جرين ، التى قتلت ابنها غير الشرعى ، ووجدها بنى لا تزال تتنفس ، وردها الى الحياة ثانية (١٩) .

الزوجية ، والالقاب ، والمهنة ، والدين ، الخ . لكل شخص يسكن .
انجلترا . واعتمادا على قوائم الوفيات ، وعدد البيوت ، وزيادة المواليد
على الوفيات سنويا ، قدر أن سكان لندن في ١٦٨٢ يبلغون ٦٩٦ر٠٠٠ ،
وسكان باريس ٤٨٨ر٠٠٠ ، وسكان أمستردام ١٨٧ر٠٠٠ ، وسكان روما
١٢٥ر٠٠٠ . ورأى بتي ما رآه جوفانى بوتيريو في ١٥٨٩ وتوماس
مالنوس في ١٧٩٨ ، وهو أن عدد السكان ينحو الى الزيادة بأسرع من
موارد الرزق ، وأن هذا يفضي الى الحرب ، وأنه لن تحل سنة ٣٦٨٢
حتى تكتظ الارض الصالحة للسكنى بأهلها اكتظاظا خطرا ، اذ يعيش
شخص في كل فدانين (٢٠) .

وافادت شركات التأمين من الاحصاء فحولت عملها فنا وعلميا
أخذا في حسابهما كل شيء الا التضخم . ومن واقع تقارير الوفيات في
برسلاو أعد ادموند هالى (١٦٩٣) جدولا بالوفيات المتوقعة في جميع
الاعمار من عمر سنة الى أربع وثمانين ، وعلى أساس الجدول حسب
احتمالات وفاة الافراد في سن معينة خلال السنة الشمسية ، واستخرج
السعر المنطقي لبوليصة التأمين . وانتفعت أولى شركات التأمين على
الحياة التي أسست بلندن في القرن الثامن عشر بجداول هالى ، وأحالت
الرياضة ذهبيا .

٣ - الفلك

أخضعت النجوم للعلم في عشرات الاقطار . ففي ايطاليا اكتشف
الفلكي اليسوعى ريتشولى (١٦٥٠) أول نجم مزدوج - أى نجم يبدو
للعين المجردة واحدا ولكنه يرى بالتلسكوب نجمين واضح أنهما يدوران
الواحد حول الآخر . وفي دنزج بنى يوهان هيفيليوس مرصدا في بيته ،
وصنع آلاته الخاصة ، وصنف ١٥٦٤ نجما ، واكتشف أربعة مذنبات ،
ورصد مرور المشتري ، ولاحظ ترجحات القمر (وهى التناوبات الدورية
في رؤية أجزائه) ، ورسم سطحه ، وسمى عددا من تضاريسه بأسماء
ما زالت تظهر على خرائط القمر الى يومنا هذا . فلما أذاع على راصدى
النجوم في أوروبا أن فى استطاعته تمييز مواقع النجوم باستعمال
«ديوبتر» (رصد يستعمل عدسة واحدة أو منشورا واحدا) بنفس الدقة التى
يتميز بها هذه المواقع باستعمال تلسكوب مركب ، تحدى روبرت هوك

دعواه هذه ، وسافر هالى من لندن الى دنزج لبحقق فى الأمر ، ثم قرر أن هيفيليلوس صادق (٢١) .

ووفر لويس الرابع عشر المال لبناء وتجهيز مرصد فى باريس (١٦٦٧ - ٧٢) بعد أن نبين أهمية الفلك للملاحة . ومن ذلك المركز قاد جان بيكار البعثات أو أرسلها لدراسة السماء من نقط مختلفة على الأرض . وذهب الى أورانيبورج ليلاحظ الموقع المضبوط الذى رسم منه تبكو براهى خريطته المشهورة للنجوم ، واستطاع بمختلف الرصد التى امتدت من باريس الى أميان أن يقيس درجة طولية بدقه عظيمة (لا تختلف الا بضع بارادات عن الرقم الحالى وهو ٦٩ر٥ ميلا) حتى أنه من المعنقد أن نيوتن استخدم نتائج بيكار ليقدّر كتلة الأرض ويتحقق من نظرية الجاذبية . وبأرصاء مماثلة حسب بكار القطر الاستوائى للأرض فكان ٧ر٨٠١ ميلا - وهو تقدير غير بعيد من تقديرنا الحالى وهو ٧ر٩١٣ ميلا (٢٢) . وقد بسرت هذه الكتوف للمراكب فى عرض البحر أن تحدد مواقعها بدقه لم يسبق لها نظير . وهكذا حفز توسع أوربا التجارى وتطورها الصناعى الثورة العلمية وانتفعا بها .

وعملا باقتراح من بيكار دعا لويس الرابع عشر الى فرنسا الفلكى الايطالى جوفانى دومنيكو كاسينى ، الذى ذاع صيته فى أوربا بفضل اكتشافه شكل المسترى الكروانى ، ودوران المشتري والمريخ الدورى . فلما وصل الى باريس (١٦٦٩) استقبله الملك كانه أمير من أمراء العلم (٢٣) . وفى ١٦٧٢ أوفد ، هو وبيكار ، جان ريشيه الى كاين بأمريكا الجنوبية ليرصد المريخ فى أقصى « مواجهة » له مع الشمس وقرب من الأرض ، ورصد كاسينى نفس المواجهة من باريس . وقد أعطت المقارنة بين هذين الرصدين الآتين من نقطتين منفصلتين قيما جديدة وأكثر دقة لاختلاف منظر المريخ والشمس وبعدهما عن الأرض ، وكشفت عن أبعاد فى المجموعة الشمسية أعظم مما قدر من قبل . وبما أن الفلكيين تبينوا أن بندولا فى كاين يبطىء عن نظيره فى باريس ، فقد انتهوا الى أن الجاذبية قرب الاستواء أخف منها فى العروض العليا ، وأوحى هذا بأن الأرض ليست دائرة كاملة ، ورأى كاسينى أنها تفرطحت عند خط الاستواء ، ورأى نيوتن أنها تفرطحت عند القطبين ، وأيد المزيد من البحث رأى نيوتن ، واكتشف كاسينى اثناء ذلك أربعة أقمار ١٣ - قصة الحضارة

جديدة لزحل (ساتورن) ، وانقسام حلقة زحل الى قسمين (وهو الانقسام الذى يطلق عليه اسم كاسينى الآن) . وبعد موته عام ١٧١٢ خلفه فى مرصد باريس ابنه جاك ، الذى قاس قوس الزوال من دنكرك الى بريتيان ، ونشر أول جداول لأقمار زحل .

وقد أسهم كرستيان هويجنز فى لهاى اسهامات هامة فى الفلك قبل أن ينضم الى فريق العلماء العالمى فى باريس . فوفى هو وأخوه قسطنطين الى طريقة جديدة لشحذ العدسات وصقلها ، واستعان بها فى تركيب تلسكوبات أقوى وأصفى من أى تلسكوبات عرفت من قبل ، وبفضلها اكتشف (١٦٥٥) القمر السادس لزحل ، وحلقة هذا الكوكب الغامضة . وبعد عام قام بأول تحديد للمنطقة اللامعة (التى تحمل اسمه الآن) فى سديم أوريون وكشف عن الطابع المتعدد لنجمه النوى .

أما أعظم منافس لفلكى باريس فهو الفريق الممتاز تجمع أكثره حول هالى ونيوتن فى إنجلترا . وقد قدم جيمس جريجورى الأدنبورى المعونة من بعيد بتصميمه أول تلسكوب عاكس (١٦٦٣) - أى التلسكوب الذى تركز فيه أشعة الضوء المنبعثة من الجسم بواسطة مرآة منحنية بدلا من العدسة ، وقد حسنه نيوتن فى ١٦٦٨ . وفى ١٦٧٥ وجه جول فلامستيد وآخرون الى تشارلز الثانى مذكرا يلتمسون فيها تمويل بناء مرصد قومى ، حتى تهتدى السفن الانجليزية التى تمخر عباب البحر بطرق أفضل لحساب خطوط الطول . ودبر الملك المال للبناء ، الذى شيد فى بلدة جرينيتش قسرب القسم الجنوبى الشرقى من لندن ، واستعمل هذا نقطة لطول الصفر والزمن القياسى . وقدم تشارلز فلامستيد راتبا صغيرا على عمله مديرا ، ولكنه لم يقدم مالا تدفع منه رواتب مساعديه أو ثمن الآلات . أما فلامستيد ، الهزيل العليل ، فقد بذل حياته لذلك المرصد . فقبل تلاميذ يعلمهم ، واشترى الآلات من جيبه الخاص ، وتلقى المال هدية من أصدقائه ، وعكف فى صبر على رسم الخرائط للسماء كما ترى من جرينيتش . وقبل أن يموت (١٧١٩) كان قد أتم أوسع وأدق قائمة نجوم عرفت من قبل ، وقد أدخلت تحسينات كثيرة على القائمة التى تركها تيكوبراهى لكبر فى ١٦٠١ . وكان فلامستيد يشقى بالافتقار الى المساعدين ، ويضطر للقيام

بنفسه باعداد الاوراق التى تترك عادة للمساعدين ، فاغضب هالى ونيوتن بتعطيله حساب نتائجها واذاعتها ، وأخيرا نشرها هالى دون إذن من فلامستيد ، فثار الفلكى العليل ثورة عارمة هزت النجوم فى أفلاكها .

ومع ذلك فان ادموند هالى كان أعظم أفراد الفريق تهذيبا . كان تلميذا متحمسا لدراسة السماء ، فنشر فى العشرين بحثا عن أفلاك الكواكب ، وفى تلك السنة (١٦٧٦) خرج فى رحلة ليتبين كيف تبدو السماء من نصف الكرة الجنوبي . ومن جزيرة القديسة هيلانة رسم خرائط تبين مسلك ٣٤١ نجما . وعشية عيد ميلاده الحادى والعشرين قام بأول رصد كامل لعبور عطارد . فلما عاد الى انجلترا انتخب زميلا بالكلية الملكية وهو لم يجاوز الثانية والعشرين . وقد تبين عبقرية نيوتن ، ومول الطبعة الاولى من كتابه « المبادئ » الغالى النفقة ، وقدم له بتقريظ فى شعر لاتينى رائع اخره بيت يقول « غير مسموح لاي بشر فان بأن يقترب من الاله » (٢٤) . وحقق هالى النص اليونانى لكتاب أبولونيوس البرجاوى « المخاريط » ، وتعلم العربية ليترجم الابحاث اليونانية المخطوطة فى العربية دون سواها .

وقد سجل اسمه فى قبة السماء بنبوءة من أنجح النبوءات فى التاريخ . وكان بوريللى قد مهد لها الطريق باكتشافه الشكل القطعى المكافىء لمسالك المذنبات (١٦٦٥) . فلما ظهر مذنب فى ١٦٨٢ وجد هالى فى مسلكه نظائر مع مذنبات سجلت فى ١٤٥٦ ، و ١٥٣١ ، و ١٦٠٧ ، وقد لاحظ أن هذا المظهر حدث فى فترات من نحو خمسة وسبعين عاما ، وتنبا بظهور آخر فى ١٧٥٨ . ولم يفسح له فى الأجل ليرى تحقيق نبوءته ، ولكن حين عاد المذنب الى المظهر أطلق عليه اسمه ، وأضاف الى مكانة العلم المتزايدة . وكان الرأى فى المذنبات حتى أخريات القرن السابع عشر أنها من فعل الله مباشرة ، وأنذار للنوع الانسانى بالويل والثبور وعظائم الامور ، ولكن مقالات بيل وفونتنيل ، ونبوءة هالى ، قضت على هذه الخرافة . وطابق هالى بين مذنب آخر شوهد فى ١٦٨٠ ومذنب شوهد فى السنة التى مات فيها المسيح ، وتتبع تكرار ظهوره كل ٥٧٥ سنة ، ومن هذا الانتظام الدورى حسب

فلكه وسرعته حول الشمس . وتعقبها على هذه الحسابات ، خاص نيوتن الى أن « أجسام المذنبات صلبة ، متماسكة ، ثابتة ، متينة ، كاجسام الكواكب » وأنها ليست « أبخرة ، أو دخاناً من الارض ، والشمس ، والكواكب ، وغبرها (٢٥) » ×٠

وفى ١٦٩١ حيل بين هالى والكروسي الساقيلى للفلك باكسفورد للظن بأنه مادی النزعة (٢٦) . وفى ١٦٩٨ ، بتكليف من وليم الثالث ، أبحر موعلا فى الاطلنطى الجنوبى ، ودرس اختلافات البوصلة ، ورسم خرائط للنجوم كما ترى فى القارة القطبية الجنوبية (قال فولتير : ان رحلة ملاحى سفينة جاسون (الأرجونوت ، الباحثين عن الفروة الذهبية) اذا قيست بهذه الرحلة لم تكن أكثر من عسور مركب من ضفة نهر الى أخرى) (٢٧) . وفى ١٧١٨ قرر هالى أن عدة نجوم من المفروض أنها « ثابتة » قد غيرت مواقعها منذ أيام اليونان ، وأن نجما منها وهو الشعرى اليمانية Sirius ، قد تغير منذ أيام براهى ، وبعد أن أخذ أخطاء الرصد فى حسابه ، خلص الى أن النجوم تغير مواقعها بالنسبة لبعضها البعض فى فترات كبرى ، وهذه « الحركات الخاصة » تقبل الآن على أنها حقيقية . وفى ١٧٢١ عين خلفا لفلامستيد فى منصب فلكى الملك ، ولكن قلامستيد كان قد مات فى فقر مدقع ، فاستولى دائنوه على آلات رصده ، ووجد هالى أن عمله يعطله نقص الأجهزة وتناقص نشاطه ، ومع ذلك بدأ وهو فى الرابعة والستين يرصد ويسجل ظواهر القمر خلال دورته الكاملة ذات الثمانية عشر عاما . ومات فى ١٧٤٢ وقد بلغ السادسة والثمانين ، بعد أن شرب بحكمة قدحا من النبيذ مخالفا أوامر طبيبه . فالحياء ، كالنبيذ سواء بسواء ، يجب ألا يسرف فى تعاطيها .

× قبيل ذلك كان درايدن فى قصته الشعرية « أبشالوم وأخيتوقل » (١٦٨١) قد وصف المذنبات بأنها « تنبعث من الابخرة الارضية قل أن تسطح فى السماوات » .

٤ - الأرض

كان هالى فى ولعه بالعلم قد غامر بالخوض فى مجاهل الارصاد الجوية بمقال (١٦٩٧) فى الرياح التجارية ، وخريطة رسمت لأول مرة حركات الهواء . وقد عزا هذه الحركات لفروق فى درجات حرارة الجو وضغطه ، فالشمس فى حركتها الظاهرية الى الغرب تحمل الحرارة معها ، لا سيما على طول مناطق العالم الاستوائية ، والهواء الذى تخلخل بفعل هذه الحرارة يجتذب هواء أقل تخلخلا من الشرق ويحدث الرياح الاستوائية السائدة التى اعتمد عليها كولبس فى ابحاره من الشرق الى الغرب . وكان فرانسس بيكون قد أومأ الى تفسير شبيه بهذا . وسيطوره جورج هالى فى ١٧٣٥ باضافة هذا الرأى وهو أن السرعة الاكبر لدوران الأرض الى الشرق عند خط الاستواء تحدث تدفقا عكسيا للهواء نحو الغرب .

وقد جعل تطور البارومتر والترمومتر من الارصاد الجوية علما . فبارومتر حويريكى تنبأ تنبؤا صحيحا بعاصفة شديدة فى ١٦٦٠ . واخترعت « مراطيب » مختلفة فى القرن السادس عشر لقياس الرطوبة . واستعملت « الاكاديميا ديل تشيمنتو » اناء مدرجا يتلقى الرطوبة المتساقطة من خارج مخروط معدنى مملوء بالثلج . ووصل هوك فرشاة حبوب ، أو « لحية » - تنتفخ وتنحنى مع زيادة الرطوبة فى الهواء - بأبرة مؤشرة تتحرك عند انتفاخ الفرشاة . كذلك اخترع هوك مقياسا للرياح ، وبارومترا ذا عجلة ، وساعة جوية . وهذه الساعة التى صممها بناء على تكليف من الجمعية الملكية (١٦٧٨) كانت تقيس وتسجل سرعة الرياح واتجاهه ، وضغط الجو ورطوبته ، ودرجة حرارة الهواء ، وكمية المطر ، وتبين الوقت فوق ذلك . وشرعت المحطات فى مختلف المدن ، بعد أن سلحت بالآلات المحسنة ، تسجل وتقارن بين أرصادها الآنية ، كما حدث بين باريس واستكهولم فى ١٦٤٩ . وارسل الدوق الاكبر فرديناند الثانى أمير توسكانيا ، وراعى أكاديمية التشيمنتو ، البارومترا ، والترمومترا ، والمراطيب ، الى راصدين مختارين فى باريس ، ووارسو ، وانزبروك ، وغيرها ، ومعها تعليمات- يسجل البيانات الرصدية يوميا ، وارسل نسخة منها الى فلورنسة

للمقارنة . وأقنع ليبنتز المحطات الجوية فى هانوفر وكيل بأن تحتفظ
بسجلات يومية من ١٦٧٩ الى ١٧١٤ .

أما هوك ، الذكى الذى لم يحسم عملا ، فقد فتح عشرات من
مسالك البحث المبشرة بالنجاح ، ولكن افتقاره الى المال والصبر أعجزه
عن المضي فيها الى نهايات مشهورة . فنحن نجده فى كل مكان فى
تاريخ العلم البريطانى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . كان
ابن وزير « مات بتعليق نفسه (٢٨) » ، وأرهص بتنوع مواهبه ذلك
التنوع المتذبذب ، فرسم الصور ، وعزف على الأرغن ، وابتكر ثلاثين
طريقة مختلفة للطيران . وفى أكسفورد انصرف لدراسة الكيمياء ،
وعمل مساعدا لروبرت بويل . وفى ١٦٦٢ عين « أمينا للتجارب » فى
الجمعية الملكية ، وفى ١٦٦٥ كان أستاذا للهندسة بكلية جريشام ، وفى
١٦٦٦ ، بعد حريق لندن الكبير ، اشتغل بالعمارة وصمم عدة مبان
كبيرة - كبيت مونتاجيو ، وكلية الاطباء ، ومستشفى بيت لحم
(« بدلام ») . وبعد طول اكباب على الميكروسكوبات ، نشر رائعته
« ميكروجرافيا » (١٦٦٥) الذى احتوى على عدد من الافكار الموحية فى
علم الاحياء . وعرض نظرية فى الامواج الضوئية . وساعد نيوتن فى
البصريات ، وكان سباقا الى قانون المربعات العكسية ونظرية الجاذبية .
وكشف النجم الخامس فى أوريون ، وقام بأول المحاولات ليحدد بالتلسكوب
اختلاف منظر نجم ثابت . ثم عرض نظرية حركية للغازات فى ١٦٧٨ ، ووصف
نظاما للتلغراف فى ١٦٨٤ . وكان من أوائل من استعملوا الزنبرك فى
ضبط الساعات ، وأرسي مبدأ آلة السدس لقياس الأبعاد الزاوية ، وصنع
اثنتى عشرة آلة علمية . وأغلب الظن أنه كان أعظم العقول أصالة فى
كوكبة العباقرة التى جعلت من الجمعية الملكية حينها محدد الخطوة
للعلم الأوربى ، ولكن طبيعته المكتئبة العصبية خالت بينه وبين ما كان
جديرا به من ثناء ومديح .

وقد كان له حتى فى الجيولوجيا لحظة صدق . فقد زعم أن
المتحفرات تدل على قدم الارض والحياة قدما يتعارض تماما مع سفر
التكوين ، وتنبأ بأن تاريخ الحياة على الارض سيحسب يوما ما على
أساس المتحفرات المختلفة فى الطبقات المتعاقبة . وكان أكثر كتاب
القرن السابع عشر لا يزالون يقبلون قصة الخلق الكتابية ، وكافح

بعضهم للتوفيق بين سفر التكوين وكشوف الجيولوجيا المتفرقة . وفى مقال « نحو تاريخ طبيعى للأرض » (١٦٩٥) ، أعاد جون وودوارد ، بعد دراسة طويلة لمجموعته الكبيرة من المتحفرات ، تفسير ليوناردو دافنشي لها بأنها بقايا نباتات أو حيوانات عاشت يوما ما على الأرض ، ولكنه هو أيضا ذهب الى أن توزيع المتحفرات نتيجة لطوفان نوح . ثم اقترح قسيس أنجليكانى يدعى توماس بيرنيت (١٦٨٠) التوفيق بين سفر التكوين والجيولوجيا بمده « أيام » أسطورة الخليفة كما وردت فى سفر التكوين الى حقبة ، وتقبل الناس هذه الحيلة ، ولكن حين استجمع توماس أطراف شجاعته وراح يفسر قصة آدم على أنها رمز ، وجد نفسه محروما من الترقية للمناصب الكنسية .

وكان أثناسيوس كيرشر يسوعيا تقيا وعالما فذا ، وسنراه يلمع فى ميادين عديدة . وقد رسم كتابه ، عالم ما تحت الأرض » (١٦٦٥) خرائط لتيارات المحيط ، ورأى أن المجارى الباطنية يغذيها البحر ، وعزا ثوران البراكين والعيون الساخنة لنيران باطنية ، وبدا هذا تأكيدا للاعتقاد الشائع بأن الجحيم فى مركز الأرض . أما بيير بيرو (١٦٧٤) فقد رفض الفكرة القائلة بأن العيون والانهار لها منابع باطنية ، وقال بالرأى المقبول الآن ، وهو أنها نتاج الامطار والثلوج . وعلل مارتن لستر ثوران البراكين بأنه نتيجة سخونة الكبريت فى كبريتور الحديد والانفجار المترتب على السخونة ، وأظهرت التجربة أن خليطاً من برادة الحديد ، والكبريت ، والماء ، مدفونا فى الأرض ، أصبح ساخنا وشقق الأرض من فوقه ، ثم تفجر لهيبا .

أما ألمع العلماء فى جيولوجية ذلك العصر فقد عرفته الدنمرك باسم نيلز ستينسن ، وعرفته دولية العلم باسم نيقولاوس ستينو . ولد فى كوبنهاجن ، ودرس الطب فيها وفى ليدن ، حيث سلك سبينوزا فى زمرة أصدقائه (٢٩) . ثم هاجر الى ايطاليا ، واعتنق الكاثوليكية وأصبح طبيب البلاط لفرديناند الثانى فى فلورنسة . وفى ١٦٦٩ نشر مجلدا صغيرا اسمه *De solido intra solidum naturaliter contento* عده أحد الطلبة « أهم وثيقة جيولوجية فى ذلك القرن (٣٠) » وكان هدفه تأكيد الرأى الجديد فى المتحفرات ، ولكن على سبيل التمهيد له

وضع ستينو لأول مرة أسسا تشرح تطور القشرة الارضية . وقد وجد بدراسة جيولوجية توسكانيا ست طبقات متعاقبة . وحلل تركيبها ومحتوياتها ، وتكوين الجبال والادوية ، وأسباب البراكين والزلازل ، وشواهد المتحفرات على مستويات الانهار والبحار التى كانت أعلى فيما سبق من الأزمنة . وكان فى الشهرة التى حظى بها الكتاب ، وفى الدراسات التشرحية التى قام بها ستينو ، ما حمل الملك كرسيتيان الرابع على أن يعرض عليه كرسي التشریح فى جامعة كوبنهاجن . فقبله ، ولكن كاثوليكيته الغيور أحدثت شيئا من الاحتكاك ، فعاد الى فلورنسة ، وانتقل من العلم الى الدين ، واختتم حياته أسقفا لتيوبوليس ونائبا رسوليا لشمالي أوروبا .

وكانت الجغرافيا خلال ذلك تنمو ، عادة بوصفها نتاجا جانبيا للمشروعات النبشيرية أو العسكرية أو التجارية ، وقد أخلص اليسوعيون للعلم اخلاصهم للدين أو السياسة تقريبا ، وكان كثير منهم ينتمون الى جماعات علمية رحبت بتقاريرهم الجغرافية والاثنوغرافية . وقد تغلغلوا فى بعثاتهم الدينية فى كندا والمكسبك والبرازيل والتبت ومنغوليا والصين وجمعوا وأرسلوا الكثير من المعارف العلمية ، ورسوموا أفضل الخرائط للمناطق التى زاروها . وفى ١٦٥١ نشر مارتينو مارتيني « الاطلس الصينى » وهو أرقى وصف جغرافى للصين طبع الى ذلك التاريخ ، وفى ١٦٦٧ أصدر أثناسيوس كيرشر كتابه الرائع « الصين المصورة » . وأوفد لويس الرابع عشر علماء يسوعيين مزودين بأحدث الآلات لرسم خريطة الصين ثانية ، وفى ١٧١٨ أصدروا خريطة هائلة فى ١٢٠ فرخا تغطى الصين ومنشوريا ومنغوليا والتبت ، وقد ظلت مدى قرنين الأساس لكل ما تلاها من خرائط لتلك المناطق . أما أعجوبة العصر الخرائطية فهى الخريطة التى بلغ قطرها أربعة وعشرين قدما ، والتى رسمها جوفانى كاسيني ومساعدوه بالجبر على أرضية مرصد باريس (حوالى ١٦٩٠) ، وبينوا عليها بالضبط مواقع جميع الأماكن الهامة على الكرة الارضية يخطوط العرض والطول (٣١) .

وينتمى لهذه الفترة بعض مشاهير الرحالة . وقد ألمنا من قبل

يكتتاب تافرنبيه « ست رحلات من أوربا لآسيا » (١٦٧٠) وكتساب
شاردان « رحلات في فارس » (١٦٨٦) . كتب تافرنبيه يقول « في
رحلاتي الست ، وأثناء سفرى بطرق مختلفة ، أتيح لى من الفراغ
والفرص ما مكننى من مشاهدة تركيا كلها ، وفارس كلها ، والهند
كلها . . . وفى المرات الثلاث الاخيرة جاوزت نهر الجنج الى جزيرة
جاجة ، وهكذا قطعت فى أربعين عاما أكثر من ستين ألف فرسخ
بالبر (٣٢) » . أما شاردان فقد سبق بعبارة واحدة « روح قوانين »
مونتسكيو . قال : « ان مناخ كل جنس . . . هو دائما السبب فى ميول
سعبه وعاداته (٣٣) » . وفى ١٦٧٠ - ٧١ نشر فرانسوا برنبيه وصفا
لرحلاته ودراساته فى الهند ، وقد اتهم بأنه نفى عنه مسيحيته فى
الطريق (٣٤) . وغامر وليم دامبييه بالرحلة فى عشرات الاقطار
والبحار ، وكتب « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) وأعطى اشارة
البده لديفو حين روى كيف قاد فى احدى رحلاته الاخيرة السفينة التى
انقذت الكسندر سيلكرك من جزيرة لابسكنها غيره (١٧٠٩) .

ولعبت الجغرافيا دورها فى الغض من اللاهوت المسيحى . فكلما
تجمعت الاخبار عن القارات الاخرى لم تملك الطبقات الاوربية المتعلمة
الا العجب من اختلاف الاديان على ظهر الأرض ، والتشابه بين الخرافات
الدينية ، ووثوق كل دين من صدق عقيدته ، والمستوى الخلقى
للمجتمعات الاسلامية أو البوذية ، ذلك المستوى الذى أخزى من بعض
الوجوه تلك الحروب الدامية وذلك التعصب القتال الذى يشين شعوبا
وهبت الايمان المسيحى . وروى البارون دلاهونت أن فى رحلته فى
كندا عام ١٦٨٣ لقى عنتا من جراء نقد الوطنيين الهنود للمسيحية (٣٥) ،
واستشهد ببل المرة بعد المرة بعادات الصينيين أو اليابانيين وأفكارهم
فى نقده المعتقدات وأساليب العيش الاوربية . وأصبحت نسبة الأخلاق
من البديهييات فى فلسفة القرن الثامن عشر ، ووصف أحد الظرفاء
أسفار « جاك سيدان » الخنئى ، الذى اجتهد حين وجد بلدا كل أهله
موطيون ، ينظرون الى الاوربيين الذين يشتهون الجنس الآخر نظرتهم
الى هولات فاسقة مقززة .

٥ - الفيزياء

كان اصطدام الفيزياء والكيمياء بالعقيدة القديمة أقل ظهوراً من اصطدام الجغرافيا والاحياء بها ، لأنهما تتناولان الجوامد والسوائل والغازات التي تبدو انها لا علاقة لها باللاهوت ، ولكن تقدم العلم - حتى فى ذلك المضمار المادى - كان ينشر حكم القانون ويضعف الايمان بالمعجزات . واعتمدت دراسة الفيزياء على الحاجات التجاربية والصناعية لا على الاهتمامات الفلسفية .

ويعد أن أقنع الملاحون الفلكيين برسم خرائط للسماء بدقة أكثر ، عرضوا الآن المكافآت على من يضع ساعة تعين على ايجاد خط الطول رغم اضطرابات البحر . وكان فى الامكان تحديد خط الطول فى البحر بمقارنة لحظة شروق الشمس أو الزوال بالزمن الذى تظهره فى تلك اللحظة ساعة ضبطت على وقت جرينتش أو باريس ، ولكن ما لم تكن الساعة دقيقة فان الحساب يخطئ خطأ خطرا . وفى ١٦٥٧ توصل هويجنز الى صنع ساعة يعتمد عليها بوصل بندول بترس شاكوش مسنن، ولكن ساعة كهذه عديمة النفع فى مركب يعلو ويهبط X . وبعد محاولات كثيرة ، ركب هويجنز ساعة بحرية ناجحة باحلاله محل البندول ترس توازن يديره زنبركان . وكانت الفكرة من بين الاقتراحات المنيرة التى فصلها فى كتاب من عيون العلم الحديث « ساعة البندول » ، وقد نشره فى باريس عام ١٦٧٣ . وبعد ثلاث سنوات اخترع هوك شاكوش الساعات الكبيرة المثبت ، واستعمل الزنبرك اللولبى على ترس توازن الساعات ، وشرح حركة الزنبرك على أساس مبدأ « كما يكون الشد تكون القوة » ومازال هذا يسمى قانون هوك . وأمكن الآن أن تصنع ساعات الجيب صناعة أكفأ وأرخص من ذى قبل .

وقد درس هويجنز فى كتاب « ساعة البندول Horologium

X رسم ليوناردو دافنتشي حوالى عام ١٥٠٠ رسوما لبندول وشاكوش، ساعة ووضع جاليليو بعض هوائين البندول ، وتصور فكرة ساعة البندول فى ١٦٤١ ، ولكنه مات قبل أن يطبق الفكرة عمليا . وفى ١٦٥٦ صنع كاميرينى ساعة صغيرة ببندول قبل هويجنز ببضعة شهور قط .

وفى كتيب خاص قانون القوة المركزية الطاردة - ومؤداه أن كل جزيء فى جسم دائر لا يقع فى محور الدوران معرض لقوة طرد مركزية تزداد مع بعده عن المحور ومع سرعة الدوران . وصنع كرة من طفل تدور بسرعة ، ووجد أنها تتخذ شكلا كروانيا مفرطحا عند طرفى المحور . وعلى مبدأ الطرد المركزى هذا فسر فرطحة المشترى عند قطبيه ، وقياسا على ذلك استنتج أن الأرض أيضا لابد أن تكون مفرطحة فرطحة طفيفة عند القطبين .

وواصل كتاب هويجنز Tractatus de Motu Corporum ex Percussione (١٧٠٣) الذى نشر بعد موته بثمانى سنوات ، الدراسات التى قام بها جاليليو ، وديكارت ، وواليس فى مشكلات التصادم (impact) التى تناولت اسارا مثيرة للفضول ، من لعب البليارد الى تصادم النجوم . فكيف تنتقل القوة من جسم متحرك الى جسم يضربه ، ولم يحل هويجنز اللغز ، ولكنه قرر مبادئ أساسية :

١ - اذا كان هناك جسم ساكن وصدمه جسم مساو له ، فان هذا ينتهى الى السكون بعد الصدمة ، فى حين يكتسب الجسم الذى كان فى البدء ساكنا سرعة الجسم الذى صدمه .

٢ - اذا اصطدم جسمان متساويان بسرعتين مختلفتين ، فانهما يتحركان بعد الصدمة بسرعتين متبادلتين .

١١ - اذا تصادم جسمان فان مجموع حاصل ضرب الكتلتين فى مربعى سرعتيهما واحد قبل الصدمة وبعدها .

وقد عبرت هذه القضايا التى صاغها هويجنز فى ١٦٦٩ تعبير جزئيا عن أشمل أساس من أسس الفيزياء الحديثة ، وهو عدم فناء الطاقة . على أنها كانت صادقة من الناحية المثالية أو النظرية فقط ، لأنها افترضت المرونة التامة فى الاجسام . ولما لم يكن فى الطبيعة جسم مرن مرونة كاملة ، فان السرعة النسبية للاجسام الصادمة تتناقص حسب المادة التى تتألف منها . وقد حدد نيوتن معدل التناقص هذا فى الخشب ، والفلين ، والصلب ، والزجاج ، فى التعليق التمهيدى للجزء الاول من كتابه « المبادئ » (١٦٨٧) .

وتدفق نهر آخر من أنهار البحث العلمى من التجارب التى اجراها توريتشلى وبسكال على الضغط الجوى ، فقد أعلن بسكال فى ١٦٤٧ أن « أى اناء مهما كان كبره ، يمكن افراغه من كل مادة معروفة فى الطبيعة ومدركة بالحواس (٣٧) » وقد ظلت الفلسفة الاوربية مئات السنين تعلن أن « الطبيعة تكره الفراغ » ، وحتى الآن أخبر أستاذ باريسى بسكال أن الملائكة ذاتها لا تستطيع أن تحدث فراغا ، وقال ديكارت بازدرء ان الفراغ الوحيد الموجود هو فى رأس بسكال . ولكن حدث حوالى عام ١٦٥٠ أن أوتو فون جويريكى ركب فى مجدبورج مضخة هوائية أحدثت فراغا كاملا تقريبا ، حتى لقد أدهش كبار مواطنيه وأقطاب العلم بتجربة شهيرة اسمها « نصف كرة مجدبورج » (١٦٥٤) . ففى حضرة الامبراطور فرديناند الثالث والديت الامبراطورى فى راتزيون قرب محاريتين نصف كرويتين من البرونز الواحد من الاخرى بحيث أحكم خنمهما دون أن يوصلا آليا عند حافتيهما وضخ كل الهواء تقريبا من داخلهما الملتصقين ، ثم أرى الحاضرين أن القوة المجتمعة لستة عشر حصانا - ثمانية منها تشد فى اتجاه ، وثمانية فى اتجاه مضاد - لا تستطيع فصل نصفى الكرة ، ولكن حين فتح محبس فى أحد النصفين فأدخل الهواء ، أمكن فصل المحارتين باليد .

وكان جويريكى شغوبا بتبسيط الفيزياء للأباطرة . فاستطاع بتفريغ كرة نحاسية من الماء والهواء أن يجعلها تسقط بفرقة عالية مفزعة ، وبهذه الطريقة أوضح ضغط الهواء . ووازن بين كرتين متساويتين ، وأسقط احدهما بتفريغه الهواء من الاخرى ، وهكذا أثبت أن للهواء وزنا ، واعترف بأن كل الفراغات ناقصة ، ولكنه أثبت أن فى فراغاته الناقصة تلك تنطفئ الشعلة ، وتختنق الحيوانات ، وتسكت الساعة الدقاقة ، وهكذا مهد للكشف عن الاوكسجين ، وبين أن الهواء ناقل الصوت . واستعمل امتصاص الفراغ لضخ الماء ورفع الاثقال ، وأسهم فى التمهيد للآلة البخارية . فلما أصبح عمدة مجدبورج آخر نشر كشوفه حتى عام ١٦٧٢ ، ولكنه أبلغها لكاسبار شوت أستاذ الفيزياء اليسوعى بفورتزبورج ، الذى طبع وصفا لها فى ١٦٥٧ . وهذا المطبوع هو الذى حفز بويل الى بحوثه التى أفضت الى قانون الضغط الجوى .

أما روبرت بويل فكان عاملا هاما فى ازدهار العلم الانجليزى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . كان أبوه رتشرى بويل ، ايرل كورك ، قد اقتنى ضيعة كبيرة فى ايرلنده ، ورث روبرت معظمها وهو فى السابعة عشرة (١٦٤٤) ، وفى زيارته المتكررة للندن تعرف الى واليس ، وهوك ، ورن ، وغيرهم من أعضاء « الكلية غير المنظورة » ، فلما افتتن بجهودهم وتطلعاتهم انتقل الى اكسفورد وبنى بها مختبرا (١٦٥٤) . وكان رجلا ذا حماسات حارة وورع لا قبل لعلم من العلوم بتدويره . فقد رفض أن يمضى فى الاتصال بسبينوزا (عن طريق أولدنبرج) حين علم أن الفيلسوف يعبد « الجوهر » باعتباره الله ، ولكنه وضع قدرا كبيرا من ثروته فى خدمة العلم وأعان الكثيرين من أصحابه . كان طويلا ، نحىلا ، هزيلا معتلا أكثر الوقت ، ولكنه أوقف الموت على مبعدة منه بالحمية والتكشف الصارمين ، وقد وجد فى مختبره « ماء نهر النسيان ، ذلك الماء الذى ينسينى كل شيء الا بهجة اجراء التجارب (٣٨) » .

وبعد أن سمع بويل بمضخة جويريكي الهوائية ، صمم بمساعدة هوك (١٦٥٧) « آلة هوائية » لدراسة خواص الغلاف الغازى . وبهذه الآلة وما تلاها من مضخات أثبت أن عمود الزئبق فى البارومتر يسندة الضغط الجوى ، وقاس بالتقريب كثافة الهواء . وزاد على تجربة جاليليو المزعومة فى بيزا بأثباته أن حزمة الريش تسقط بنفس سرعة سقوط الحجر ، حتى فى فراغ غير كامل . وبرهن على أن الضوء لا يتأثر بالفراغ ، وأذن فهو لا يستعمل الهواء كما يستعمل الصوت وسيطا لانتقاله ، وأيد برهان جويريكي على أن الهواء لا غنى عنه للحياة (فحين أغمى على فأر فى الحجرة المفرغة ، أوقف التجربة وأنعشه بادخال الهواء) . ونحن نرى دولية العلم فى تحركها حين نعلم أن جويريكي حفزته جهود بويل ليصمم مضخة هوائية أفضل ويستأنف دراساته العلمية ، وأن هويجنز ، بعد زيارته لبويل عام ١٦٦١ ، أغرى بصنع آلات شبيهة والقيام باختبارات مماثلة .

ومضى بويل فى أبحاثه الخلاقة فى الانكسار ، والبلورات ، والاوزان النوعية ، والهيدروستاتيكا ، والحرارة . وتوج اسهاماته فى الفيزياء بصياغته القانون الذى يحمل اسمه : وهو أن ضغط الهواء أو

أى غاز يتناسب تناسباً عكسياً مع حجمه - أو أن ضغط الغاز مضروباً على حجمه يكون ثابتاً عند درجة حرارة ثابتة . وقد أذاع هذا المبدأ لأول مرة فى ١٦٦٢ ، وفى سماحة وكرم نسب الفضل فيه الى تلميذه وتشرد تاونلى . وكان هوك قد توصل الى الصيغة ذاتها فى ١٦٦٠ بتجارب مستقلة ، ولكنه لم يذعها الا فى ١٦٦٥ . وتوصل قس فرنسي يدعى ادمى ماريوت فى نحو الوقت الذى توصل فيه بويل الى نتيجة مماثلة ، وهى « أن الهواء ينضغط حسب الثقل الواقع عليه » ، ونشر هذا فى ١٦٧٦ ، واسمه لا اسم بويل هو المرتبط فى القارة بقانون الضغط الجوى . وأيا كان صاحب الفضل فى القانون ، فانه كان من أسلاف الآلة البخارية والثورة الصناعية .

وتابع بويل وهوك رأى بكون فى أن « الحرارة حركة تمدد لا فى الجسم كله بشكل منتظم ، بل فى أجزائه الصغرى (٣٩) » . وقد وصف هوك الحرارة بأنها « خاصية تنشأ فى جسم ما من حركة أجزائه أو هيجانها » ، ويميز بينها وبين النار واللهب ، اللذين نسبهما الى فعل الهواء فى الاجسام المحماة . قال « كل الاجسام لها درجة ما من الحرارة فيها » وذلك لأن « أجزاء جميع الاجسام وإن لم تكن شديدة الصلابة الا أنها تتذبذب قطعاً (٤٠) » ، أما البرودة فليست الا مفهوماً سلبياً . وسلى ماريوت أصحابه حين أراهم أن « البرودة » يمكن أن تحترق ، فبلوح مقعر من الثلج ركز ضوء الشمس على البارود فانفجر . وقد أذاب الكونت ايرنفريد فالتر فون تشيرنهاوس ، صديق سبينوزا ، الخزف الصينى والريالات الفضية بتركيزه ضوء الشمس عليها .

وفى فيزياء الصوت برهن انجليزيان - هما وليم نوبل وتوماس بييجوت - كل على حدة (نحو ١٦٧٣) على أن أجزاء مختلفة من الوتر ، لا الوتر كله فحسب ، قد تتذبذب بنغمات توافقية ، تجاوباً مع وتر قريب ومتصل ، ينقر أو يضرب أو يثنى . وقد اقترح ديكارت هذا على ميوسين ، وعملاً بهذه الفكرة توصل جوزف سوفير ، مستقلاً الى نتائج شبيهة بما توصل اليه الانجليزيان (١٧٠٠) ، ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن سوفير ، الذى كان أول من استعمل كلمة acoustics « السمعيات » ، كان أصم أبكم منذ ولادته (٤١) . وفى ١٧١١ اخترع

جون شور الشوكة الرنانة . وقام بوريللى ، وفيفيانى ،
وبيكار ، وكاسينى ، وهويجنز ، وفلامستيد ، وبويل ، وهالى ،
ونيوطن ، بمحاولات فى هذه الفترة لايجاد سرعة الصوت . وكان
أقرب تقدير لتقديرنا الحالى هو تقدير بويل ، الذى قرر أنها تبلغ
١٢٦١٢٦ قدما فى الثانية . وقرر وليم ديرام (١٧٠٨) أن هذه المعرفة
يمكن الانتفاع بها فى حساب بعد العاصفة بملاحظة الفترة بين وميض
البرق والصاعقة .

ولعل النصف الثانى من القرن السابع عشر أزهى فترة فى تاريخ
فيزياء الضوء ، فأولا ، ما هذا الضوء ؟ لقد غامر هوك ، وهو المستعد
دائما للتنقيب عن الصعوبات ، برأى يزعم أن الضوء « ليس الا حركة
خاصة لأجزاء الجسم المضيء (٤٢) » - أى أن الضوء لا يختلف عن
الحرارة الا فى الحركة الاسرع التى تتحركها الجزيئات x المكونة
للجسم . ثانيا ، ما مدى سرعة تحركه ؟ لقد افترض العلماء الى ذلك
الحين أن سرعة الضوء غير محدودة ، وحتى هوك المغامر قال انها
على أية حال أكبر من أن تقاس . وفى ١٦٧٥ برهن فلكى دنمسركى
يدعى أولوس رويمر ، استقدمه بيكار الى باريس ، على سرعة الضوء
المحدودة ، اذ لاحظ أن فترة خسوف أقرب التوابع الى قلب المشتري تتفاوت
حسب اقتراب الارض أو ابتعادها من ذلك الكوكب . وقد أثبت بحسابات
مبنية على زمن دورة التايك وقطر فلك الارض ، أن التفاوت فى زمن
الخسوف الملحوظ راجع الى الزمن الذى يستغرقه الضوء من التابع
ليقطع فلك الارض ، وعلى هذا الاساس الهزيل حسب سرعة الضوء
بنحو ١٢٠٠٠٠ ميل فى الثانية (وتقديرنا الحالى يبلغ ١٨٦٠٠٠
ميل) .

ولكن كيف ينتقل الضوء ؟ أيتحرك فى خطوط مستقيمة ، اذا
كان الأمر كذلك فكيف يدور حول الزوايا ؟ لقد اكتشف فرانشسكو
جريمالدى ، الاستاذ اليسوعى ببولونيا ، (١٦٦٥) ظاهرة الانحراف

x قارن المفهوم الحالى للضوء ، وهو أنه طاقة مشعة مرئية . فكل الاجسام
يعبرض أنها ترسل باستمرار طاقة مشعة . والاشعاع من أجسام أدفا من جسم الانسان
محس بها الجلد حرارة ، ولكن اذا زادت درجة حرارة الجسم زيادة كافية أصبح
مضيئا - أى أن بعض اشعاعه المنبعث تحه العين ضوءا .

وسماها - وهى أن أشعة الضوء المارة من ثقب صغير الى حجرة مظلمة تنتشر على الحائط المواجه باتساع أكبر مما تتيجها الخطوط المستقيمة من المصدر الى الحائط ، وأن أشعة الضوء تنحرف انحرافا طفيفا عن الخط المستقيم حين تمر بأطراف جسم معتم ، وقد أفضت هذه الكشوف وغيرها بجريمالدى الى قبول الرأى الذى ألمع اليه ليوناردو دافنشي ، وهو أن الضوء يتحرك فى موجات متسعة . ووافق هوك ، ولكن هويجنز هو الذى أثبت نظرية الموجات التى مازالت شائعة بين الفيزيائيين . وفى كتاب آخر من عيون العلم الحديثة بدعى « رسالة فى الضوء » (١٦٩٠) أورد هويجنز النتائج التى توصل اليها من دراسات بدأت قبل اثنتى عشرة سنة : وهى أن الضوء تنقله مادة افتراضية سماها « الاثير » (عن المرادف اليونانى للسماء) ، وتصور أنها تتألف من أجسام صغيرة ، قاسية ، مرنة ، تنقل الضوء فى موجات دائرية متعاقبة تنتشر خارجة من المصدر المضيء . وعلى هذه النظرية أسس قوانين الانعكاس ، والانكسار المزدوج ، وعزا للحركة المغلفة للأمواج قدرة الضوء على الحركة حول الاركان والاجسام المعتمة ، وفسر الشفافية بأن افترض أن جزيئات الاثير من الدقة بحيث تستطيع أن تصافر حول الجزيئات التى تؤلف السوائل والجوامد الشفافة وبينها . ولكنه اعترف بعجزه عن تعليل الاستقطاب ، وهذا من أسباب رفض نيوتن لفرض الموحات وتفضيله نظرية الجزيئات الضوئية .

ولم يحرز القرن السابع عشر غير تقدم متواضع فى دراسة الكهرباء بعد العمل الذى قام به جلبرت وكيرشر فى ميدان المغنطيسية ، وكابيو فى التنافر الكهربى . وقد درس هالى تأثير المغنطيسية الارضية فى ابر البوصلة ، وكان أول من تبين الصلة بين مغنطيسية الارض والفجر الكاذب *aurora borealis* (١٦٩٢) . ووصف جويريكى فى ١٦٧٢ بعض تجاربه فى كهرباء الاحتكاك . فالكرة من الكبريت ، بعد أن أديرت على يده ، جذبت الورق ، والريش ، وغيرها من الاجسام الخفيفة ، وحملتها معها فى دورانها ، وقد ربط بين هذا وبين حركة الارض اذ تحمل معها الاجسام التى على سطحها أو بقربه . وتحقق من التنافر الكهربى اذ أثبتت أن الريشة اذا وضعت بين الكرة المكهربة وأرضية الحجرة تقفز الى أعلى وأسفل من الواحدة الى الأخرى . وكان رائدا فى دراسة التوصيل ، اذ برهن على أن الشحنة الكهربائية تستطيع

أن تسافر على خيط من الكتان ، وإن الأجسام يمكن أن تتكهرب بتقريبها من الكرة المكهربة . وقد ابتكر فرانسس هوكسبى ، عضو الجمعية الملكية (١٧٠٥ - ٩) طريقة أفضل لتوليد الكهرباء بإدارته كرة زجاجية مفرغة دوراناً سربعا ، ثم وضعها على يده ، وقد انبعث من الاحتكاكات شرر طوله بوصة أحدب ضوءا بكفى للقراءة . وشبه انجليزى آخر بدعى وول ، صوت وضوء شرر مماثل أحدثه ، بالرعد والبرق (١٧٠٨) . وعقد نيوتن نفس المقارنة فى ١٧١٦ ، وأكد فرانكلن العلاقة فى ١٧٤٩ . وهكذا نرى الكون الهائل المستغل ، سنة بعد سنة ، وعفلا بعد عقل ، يقضى بنتفه مغربة من سره المكنون .

٦ - الكيمياء

شهد هذا القرن الرائع علم الكيمياء بتطور من تجارب الخيمياء وأوهامها . وكانت الصناعة منذ زمن تجمع المعرفة الكيميائية عن طريق عمليات صهر الحديد ، ودبغ الجلود ، ومزج الأصباغ ، وتخمير البعة ، ولكن فحص المواد فى تركيبها ، واتحادها ، ونحولها ، كان فى أغلبه متروكا للمشتغلين بالكيمياء الساحثين عن الذهب ، أو للصيادلة المجهزين للعقاقير . أو للفلاسفة - من ديموقريطس الى ديكارت - الحائرين فى تركيب المادة . وقد حاول اندرياس ليبافيوس فى ١٥٩٧ ، وجان فان هيلمونت فى ١٦٤٠ ، الدخول الى علم الكيمياء ، ولكن كلا الرجلين شارك الكيميائيين أملمهم فى تحويل المعادن « الخسيسة » ذهباً . وقام بويل نفسه بتجارب بهذا الهدف . وفى ١٦٨٩ حصل على العاء لقانون انجليزى قديم ضد «تكتير الذهب والفضة (٤٣)» ، وعند وفاته (١٦٩١) خلف لمفدى وصيته كمية من التراب الاحمر وتعليمات بمحاولة تحويلها الى ذهب (٤٤) . والآن وقد أصبح تحويل المعادن « كلشيها » للكيمياء ، فان فى وسعنا أن نشيد بالعلم الذى انطوت عليه الخيمياء بينما ندين للهفة على الذهب ونخفيها .

وكانت أعظم لطمة وجهت الى الخيمياء هى نشر كتاب بويل « الكيمياء الشكاك » (١٦٦١) وهو أول كتاب من عيون تاريخ ١٤ - قصة الحضارة

الكيمياء . وقد اعتذر فيه عن « السماح » لبحثه هذا « بأن يذاع وهو مبتور ناقص على هذا النحو (٤٥) » . ولكنه - وهو يعانى من علل كثيرة - عديم الثقة فى أنه سيعمر طويلا . على أن مما يعزى « أن يلحظ أن الكيمياء بدأت أخيرا تحظى بما هى جديرة به حقا من رعاية العلماء الذين كانوا من قبل يحتقرونها (٤٦) » . ووصف كيميائه بأنها شكاكة لأن من رأيه رفض جميع التفسيرات الغيبية والخصائص السحرية لأنها « محراب الجهل » وهو مصمم على الاعتماد على « التجارب لا الأقيسة المنطقية (٤٧) » . وقد هجر ذلك التقسيم التقليدى للمادة الى العناصر الاربعة ، الهواء ، النار ، والماء ، والتراب : وقال ان هذه مركبات لا عناصر ، أما العناصر الحقيقية فهى على الأصح « أجسام معينة بدائية وبسيطة ، أو غير مختلطة اطلاقا ، ولأنها ليست مؤلفة من أى أجسام أخرى أو من بعضها البعض » فهى المكونات لجميع المركبات ، ويمكن ن تحلل اليهاكل المركبات . ولم يقصد أن العناصر هى المكونات النهائية للمادة ، فهذه العناصر الطبيعية المتناهية الصغر هى فى رأيه جزيئات دقيقة لا ترى بالعين المجردة ، مختلفة شكلا وحجما ، كذرات لوكيوس . ومن تنوع هذه الجزيئات وتحركها ، ومن اتحادها فى « كريات » ، تنشأ كل الاجسام ، وكل صفاتها وأحوالها ، كاللون ، والمغنطيسية ، والحرارة ، والنار ، وذلك بطرق وقوانين ميكانيكية خالصة .

وقد استهوت النار العلماء استهواءها للحالين عند المدافىء . فما الذى يجعل المادة تحترق ؟ وما تفسير هذه الالسنة الدائمة التغير من اللهب الجميل ، العاتى ، الرهيب ؟ فى سنة ١٦٦٩ رد كيميائى ألمانى يدعى يوهان بيشير كل « العناصر » الى عنصرين - الماء والتراب ، وسمى شكلا من أشكال التراب ، « التراب الزيتى » ، الذى اعتقد بوجوده فى جميع الاجسام القابلة للاشتعال ، وهذا هو الذى يحترق . وفى القرن الثامن عشر سنى جيورج شتال - الذى اتبع هذا الرأى الخاطيء - ينحرف بالكيمياء عشرات السنين بنظرية مماثلة هى نظرية اللاهوب phlogiston . على أن بويل سلك مسلكا آخر . فقد لاحظ أن مواد محترقة مختلفة تكف عن الاحتراق فى الفراغ ، فاستنتج أن « فى الهواء جوهرًا حيويًا صغيرًا ... يعين

على انعاش حيويتنا واسترجاعها (٤٨) « . وتقدم معاصره الاصغر جون مايوو ، وكان هو أيضا ينتمى للجمعية الملكية ، (١٥٤٧) صوب نظريتنا الحالية عن النار بأن افترض أن من بين مكونات الهواء مادة تتحد بالمعادن حين تتكلس (تتأكسد) ، واعتقد ان مادة مماثلة تدخل أجسامنا فتغير الدم الوريدي الى دم شرياني . وكان لابد أن تنقضي مائة عام قبل أن يكتشف شيل وبريستلى الأوكسجين نهائيا .

وحوالى عام ١٦٧٠ اكتشف كيميائى ألمانى يدعى هينيج براند أن فى استطاعته أن يحصل من بول الانسان على مادة كيميائية تتوهج فى الظلام دون تعريض تمهيدى للضوء . وعرض كيميائى من درسدن يدعى كرافت هذا النتاج الجديد أمام تشارلز الثانى بلندن فى ١٦٧٧ . ولم يستطع بويل أن يستخلص من كرافت المتكتم الا الاعتراف بأن المادة المضيئة « شيء ينتمى الى جسم الانسان (٤٩) » . وكان فى الإشارة ما يكفى ، فسرعان ما حصل بويل على كميته من الفوسفور ، وأثبت بسلسلة من التجارب كل ما نعرفه الى الآن عن توهج ذلك العنصر . وكان النتاج الجديد بكلف المسترين ست جنيهات (٣١٥ دولارا ؟) للأوقية رغم وفرة مصدره .

٧ - التكنولوجيا

كانت الصناعة - الى القرن التاسع عشر - تحفز العلم أكثر مما يحفز العلم الصناعة ، وكانت المخترعات الى القرن العشرين تخرج فى المختبر أقل مما تخرج فى المتجر أو الحقل . ولعل العمليتين سارتا جنباً الى جنب فى أهم الحالات جميعا ، وهى تطوير الآلة البخارية .

وقد صنع هيرو الاسكندري ، فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، عدة آلات بخارية ، ولكنها على قدر علمنا كانت تستعمل لعباً أو عجائب تسلى الجماهير أكثر منها أجهزة تحل محل الطاقة البشرية . وفى أوائل القرن السادس عشر وصف ليوناردو دافنتشي بندقية تستطيع بضغط البخار أن تدفع مسماراً جديداً مسافة ألف ومائتى ياردة ، ولكن مخطوطاته العلمية لم تنشر الا عام ١٨٨٠ . وقد ترجمت بعض كتابات هيرو اليونانية الى اللاتينية فى ١٥٧٥ ، والى الايطالية فى ١٥٨٩ .

وذكر جيروم كاردان (١٥٥٠) وجامباتستا ديلا بورتا (١٦٠١) أن
فى الامكان احداث فراغ بتكثيف البخار ، ووصف بورتا آلة لاستخدام
ضغط البخار لرفع عمود من الماء . ومثل هذه الاستخدامات للبخار
المتمدد اقترحها سالومون دكاوس بباريس فى ١٦١٥ ويرانكا بروما فى
١٦٣٠ . وحصل ديفد رامسى من تشارلز الاول ملك انجلترا على براءة
بالات « لرفع الماء من الحفر المنخفضة بالنار . . . وتشغيل أى نوع من
المصانع على المياه الساكنة بالحركة المستمرة ، دون مساعدة من الرياح
أو الاثقال أو الخيل (٥٠) » . وفى ١٦٦٣ حصل ادوارد سومرست ،
مركز ورستر ، من البرلمان على احتكار مدته تسعة وتسعون عاما
لـ « أعجب عمل فى العالم كله » - وهو « آلة تتحكم فى الماء » ترفع
الماء لارتفاع أربعين قدما (٥١) ، وبهذه الآلة أراد أن يشغل المصانع
المائية لجزء كبير من لندن ، ولكنه مات قبل أن ينفذ خطته . وحوالى
١٦٧٥ اخترع صموئيل مورلاند ، كبير ميكانيكية تشارلز الثانى ، المضخة
الكاسية ، وفى ١٦٨٥ نشر أول وصف دقيق لقوة تمدد البخار . وفى
١٦٨٠ صنع هويجنز أول آلة غازية باسطوانة ومكبس تدار بالقوة
الممددة للبارود المتفجر .

وذهب دنى بابان ، المساعد الفرنسى لهويجنز ، الى انجلترا
واشتغل مع بويل ، ونشر عام ١٦٨١ وصفا لـ « مهتضة digester »
- وهى حلة ضغط لتطرية العظم بماء يغلى فى اناء مقل . ولكى يمنع
انفجار الاناء وصل بقمته انبوبة يمكن ان تفتح اذا بلغ الضغط نقطة
معينة ، وقد لعب « صمام الأمن » الأول هذا دورا منقذا فى تطوير
الآلة البخارية . وزاد بابان على ذلك بأن أثبت أن قوة البخار يمكن
نقلها غازيا بانبوبة من مكان لآخر . ولما انتقل الى ماربورج بألمانيا
عرض (١٦٩٠) أول آلة استعمل فيها تكثيف البخار ، الذى يحدث
فراغا ، لدفع مكبس . وقد ألمح الى قدرات هذه الآلة على قذف القنابل ،
ورفع المياه من المناجم ، ودفع المراكب بعجلات تغديف ، وفى ١٧٠٧
(أى قبل قرن بالضبط من ابحار سفينة فولتون « كليرمون » مصعدة
على نهر هدسون) استخدم آله البخارية فى تسيير زورق بدولاب
تغديف على نهر فولدا بكاسل (٥٢) . ولكن الزورق تحطم ، وثبط
الحكام الالمان تطوير القوة المكنية لاطمئنانهم الى الاوضاع الراهنة
آنئذ ، وربما لخوفهم من انتشار البطالة .

وعرض توماس سافوى على مجلس البحرية بانجلترا جهازا مماثلا حوالى ١٧٠٠ ، ولكن الجهاز رفض بهذا التعليق - فيما روى - « أى شأن للمتطفلين الذين لا صلة لهم بنا بتصميم أو اختراع أشياء لنا ؟ (٥٤) » وقدم سافوى عرضا لاختراعه على نهر التيمز ، ولكن البحرية رفضته ثانية . وفى ١٦٩٨ سجل أول آلة بخارية استعملت فعلا فى ضخ الماء من المناجم . وفى ١٦٩٩ منح براءة خولت له لمدة أربعة عشر عاما « احتكار استعمال اختراع جديد . . . لرفع الماء واحداث الحركة بقوة النار الضاغطة ، سيكون ذا فائدة كبرى فى نزح المناجم ، وتوفير المياه للمدن ، وتشغيل المضانع بجميع أنواعها (٥٥) » على أنه تبين أن آلات سافوى غالية وخطرة . فقد كان لها صنادير للقياس ولكن لم يكن لها صمامات آمن ، وكانت عرضة لانفجارات الغلايات ، ومع أنها استخدمت فى بعض المناجم لنزح الماء منها ، الا أن أصحاب المناجم عادوا سريعا الى استخدام الخيل فى هذه المهمة .

عند هذه النقطة من القصة نلتقى مرة أخرى بروبرت هوك . ويروى معاصر موثوق بروايته أنه حوالى ١٧٠٢ كان يتبادل الرسائل مع تاجر حديد وحداد بدعى توماس نيوكومن حول امكان استخدام مبدأ المضخة الهوائية فى احداث القوة المكنية . كتب يقول « اذا استطعت ان تحدث فراغا سريعا تحت اسطوانتك الثانية انتهى عملي (٥٦) » ويلوح ان نيوكومن كان يجرى تجارب على آلة بخارية ، هنا اتصل العظم والصناعة اتصالا مرثيا . ولكن هوك كان شكاكيا ، فتخلى عن التجربة ، وفاتته فرصة مرة أخرى . وانضم نيوكومن الى سمكرى يدعى جون كولى فى صنع آلة بخارية (١٧١٢) - بذراع متذبذب ، ومكبس ، وصمام آمن - يمكن الركون اليها فى القيام بعمل شاق دون خطر الانفجار ، وبفطرة كاملة على التحكم الذاتى . واستمر نيوكومن حتى وفاته (١٧٢٩) غنى تحسبنا آله ، ولكن فى وسعنا أن نؤرخ - من براءة سافوى فى ١٦٩٩ ، وآلة نيوكومن فى ١٧١٢ - ، بداية الثورة الصناعية التى سنغبر فى القرنين التاليين وجه الدنيا وهواءها .

٨ - الاحياء

مدت جماعة الباحثين الممتازة التى صنعت مجد الجمعية الملكية

أبحاثها الى علوم الحياة . فأوضح هوك بالتجربة ما قرره من قبل
السر كينيلم ديجبى - ذلك « المشعوذ الكبير » كما دعاه ايفلين (٥٢) :
وهو أن النباتات تحتاج الى الهواء لتحيا . فعرض بذرة خس فى
التربة فى العراء ، وفى نفس الوقت بذرة مماثلة فى تربة مماثلة فى
حجرة مفرغة ، ونمت البذرة الاولى بوصة ونصفا فى ثمانية أيام ، أما
الثانية فلم تنم على الاطلاق . ووجد هوك بين جزء الهواء المستعمل
فى الاحتراق وبين الجزء المستعمل فى تنفس النبات والحيوان ، ووصف
هذا الجزء المستهلك بأنه نترى الطبيعة (١٦٦٥) . وأوضح أن
الحيوانات التى توقف تنفسها يمكن الابقاء على حياتها بنفخ الهواء فى
رئاتها بمنفاخ . واكتشف البناء الخلوى للنسيج الحى ، وأخترع لفظ
« الخلية cell » لدلالة على مركباته العضوية . ورأى أعضاء
الجمعية من خلال مكروسكوبه فى ابتهاج خلايا الفلين الذى قدر هوك
أن البوصة المكعبة منه تحوى ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ خلية . ودرس
هسولوجيا (علم الانسجة) الحشرات والنباتات ، وعرض رسوما
طريفة لها فى كتابه « ميكروجرافيا » . لقد وقف هوك دائما قاب
قوسبن أو أدنى من جاليليو ونيوتن .

وأسهم عضو آخر فى الجمعية هو جون راي فى اضاء الشكل
الحديث على علم النبات . وكان ابن حداد ، ولكنه شق طريقه الى
كمبردج ، وأصبح زميلا لكلية ترنتى ، ورسم قسا انجليكانيا . وقد
أخلص للمدين والعلم على السواء ، شأنه فى ذلك شأن بويل . واستقال
من زمائلته لأنه أبى التوقيع على « قانون التوافق » (١٦٦٢) الذى
يتعهد موقعه بعدم مقاومة تشارلز الثانى ، وانطلق مع تلميذه فرانسس
ويلاجبى فى رحلة يجوبان فيها أوروبا لجمع البيانات اللازمة لوصف
منظم لمملكتى الحيوان والنبات . واضطلع ويلاجبى بعلم الحيوان ،
ولكنه مات بعد أن أكمل الفصول الخاصة بالطيور والأسماك . وفى
١٦٧٠ أصدر راي " *Catalogus Plantarum Angliae* " قائمة بنبات
انجلترا « أصبحت اطار علم النبات الانجليزى . واقترح راي « طريقة
جديدة لتقسيم النبات » - مستعينا فى ذلك بما وضعه يواقيم يونجوس
فى ١٦٧٨ من مصطلحات محسنة وتصنيف منقح ، فقسم كل الزهريات
الى ثنائية الفلقة *dicotyledons* وأحادية الفلقة *monocotyledons*

حسب ورقتيها أو ورقتها الجنبية المرافقة للبذور . وأكمل مهمته الكبرى
فى رائعة من روائع العلم الحديث ، هى كتابة الضخم ذو المجلدات
الثلاثة « *Historia Generalis Plantarum* تاريخ النبات العام »
(١٦٨٢ - ١٧٠٤) ، الذى وصف ١٨٠٢٥ نوعا من أنواع النبات .
وكان رأى أول من استعمل كلمة « نوع *species* » بمعناها
البيولوجى ، وهو مجموعة من الكائنات الحية مشتقة من والدين مماثلين
وقادرة على توليد نوعها . وهذا التعريف ، مضافا اليه ما أتى به
ليناىوس بعد ذلك من تصنيف (١٧٥١) ، هيا للجدل حول أصل
الأنواع وفابليتها للتغير ، وفى غضون ذلك نشر وحقق مخطوطات
ويلاجبى عن علم الأسماك *ichthyology* وعلم الطيور *ornithology*
وأضاف موجزا منهجيا عن ذوات الأربع (١٦٩٣) فأتاح لعلم الحيوان
الحديث أول تصنيف علمى حقيقى للحيوان (٥٨) . لقد كان النظام
أول القوانين عند رأى .

وقد تبين علماء النبات ، حتى فى العصور القديمة ، أن بعض
النباتات يجوز أن توصف بأنها مؤنثة لأنها تحمل ثمرا ، وبعضها مذكرة
لأنها لا تثمر ، ولاحظ تيوفراستوس فى القرن الثالث قبل المسيح أن
نخلة البلح لا تثمر الا اذا هز فوقها طلع الذكر ، ولكن هذه الافكار كانت
قد نسيت تقريبا . وفى ١٦٨٢ أضاف نحما جرو عضو الجمعية الملكية
سحرا جديدا للزهور بتأكيد جنسانية النباتات تأكيدا قاطعا . ذلك أنه
فى دراسته نسيج النبات تحت الميكروسكوب ، لاحظ المسام التى فى
السطح الاعلى للاوراق ، وألمح الى أن الاوراق أعضاء التنفس . ووصف
الازهار بأنها أعضاء التناسل ، فالمدفة *pistil* مؤنثة ، والسداة
stamen مذكر ، واللقاح *pollen* بزره . وافترض خطأ أن جميع
النباتات خنثوية *hermaphrodites* ، تجمع بنيتى الذكر والأنثى
فى كائن حى واحد . وفى ١٦٩١ أثبت رودلف كاميراريوس ، أستاذ
النبات فى توبنجن ، بشكل قاطع جنسانية النباتات (*sexuality*)
اذ أثبت أنها لا تثمر بعد ازالة المئبر *anther* وهو جزء السداة المحتوى
على اللقاح .

وفى نفس اليوم (٧ ديسمبر ١٦٧١) الذى تلقت فيه الجمعية
الملكية اللندنية أول مقالات جرو « بداية تشريح الخضر » ، تلقت أيضا

مخطوطا من مارتشيللو ملبيجى البولونى ، نشرته (١٦٧٥) باسم لاتينى *Anatomes Plantarum Idea* ، وكان استعمال اللاتينية مازال ييسر دولية العلم . وقد اقتسم مالبيجى مع جرو شرف ارساء دعائم هستولوجيا النبات ، ولكن اسهامه الكبير كان فى علم الحيوان . وفى ١٦٧٦ أنبت ماريوت - بنحليله الكيمائى لمخلفات النباتات والتربة التى نمت فيها - أنها تنشرب العناصر الغذائية فى الماء الذى تمتصه من التربة . ولم يتبين ماريوت ، ولا جرو ، ولا مالبيجى ، قدرة النباتات على أن تأخذ غذاءها من الهواء ، ولكن عمليتى التغذية والتناسل اللتين اكتشفنا الآن كائنا تقدما هائلا على تعليل أرسطو الغامض لنمو النباتات بما لـ « النفس النباتية » من تطلعات الى التمدد .

وفى عام ١٦٦٨ أصيبت فكرة قديمة شائعة بأول صدمة من صدمات عديدة ، حين نشر فرانتسكو ريدى الاريتسوى كتابه « تجارب فى توالد الحضرات » - وهى تجارب تنحو الى نفى التولد الذاتى *abiogenesis* وهو التولد التلقائى للكائنات الحية من المادة غير الحية . فالى النصف الثانى من القرن السابع عشر كانت الفكرة التى آمن بها الجميع تقريبا (فيما عدا استثناء بارزا هو وليم هارفى) هى أن فى الامكان توالد الحيوانات والنباتات الدقيقة فى القدر أو الوحل ، لا سيما فى اللحم المتحلل ، وهذه الفكرة تكمن وراء عبارة شكسبير « الشمس التى تولد الدود فى الكلاب الميتة (٥٩) » . وقد أثبت ريدى أن الدود لا يتكون على اللحم المحمى من الحشرات ، بل على اللحم المكشوف . وقد صاغ النتيجة التى خلص اليها فى عبارته " *Omne vivum ex ovo* " كل حى يخرج من بيضة أو بزررة » . ولما اكتشفت الاوليات (البرزويات *Protozoa*) ، انبعثت حجج القائلين بالتولد التلقائى من جديد ، وقد رد عليهم مبالانزانى فى ١٧٦٧ ، تم باستير فى ١٨٦١ .

كان الكشف عن تلك الكائنات ذات الخلية الواحدة التى سميت فيما بعد بالبروتوزوا أهم اسهام أسهم به هذا العصر فى علم الحيوان . وكان انطون فان ليوفينهويك هولنديا من ديلفت ، ولكنه أنهى - عن طريق الجمعية الملكية بلندن - النتائج العلمية التى توصل اليها خلال أربعين سنة من سنى عمره الواحدة والتسعين . كان سليل أسرة من صناع الجعة الكثرىاء ، فاستطاع أن يقنع بوظائف أتاح له من الفراغ

أكثر مما أعطته من راتب ، وانقطع لدراسة عالم الحياة الجديد كما كشف عنه المكروسكوب ، باصرار من افقتن بهذا العلم . وكان يملك ٢٤٧ مكروسكوبا ، صنع معظمها بنفسه ، وكان مختبره يتألق بعدسات بلغت ٤١٩ ، ربما شحذ بعضها سبينوزا ، الذى ولد فى نفس سنة مولده (١٦٣٢) وفى نفس وطنه . وقد حرص بطرس الاكبر وهو بديلفت . فى ١٦٩٨ على أن يحدد فى الكائنات خلال مكروسكوبات ليوفينهويك . فلما وجه هذا العالم (١٦٧٥) أحدها لدراسة بعض ماء المطر الذى سقط فى قدر قبل أيام ، راعه أن يرى « حيوانات صغيرة بدت لى أصغر عشرة آلاف مرة من تلك التى وصفها المسيو سوامردام والتى سماها براغيث الماء أو قمل الماء ، والتى يمكن أن ترى فى الماء بالعين المجردة (٦٠) » ، ثم وصف كائنا نعرفه الآن باسم الجيبون الناقوسي *(Vorticella) bell animalcule* . ويلوح أن هذا كان أول وصفه للبروتوزون . . فى ١٦٨٣ اكتشف ليوفينهويك كائنات أصغر حتى من تلك - وهى البكتريا . وجدها أولا على أسنانه ، وقال مستدركا « مع اننى أحافظ عادة على نظافة أسناني التامة » ، وأذهل بعض جيرانه حين فحص بصاقهم وأراهم تحت المكروسكوب « عددا عظيما من المخلوقات الحية » فيه (٦١) . وفى ١٦٧٧ اكتشف البزيرات المنوية فى ماء الذكر : وتعجب من اسراف الطبيعة فى جهاز الانسال : فقد قدر أن هناك ألف بريرة فى كمية صغيرة من منى الرجل ، وحسب أن هناك ١٥٠ بليوناً من البزيرات فى لقح سمكة واحدة من سمك الكود - وهو ما يزيد عشرة أضعاف على عدد السكان الذين يحتويهم العالم لو كانت كل أقاليمه غاصة بالسكان كالأراضي المنخفضة .

وكان جان سوامردام أصغر من ليوفينهويك بخمس سنوات ، ولكنه سبقه الى القبر بثلاث وأربعين سنة . كان رجلا ذا جرأة ، ورغبات مشبوبة ، وعقل ، وأهداف متقلبة ، كف عن جهوده العلمية فى السادسة والثلاثين ، وأقضى عمره وهو فى الثالثة والأربعين (١٦٨٠) . نذر خادما للدين ، ولكنه هجر اللاهوت الى الطب . فلما نال درجة الطب انقطع للتشريح . وقد أولع بالنحل ، لا سيما بأمعائه ، وكان ينفق نهاره فى تشريحه ، وليله فى كتابة التقارير ورسم الرسوم عن كشوفه . فلما فرغ من بحثه القيم فى النحل (١٦٧٣) انهار بدنيا ،

وما لبث أن طلق العلم لأنه مطلب مسرف فى الدنيوية ، وعاد الى الدين . وبعد موته بسبع وخمسين سنة جمعت مخطوطاته ونشرت باسم *Biblia Naturae* (كتاب الطبيعة المقدس) . وقد احتوى الكتاب فى تفصيل دقيق غاية الدقة على وصف لحياة اثنتى عشرة حشرة نموذجية ، منها ذبابة مايو ونحلة العسل ، ودراسات ميكروسكوبية للحبار squid والحلزون ، والبطلينوس clam والضفدعة . كذلك وردت فى الكتاب أوصاف للتجارب التى أثبت بها سوامردام أن العضلات فى الأنسجة المقطوعة من جسم حيوان يمكن جعلها تتقلص بأثارة العصب الرابط . وقد رفض نظرية التولد التلقائى كما رفضها ريدى ، وزاد بأن بين أن اللحم المتحلل لا يحدث الكائنات الدقيقة ، بل أن هذه الكائنات هى التى تحدث التحلل فى المادة العضوية . وقد أسس سوامردام فى حياته القصيرة علم الحشرات الحديث ، وأرسى لنفسه مكانة رجل من أدق الملاحظين فى تاريخ العلم . ورجوعه من العلم الى الدين تشخيص لتعدد الانسان الحديث بين بحث عن الحقيقة يسخر من الأمل ، وانتكاس الى الآمال التى تجفل من الحقيقة .

٩ - التشريح والفيولوجيا

أسلم جسم الانسان بعد اخضاعه للميكروسكوب بعض أسرارهِ الدفينة لجيش العلم الزاحف . وفى عام ١٦٥١ تتبع جان باكيه سير الأوعية اللبنية ، وفى ١٦٥٣ كشف أولوف روربيك ، وموطنه أوبسالا ، الجهاز اللنفاوى ، ووصف هذا الجهاز توماس مارتولين ، وموطنه كوبنهاجن ، وفى ١٦٦٤ اكتشف سوامردام الصمامات اللنفاوية وفى ذلك العام أوضح صديقه رينيه دجراف وظيفة البنكرياس والصفراء وعملهما . وفى ١٦٦١ اكتشف صديق آخر هو نيقولاوس ستينو قناة (لا تزال تحمل اسمه) هى قناة الغدة النكفية ، وبعد سنة القنوات الدمعية للعين ، وخص جراف بدراسته تشريح الخصيتين والمبايض ، وفى ١٦٧٢ وصف لأول مرة تلك الأكياس حاملة البيض التى أطلق عليها هالر تكريما له حويصلات جراف . وترك بارتولين بطاقته على جسمين بيضاويين ملاصقين للمهبل ، واكتشف وليم كوبر (الطبيب لا الشاعر) فى ١٧٠٢ الغدد التى تفرغ افرازها فى مجرى البول وأطلق عليها اسمه . كذلك ترك فرانشسكوس سيلفيوم توقيعهُ على شق فى المخ (١٦٦٣) (وكان المعلم

المحبوب لجراف ، وسوامردام ، وستينو ، وويليس فى ليدن) . ونشر توماس وويليس ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، فى عام ١٦٦٤ كتابه " Cerebri Anatome " تشريح المخ « الذى كان أكمل وصف للجهاز العصبى الى ذلك التاريخ ، ولا تزال تحمل اسمه « دائرة ويليس » ، وهى شبكة سداسية من الشرايين فى قاع المخ .

أما ألمع مشرعى العصر فهو مارتشيللو مالبيجى ، الذى ولد قرب بولونيا فى ١٦٢٨ ونال درجته الطبية منها ، وبعد أن عمل استاذاً عدة سنوات فى بيزا ومسينا عاد الى بولونيا ، ودرس الطب فى جامعتها خمسة وعشرين عاماً . وبعد أن اشتغل بالتشريح المكروسكوبى للنبات ، ركز عدساته على دودة القز ، وسجل كشوفه فى دراسة ممتازة . وفى هذا البحث أوشك أن يفقد بصره ، ومع ذلك كتب يقول « خلال قيامى بهذه البحوث تكشف أمام عيني الكثير جدا من معجزات الطبيعة حتى استشعرت لذة باطنية لا قدرة لقلمي على وصفها (٦٢) » . ولا بد أن قد خالجه ما خالغ الشاعر الانجليزى كيتس وهو يطالع لأول وهلة ترجمة تشابمن لهوميروس ، حين رأى (١٦٦١) فى رثى الضفدعة كيف ينتقل الدم من الشرايين الى الأوردة فى أوعية سماها « الشعيرات » لدقتها المتناهية ، وقد وجد شبكة من هذه الشعيرات حيثما تحول الدم الشريانى الى دم وريدى ، وهكذا وضح الجهاز الدورى لأول مرة أثناء دورته .

على أن هذا لم يكن سوى جزء من أسهامات مالبيجى فى التشريح ، وان كان أهم أجزائها . فقد كان أول من أثبت أن حلقات اللسان أعضاء للتذوق ، وأول من ميز الكرات الحمراء فى الدم (ولكنه ظنها خطأ كريات من الشحم) ، وأول من وصف بدقة الدورتين العصبية والدموية فى الجنين ، وأول من وصف هستولوجيا قشرة المخ والحبل الشوكى ، وأول من أتاح الوصول الى نظرية عملية للتنفس بوصفه الدقيق للبناء الحويصلى للرئتين . واسمه منتشر بحق على أجسادنا فى « الحزم المالبيجية » أو حلقات من الشعيرات ، فى الكلى ، وفى « الكريات المالبيجية » فى الطحال ، وفى « الطبقة المالبيجية » فى الجلد . وكثير من كشوفه وتفسيراته تحداً معاصروه ، ولكنه دافع عن نفسه بقوة ، وانتصر فى معاركه وان كلف هذا النصر أعصابه عنتاً . وقد أرسل

الى الجمعية الملكية بلندن تقريراً عن جهوده ، وكشوفه ، وجدلياته ، وكأنه كان يعرض هذه كلها على محكمة العلم العليا فى جيله ، ونشرت الجمعية هذا التقرير سيرة ذاتية بقلمه . وفى ١٦٩١ عين طبيباً خاصاً للبابا انوسنت الثانى عشر ، ولكنه توفى عام ١٦٩٤ من اصابة بالفالج . وكشفه للشعيرات من المعالم فى تاريخ التشريح ، وعمله فى جملة أرسى دعائم علم الهستولوجيا .

واذ تقدم البحث فى التشريح أباط اللثام عن أوجه شبه كثيرة جدا بين أعضاء الانسان والحيوان ، حتى لقد اقترب بعض الطلاب من نظرية التطور . وفى عام ١٦٩٩ نشر ادوارد تيزون (الذى اطلق اسمه على الغدد الدهنية للبشرة) كتاباً عن « الأورنج - أوتانج ، انسان الغابات » . وقد قارن بين تشريح الانسان وتشريح النسناس ، ورأى أن الشمبانزى وسط بينهما . ولم يمنع علم الاحياء من أن يسبق داروين فى القرن السابع عشر غير الخوف من احداث زلزال لاهوتى .

وانتقلت الابحاث من التشريح والبنية الى الفسيولوجيا والوظيفة . وكان التنفس الى عام ١٦٦٠ يفسر بأنه عملية تبريد ، أما الآن فقد شبهه أصحاب التجارب العلمية بالاحتراق . فبرهن هوك على أن سر التنفس هو تعرض الدم الوريدي للهواء النظيف فى الرئتين . وأثبت عضو آخر فى الجمعية الملكية هو رتشارد لوور (١٦٦٩) أن الدم الوريدي يمكن تحويله الى دم شريانى بالتهوية ، وأن الدم الشريانى يتحول وريدياً اذا منع باستمرار من الاتصال بالهواء . ورأى أن أهم عامل فى التهوية هو « روح نترى » فى الهواء . وجريا على هذه المبادرات وصف جون مايو ، صديق لوور هذا العامل النشط بأنه « جزيئات نترية - هوائية » وفى التنفس تمتص الجزيئات النترية - فى رأيه - من الهواء فى الدم ، ومن هنا كان الهواء فى الزفير أخف وزناً وأقل حجماً منه فى الشهيق . والحرارة الحيوانية سببها اتحاد الجزيئات النترية بالعناصر القابلة للاحتراق فى الدم ، والحرارة المتزايدة عقب الرياضة تنشأ من فائض الممتص من الجزيئات النترية بسبب التنفس الزائد . يقول مايو أن هذه الجزيئات النترية تلعب دوراً رئيسياً فى حياة الحيوان والنبات .

وقد أفضى تفسير العمليات الحيوية الى جدل من أبقى ما وعاه تاريخ العلم الحديث . ذلك أنه كلما أوغلت الفسيولوجيا بمزيد من

الفضول فى تشريح الانسان ، بدا أن الوظيفة تلو الوظيفة من وظائف الجسم تخضع لتفسير الى بلغة الفيزياء والكيمياء . فلاح أن التنفس اتحاد بين التمدد ، والتهوية ، والانقباض ، وأن وظائف اللعاب ، والصفراء ، والعصارة البنكرياسية ، كيميائية لاختفاء فيها ، وأن جان الفونسو بوريللى قد استكمل (١٦٧٩) التحليل الآلى للحركة العضلية . واعتنق ستينو ، الكاثوليكي الغيور ، الرأى الآلى فى العمليات الفسيولوجية ، ورفض عبارات جالينوس الغامضة من أمثال « الأرواح الحيوانية » لأنها « مجرد ألفاظ لا تعنى شيئا » . وبدا الآن مفهوم ديكارت للجسم على أنه آلة مبررا كل التبرير .

ومع ذلك أحس معظم العلماء أن تلك الأجهزة البدنية ما هى الا أدوات لمبدأ حيوى يتجاوز التحليل بلغة الكيمياء والفسيولوجيا . فعزا فرانسس جليسون ، أحد مؤسسي الجمعية الملكية ، للمادة الحية كلها « تهيجية » تتميز بها - وهى استهداف للآثار - قال انها لا توجد فى المادة غير الحية . وكما أن نيوتن ، بعد أن رد الكون الى الآلية ، عزا الى الله الدفع المبدئى لآلة العالم ، فكذلك افترض بوريللى فى جسم الانسان نفسا هى المصدر لكل حركة حيوانية ، وذلك بعد أن فسر العمليات العضلية تفسيرا آليا (٦٣) . ورأى كلود بيرو ، المعمارى والطبيب ، (١٦٨٠) أن الأفعال الفسيولوجية التى تبدو الآن آلية كانت من قبل ارادية ، تهتدى بارشاد نفس ، ولكنها أصبحت آلية بفعل التكرار الكثير ، وذلك أشبه بتكون العادات ، بل ربما كان القلب ذاته خاضعا لتحكم الارادة فيما مضى (٦٤) . وزعم جيورج شتال (١٧٠٢) أن التغيرات الكيميائية فى النسيج الحى تختلف عن تلك التى ترى فى المختبرات ، لأن التغيرات الكيميائية - فى زعمه - التى تعبرو الحيوانات الحية تحكمها « حساسية حيوانية *anima sensitiva* » تنتشر فى جميع أجزاء الجسم . والنفس كما يقول شتال تدير كل وظيفة فسيولوجية ، حتى الهضم والتنفس ، وهى تبنى كل عضو ، بل الجسم كله ، بوصفه أداة للرغبة (٦٥) . وخيل له أن الأمراض طرق تحاول بها النفس التخلص من عائق يعوق عملياتها ، وسبق نظرية « سيكوسوماتية » (أى جسدية نفسية) من نظريات القسرن

العشرين بالقول بأن اضطرابات « النفس الحساسة » قد تحدث عللا بدنية، (٦٦) .

وظلت المفاهيم الحيوية ، بشكل أو آخر ، تحتل مكان الصدارة فى العلم حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ثم استسلمت فترة أمام المكانة الصاعدة للفيزياء الميكانيكية ، ثم بعثت من جديد ، فى ثوب أدبى فتان ، فى كتاب برجسون « التطور الخلاق » (١٩٠٦) . وسيمضى الجدل الى ما شاء الله حتى يقيض للجزء أن يفهم الكل .

١٠ - الطب

جاء أقوى دافع لعلوم الأحياء من حاجات الطب . لقد كان علم النبات ، قبل رأى ، أداة الصيدلة . وكانت الصحة « الخير الأعظم » ، وتوسل الرجال والنساء والأطفال إليها بالصلوات ، والنجوم، والملوك، والضفادع ، والعلم . يقول أوبرى (٦٧) ان أحد الاطباء كان قبل أن يصف الدواء للمريض يمضي الى مخدعه ليصلى حتى « تقرنت ركبته » فى النهاية من كثرة الصلوات وكان التنجيم لا يزال يتدخل فى الطب . فقد نصح الجراح القائم على علاج لويس الرابع عشر بالآلا يحجم الملك الا فى ربيعى القمر الأول والأخير « حتى تكون الأمزجة قد تراجعت فى هذا الوقت الى مركز الجسم » (٦٨) . وفى رأى ديفو أن المال الذى انفق على المشعوذين كان كفيلا بالوفاء بالدين القومى (٦٩) . وقد سافر فلامستيد ، فلكى الملك ، أميالا لكى يربت ظهره المشعوذ المشهور فالنتين جريتراكس ، الذى زعم بكل بساطة أنه يشفى من الداء الخنازيرى ، وربما كان فلامستيد واحدا من ١٠٠.٠٠٠ لمسه تشارلز الثانى ليشفيهم من هذا الداء الخنازيرى (scrofula) المسمى « داء الملك King's evil » (وهو سل الغدد اللنفاوية وبخاصة فى العنق) . وفى سنة واحدة (١٦٨٢) لمس هذا الحاكم اللطيف ٨٧٥٠٠ مريض مصاب بهذا المرض ، وفى ١٦٨٤ بلغ التزاحم للوصول اليه حدا ديس معه ستة من المرضى تحت الاقدام حتى ماتوا . ورفض

وليم الثالث أن يواصل التمثيلية . وقال حين حاصر جمع قصره « انها خرافة غبية ، فأعطوا هؤلاء المساكين بعض النقود واصرفوهم » . وفى مناسبة أخرى حين كثر الالاحاج عليه ليضع يده على مريض أذعن قائلا « وهبك الله صحة أفضل وعقلا أرجح » . وقد اتهمه الشعب بالكفر (٧٠) .

وتضافرت عيوب عناية الأفراد بصحتهم ونقائص النظافة الصحية العامة مع ذكاء المرض القادر على التكيف . ونشر البغاء الزهرى فى المدن والمسكرات . وقد استشرى بصفة خاصة بين الممثلين والممثلات ، كما نستنتج من قصه مستورة فى مدام دسفنويه عن « ممثل اعتزم الزواج برغم أنه يعانى من مرض خطير معين ، فقال له أحد أصحابه : ويحك ألا تستطيع الانتظار حتى تشفى ؟ انك ستجر البلاء علينا جميعا (٧١) » ، وقد مثل القائد الفرنسى فاندوم فى البلاط الملكى بغير أنف ، لأنه أعطاها قربانا لبكتريا الزهرى (٧٢) . وكان السرطان يمضي فى طريقه قدما ، وتصف لنا مدام دموتفيل سرطان الثدي (٧٣) وقد وصفت الحمى الصفراء أول مرة عام ١٦٩٤ . وانتشر الجدرى على الأخص انتشارا واسعا فى إنجلترا ، ولم يكن هناك علاج معروف له ، وقد ماتت به الملكة ماري ، وابن ملبره . وابتليت أقطار بأسرها بالوبئة لا سيما وباء الملاريا . وذكر توماس ويليس أن إنجلترا كلها تقريبا كانت فى ١٦٥٧ أشبه بمستشفى يعالج حمى الملاريا (٧٤) . واجتاح الطاعون لندن فى ١٦٦٥ (٧٥) . وقتل فى فيينا سنة ١٦٧٩ ١٠٠.٠٠٠ ألف و ٨٣.٠٠٠ فى براغ سنة ١٦٨١ . وازدادت الامراض المهنية بانتشار الصناعة ، وفى ١٧٠٠ أصدر برناردينو راماتزينى ، أستاذ الطب فى جامعة بادوا ، رسالة ممتازة ، *De morbis artificum* عن الضرر الذى يصيب النقاشيين من المواد الكيميائية فى طلائهم ، والعاملين فى الزجاج المعشق من الانتيقون ، والبنائين وعمال المناجم من السل ، والخزافين من الدوار ، والطبايعين من أمراض العيون ، والاطباء من الزئبق الذى يستعملونه .

وكان تقدم علم الطب بطيئا فى جو الجهل والفقر . وعطل المهنة شره الأطباء للمال ، فكان بعض الاطباء الذين قاموا بعلاجات ناجحة يرفضون الكشف لغيرهم من الاطباء عن العلاج الذى استخدموه (٧٦) . على أن الأطباء من أعضاء الجمعية الملكية ارتفعوا فوق هذا الشره ، وأشركوا زملاءهم بحماسة فى كشفهم . وكان هناك الآن مدارس طبية جيدة وفى مقدمتها مدارس ليدن ، وبولوبيسا ، ومونبلييه ، وعلى العموم كان الحصول على درجة من معهد معترف به شرطا لممارسة الطب قانونيا فى غربى أوروبا . واستمر معرسو الطب على انقسامهم الى مدرستين من مدارس العلاج . فدافع يوريللى عن طريقة العلاج الطبى (iartophysical) ورأى نناول الامراض على أنها اضطرابات فى آلية الجسم . أما سيلفيوس ، الذى طوّر حجج باراسيلسوس وهيلمونت فقد دافع عن الطريقة الكيميائية (iatrochemical) - وهى طريقة استعمال العقاقير لمقاومة الاضطرابات فى « أمزجة » الجسم ، ومعظمها فى رأيه راجع لزيادة فى الحموضة . وكان أنفع من هذه النظريات العامة تلك الكشف فى أسباب أمراض معينة ، فوصف سلفيوس مثلا لأول مرة الدرينات فى الرئتين ، وعزا هذه الاورام المرضية الى السل .

ومن أهم كشوف هذا العصر الجهد الذى قام به ذلك اليسوعى الممتاز ، أثناسيوس كيرشر الفولداوى ، وكان رياضيا ، وفيزيائيا ، ومستشرقا ، وموسيقيا ، وطبيبيا ، ويبدو أنه أول من استخدم المكروسكوب فى فحص المرض (٧٧) . وبهذه الوسيلة وجد أن دم ضحايا الطاعون يحتوى على « ديدان » لا حصر لها لا ترى بالعين المجردة . ورأى حيوانات مماثلة فى المادة المتعفنة ، وعزا التعفن وكثيرا من الامراض لنشاطها . وكتب تقريرا عن كشفه فى « البحث فى الأمراض الوبائية Scrutinium Pestis » (روما ١٦٥٨) بين بعبارات صريحة واضحة لأول مرة ما لم يذكره فراكاستورو الا تلميحا فى ١٥٤٦ - وهو النظرية القائلة بأن انتقال الكائنات الحية الضارة من شخص أو حيوان الى آخر هو سبب المرض المعدى (٧٨) .

وتخلف العلاج الطبى عن البحث الطبى ، لأن الذين نبغوا فى البحث جنحوا الى تأليف طبقة متميزة عن ممارسي الطب ، وكان الاتصال بين الفريقين ناقصا . وكانت بعض علاجات العصور الوسطى مازالت توصف للمرضى . وقد سجل أوبرى نجاحا جاء فى غير محله . قال « ان امرأة حاولت أن تسمم زوجها (وكان مريضا بالاستسقاء) بسلق ضفدعة فى حسائه ، الامر الذى شفاه من مرضه ، وكان هذا هو الظرف الذى عثر فيه على الدواء (٧٩) » ودخلت بعض العقاقير الجديدة الفارماكوبيا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر : عرق الذهب *ipecacuanha* والكسكارا ، والنعناع . . . ووصف الأطباء الهولنديون الشاى دواء لكل الادواء تقريبا ترويجا للتجارة الهولندية (٨٠) .

وكان اننان من الهولنديين أعظم معلمى الطب فى هذا العصر ، وهما سيلفيوس وبويرهافى ، وكلاهما فى ليدن . وقد علم هيرمان بويرهافى الكيمياء ، والفيزياء ، والنبات أيضا ، وأقبل عليه الطلاب من شمالى أوربا كلها ، وقد رفع مقام الطب الاكلينيكي باصطحابه تلاميذه الأكثر نضجا فى جولاته اليومية على أسرة المستشفى ، وتعليمهم بالملاحظة المباشرة والعلاج النوعى لكل حالة بمفردها . وقد ترجمت مؤلفاته الى كل اللغات الاوربية الكبرى ، وحتى الى التركية ، وطبقت شهرته الافاق حتى بلغت الصين ذاتها .

ووجد الطب الاكلينيكي فى انجلترا أبرع ممثل له فى توماس سيدنهام . قضى فى أكسفورد فترتين تفصلهما فترات خدمة فى الجيش ، ثم استقر فى لندن ممارسا عاما . وانتهى بالقليل من النظريات والكثير من الخبرة الى فلسفته فى المرض ، الذى عرفه بأنه « جهد من الطبيعة التى تكافح بكل قوتها لترد الى المريض عافيته بالتخلص من المادة المرضية (٨١) » . وميز بين الأعراض « الجوهرية » التى تحدثها المادة الدخيلة ، والأعراض « العرضية » التى تحدثها مقاومة الجسم لها ، فالحمى مثلا ليست مرضا بل حيلة يتوصل بها الكائن الحى للدفاع عن نفسه . ومشكلة الطبيب أن يعين عملية الدفاع هذه . ومن ثم فقد امتدح سيدنهام أبقراط لأن « أبا الطب » :

« لم يتطلب من فن الطب أكثر من معاونة الطبيعة اذا وهنت ، وكبحها اذا ازداد عنف جهودها ... ذلك ن هذا المراقب الحكيم وجد أن الطبيعة وحدها هي التي تنهى اختلال الصحة ، وتعمل على الشفاء مستعينة بعقاقير بسيطة ، وأحبانا دون عقاقير على الاطلاق (٨٢) » .

وبراعة سيدنهام في أنه تبين أن لكل مرض كبير صورا مختلفة ، وكان يدرس كل حالة بتاريخها الاكلينيكي ليشرح نوع المرض الذي تنطوى عليه ، ويوائم بين العلاج والاختلافات النوعية للمرض . ولهذا نراه يميز الحمى القرمزية عن الحصبة ويعطيها اسماها الحالي . وكان معروفا بين الاطباء بلقب « أبقراط الانجليزى » لأنه أخضع النظرية للملاحظة ، والأفكار العامة للحالات الخاصة ، والعقاقير للعلاجات الطبيعية . وقد ظل كتابه *Processus Integri* طوال قرن من الزمان المرشد للممارس الانجليزى فى العلاج .

وواصلت الجراحة نضالها لتحظى بالاعتراف بها علما محترما . ووجد أكفا ممثلها أنفسهم بين نارين ، عدااء الاطباء وحسد الحلاقين - الذين ما زالوا يجرون بعض الجراحات الصغيرة ، ومنها جراحة الأسنان . ولم يستطع جى باتان ، عميد كلية الطب بجامعة باريس ، أن يغتفر للجراحين اتخاذهم زى الاطباء ومسلكتهم ، ورمى الجراحين جميعا بأنهم « سلالة من الحمقى ، والمغرورين ، اللثام ، المسرفين ، الذين يطلقون شواربهم ويلوحون بأمواسهم (٨٣) » . ولكن فى عام ١٦٨٦ أجرى الجراح فيلكس جراحة ناجحة على ناسور لويس الرابع عشر ، وسر الملك سرورا عظيما فنفع فيلكس بخمسة عشر ألف جنيه ذهبي ، وخلع عليه ضيعة فى الريف ولقب النبالة . ورفعت هذه الترقية من مكانة الجراحين الاجتماعية فى فرنسا . وفى ١٦٩٩ صدر قانون جعل الجراحة فنا من الفنون الحرة ، وبدأ ممثلوها يحتلون مكانا مرموقا فى المجتمع الفرنسى . وقد وصف فولتير الجراحة بأنها « أنفع الفنون قاطبة » وأنها « الفن الذى بز فيه الفرنسيون سائر أمم الأرض (٨٤) » .

على أن الجراحة الانجليزية كان لها فى هذا العصر مفخرتان على الأقل . وفى ١٦٦٢ قام ج . د . ميجر بحقن الانسان أول حقنة وريدية ناجحة ، وفى ١٦٦٥ - ٦٧ نجح رتشرد لوور فى نقل الدم من

حيوان الى أوردة حيوان آخر . وقد سجل بيبيس هذا فى يوميته (٨٥) . ويستفاد من جريدة القيل والقال تلك أن الجراحات كانت تجرى عادة بمخدر ضعيف أو دون مخدر ، فلما أجريت لبيبيس جراحة لازالة حصاة فى مثانته لم يعط كلوروفورما ولا مطهرات ، واكتفى باعطائه « جرعة مهدئة (٨٦) » .

واستمر الناس يهجون الطبيب كما يهجونه فى كل جيل . فقد ساءهم منه أتباعه ، وفخامة مظهره فى عباة وشعره المستعار وقبعته المخروطية ، وعرور حديثه ، وأخطاؤه القتالة أحيانا . وروى بويل أن كثيرين كانوا يخشون الطبيب أكثر مما يخشون المرض (٨٧) . وكانت سخريات موليير بالمهنة العظيمة فى أكثرها مزاحا لطيفا من رجل كان حريصا رغم ذلك على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع طبيبه . وبقي - بعد أن رشقت السهام كلها - أن القرن السابع عشر شهد تقدما مشكورا فى علم الطب بفضل عشرات الكشوف فى التشريح ، والفسيولوجيا ، والكيمياء ، وأن التبادل الدولى للمعرفة الطبية كان فى ازدياد ، وأن كبار الاساتذة كانوا يبعثون تلاميذهم الكفاء الى جميع أرجاء أوربا الغربية ، وأن الجراحة كانت تحسن طرقها وترفع مكانتها ، وأن الاختصاصيين كانوا يزدادون معرفة ومهارة ، وأن مزيدا من التدابير كان يتخذ للنهوض بالصحة العامة . وشرعت الحكومات البلدية القوانين التى تكفل النظافة الصحية . وفى ١٦٥٦ ، حين ظهر الطاعون فى روما ، حتم المونسنيور جاستالدى ، المأمور البابوى للصحة ، تنظيف الشوارع والمجارى ، وتفتيش السقايات بانتظام ، وتوفير الامكانيات العامة لتطهير الملابس ، وتقديم الشهادات الصحية من جميع الاشخاص الذين يدخلون المدينة (٨٨) ، ويازدياد الثروة بنى الناس بيوتا أمتن تستطيع أن تبعد الفيران الى مسافة محترمة فتقلل من انتشار الطاعون . وقد يسرت امدادات أفضل من المياه - وهى أول ضرورات الحضارة - النظافة للجسام الراغبة فيها . وأخذ التحضر يصبح - بدنيا - فى متناول مزيد من الناس .

١١ - النتائج

كان القرن السابع عشر فى جملته احدى القمم فى تاريخ العلم .

انظر اليه فى سلمه الصاعد ، ابتداء من يكون يدعو الناس للكفاح فى سبيل ترقية المعرفة ، وديكارت يزاوج بين الجبر والهندسة ، مروراً بتحسين التلسكوبات ، والمكروسكوبات ، والبارومترات ، والترمومترات والمضخات الهوائية والعلوم الرياضية ، ويقوانين كبلر الكوكبية ، وقبة جاليليو السماوية المتعظمة ، ورسم هارفى لخريطة الدم ، ونصفى كرة جيوريجى المحكمتين ، وكيمياء بويل الشاكلة ، وفيزياء هويجنز المتعددة الصور ، ومحاولات هوك الكثيرة الاشكال ، وتنبؤات هالى الكونية ، ثم انتهاء بحساب ليبنتز التفاضلى التنبؤى ونسق نيوتن الكونى ، انظر الى كل أولئك واسأل : أى قرن سابق أنجز مآثر هذا القرن ؟ يقول ألفريد فورت هوايتهيد ان الذهن الحديث « يعيش الى اليوم على ذخيرة الافكار المتجمعة التى وفرتها له عبقرية القرن السابع عشر » فى العلم ، والأدب ، والفلسفة (٨٩) .

وانتشر تأثير العلم فى أقواس متسعة . أثر فى الصناعة بتوفيره الفيزياء والكيمياء اللتين كفلتا المغامرات الجديدة فى التكنولوجيا . وفى التعليم ألزم بتخفيف التركيز على العلوم الانسانية - على الأدب ، والتاريخ ، والفلسفة ، لأن تطوير الصناعة والتجارة والملاحاة تطلب المعرفة والأذهان العملية . وأحس الأدب ذاته التأثير الجديد : فسعى العالم وراء النظام والدقة والوضوح أوحى بفضائل مماثلة فى الشعر والنثر ، وانسجم مع الاسلوب الكلاسيكى الذى يمثله مولير وبوالو وراسين ، كما يمثله أديسون وسويفت ويوب . واشترطت الجمعية الملكية - كما يقول مؤرخها - على أعضائها ، أسلوباً فى الحديث طبيعياً عادياً ، محكماً . يقرب كل الاشياء قدر الامكان من الوضوح الرياضى (٩٠) .

وتأثرت الفلسفة والدين بانتصارات الرياضة والفيزياء ، التى حددت للمذنبات ميقاتاً ووضعت للنجوم قوانين . وتقبل ديكارت وسبينوزا الهندسة مثلاً أعلى للفلسفة والعرض . ولم يعد بعد ذلك من حاجة لأن يفترض فى الكون شيء غير المادة والحركة . ورأى ديكارت العالم كله آلة ، باستثناء العقل البشرى والالهى ، وتحدى هوبز هذا الاستثناء ، وصاغ مادية يكون حتى الدين فيها أداة للدولة تستعين بها على تسيير الآلات البشرية . ولاح أن علوم الفيزياء والكيمياء والفلك

الجديدة » تكشف عن كون يعمل طبقا لقوانين لا تتغير ، وهو كون لا يسمح بمعجزات ، واذن فلا يستجيب لصلوات ، واذن فلا يحتاج لاله . وربما جاز الابقاء عليه ليعطى آلة العالم دفعة مبدئية ، ولكنه بعد هذا له أن ينسحب ليكون ربا أبيقوريا - لوكريتيا ، لا يعبا بالعالم ولا بالناس . روى ن هالى أكد لصديق لباركلى أن « عقائد المسيحية » أصبحت الآن « لا يمكن تصورها (٩١) » . على أن بويل رأى فى كشف العلم دليلا جديدا على وجود الله . وكتب يقول « ان العالم يسلك وكأن الكون يشيع فيه كله كائن ذكى » . وأضاف فى عبارة تعيد بسكال الى الذاكرة « ان نفس الانسان كائن أنبل وأثمن من العالم المادى بأسره (٩٢) » . ولما مات خلف مالا ينفق منه على محاضرات تظهر صدق المسيحية ازاء « مشهورى الكفار ، وهم الملحدون ، والقائلون بوجود آلهة ، والوثنيون واليهود ، والمسلمون » وأضاف شرطاً هو أن المحاضرات يجب ألا تخوض فى المجادلات الناشبة بين المسيحيين (٩٣) .

ووافق علماء كثيرون على رأى بويل ، وشارك كثير من المسيحيين المؤمنين فى الاشادة بالعلم . كتب درايدن فى ختام القرن يقول « فى هذه السنين المائة الاخيرة كشف لنا القناع عن طبيعة جديدة تقريبا - اخطاء أكثر من كشفت ، وأجرى من التجارب المفيدة ، وأميط اللثام عن أسراراً رفيعة فى البصريات ، والطب ، والتشريح ، والفلك - أكثر مما حدث فى جميع تلك العصور الخرفة الساذجة ، ابتداء من أرسطو الى يومنا هذا (٩٤) » ، وتلك مبالغة مفرطة ولكنها ذات دلالة ، تكشف لنا عن اقتناع « المحدثين » بأنهم كسبوا معركة الكتب ضد « القدامى » على أية حال لم يملك الناس الا أن يروا أن العلوم تزيد المعرفة الانسانية ، بينما الاديان تصطرع والساسة يقتتلون . وسما العلم الآن الى مقام جديد من الشرف بين مغامرات الانسان ، لا بل ان هذا العهد لم يؤذن بالنهاية الا والناس يرحبون بالعلم بشيرا بمجىء المجتمع المثالى ومخلصا للنوع الانسانى . كتب فونتنيل فى ١٧٠٢ يقول « ان تطبيق العلم على الطبيعة سينمو باطراد فى مداه وقوته ، وسنمضي قدما من عجيبة الى عجيبة . وسوف يأتى اليوم الذى يستطيع فيه الانسان أن يطير بأجنحة تحفظه فى الهواء ، وسينمو هذا الفن ٠٠٠ حتى نستطيع يوما أن نظيرا الى القمر (٩٥) » - لقد كان كل شيء يتقدم ، الا الانسان .

الفصل التاسع عشر

اسحاق نيوتن

١٦٤٢ - ١٧٢٧

١ - الرياضي

ولد فى مزرعة صغيرة ببولزثورب ، فى مقاطعة لنكولن ، فى ٢٥ ديسمبر ١٦٤٢ (حسب التقويم القديم ، أى اليولياني) وهو العام الذى مات فيه جاليليو ، وكانت الزعامة الثقافية ، كالزعامة الاقتصادية ، فى سبيلها من الجنوب الى الشمال . وكان عند ميلاده صغير الحجم جدا بحيث كان فى الامكان وضعه فى كوز سعة ربع جالون (كما أخبرته أمه فيما بعد) ، وضعيفا جدا بحيث لم يخطر ببال أحد أنه سيعيش أكثر من أيام (١) معدودات . وكفلته أمه وخاله لأن أباه كان قد مات قبل ولادته بشهور .

وحين بلغ الثانية عشرة أرسل الى المدرسة الخاصة فى جرانثام ، فلم يحالفه التوفيق فيها . وجاء فى التقارير عنه أنه « خامل » و « غير ملتفت » ، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التى تستهويه ، وينفق الوقت الكثير على المخترعات الميكانيكية كالمزاويل والسواقي ، والساعات البيتية الصنع . وبعد أن قضى عامين فى جرانثام أخذ من المدرسة ليساعد أمه فى المزرعة ، ولكنه عاد الى اهمال واجباته ليقرا الكتب ويحل المسائل الرياضية . وتبين خال آخر كفايته ، فاعاده الى المدرسة ، وعمل الترتيبات لقبول نيوتن بكلية ترنتى فى كمبردج (١٦٦١) طالبا يكسب مصروفاته بمختلف الخدمات (subsizar) . وحصل على درجته الجامعية بعد أربع سنوات ، وبعدها بقليل انتخب زميلا بالكلية ، وخص باهتمامه الرياضة ، والبصريات ، والفلك ، والتنجيم ، وقد احتفظ بميله لدراسة التنجيم الى فترة متأخرة من حياته .

وفى ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضة اسحاق بارو ، وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما . ولم

يكن بالمعلم الناجح . كتب سكرتيه عن ذكريات ذلك العهد يقول « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه أقل ، حتى أنه كان أحيانا كثيرة وكأنه يقرأ للشيطان بسبب قلة السامعين (٢) » . وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود الى حجرته كاسف البال . وبنى فيها مختبرا - كان الوحيد فى كمبردج آنئذ . وقام بالكثير من التجارب ، لا سيما فى الخيمياء « وهدفه الأكبر تحويل المعادن (٣) » ، ولكنه اهتم أيضا بـ « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة (٤) » وواصل دراساته الخيمائية من ١٦٦١ الى ١٦٩٢ ، وحتى وهو يكتب كتابه « المبادئ (٥) » ترك مخطوطات عن الخيمياء دون نشر بلغ مجموع كلماتها نيفا و ١٠٠.٠٠٠ « لا قيمة لها اطلاقا (٦) » وكان بويل وغيره من أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب . ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن تفسر بها العناصر على أنها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة . ولا سبيل لنا الى التأكد من أنه كان مخطئا .

وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشي فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبه ليسجلها . كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا (فى رواية سكرتيه) « حتى لتخاله ... واحدا من جماعة أرسطو » المشائين (٧) . وكان مقلا فى الطعام ، وكثيرا ما فوت وجبة ، ونسي أنه فوتها ، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الاكل والنوم . « ونادرا ما ذهب لتناول الطعام فى القاعة ، فاذا فعل فانه - ما لم ينبه - يذهب فى هيئة زرية ، حذاؤه بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط ... ورأسه غير ممشط الا فيما ندر (٨) » . وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شروذ ذهنه . ويؤكدون أنه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر (٩) . وكان أحيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة أخرى ، ويخطط أفكارا على عجل ، وينسى أصحابه تماما (١٠) .

لقد كان راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين

بكمبردج . وقد وضع « قواعد للتفلسف » - أعنى للطريقة والبحث العلميين . ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كمبادئ قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال . وحين قال نيوتن « أنا لا اخترع فروضا (١١) » كان يعنى أنه لا يقدم نظريات حول أى شيء يتجاوز ملاحظة الظواهر ، فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية ، بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها . ولم يزعم أنه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الأفكار والامكانات ، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت . كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضى الى المبادئ . وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة ، ويستنبط متضمناتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحساب والتجربة . وكتب يقول « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا - البحث من ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة ، ثم ايضاح الظواهر الاخرى من هذه القوى (١٢) » . لقد كان مزيجا من الرياضة والخيال ، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا .

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا . ان شهرته بؤرتين - حساب التفاضل ، والجاذبية . بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أى نقطة على منحنى . ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة Fluxions " وفسر هذا المصطلح تفسيراً لا يمكننا أن نصل الى خبر منه :

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحرك الخطوط ، والمجسمات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب ، وأجزاء الزمن بالفيض المستمر ، وهكذا فى غير ذلك من الكميات . وعلى ذلك فيما أن الكميات ، التى تزداد فى أزمان متساوية ، وبالإضافة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الأكبر أو الأقل التى تزداد أو تولد بها ، فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها ، واذ أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق Fluxions » ، والكميات المولدة « المتغيرات » ، فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦ (١٣)»

وقد وصف نيوتن طريقته فى خطاب كتبه لبارو عام ١٦٦٩ ، وأشار إليها فى خطاب لجون كولنز فى ١٦٧٢ . ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل الى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه « المبادئ » (١٦٨٧) ، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه . وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفترت - ولكن دون أن يخفى اسمه - فى كتاب واليس « الجبر » عام ١٦٩٣ . ولم ينشر الوصف الذى اقتبسناه فيما سبق الا عام ١٧٠٤ ، فى ملحق لكتابه « البصريات » . وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحى بها . وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التى خلص إليها . ولو أنه صاغها على الأرجح فى ١٦٦٥ X .

هذه التأجيلات زجت برياضى أوربا فى جدل معيب مزق دولية العلم جيلا بأسره . ذلك أنه فى الفترة بين ابلاغ نيوتن نظريته فى « الفروق » لأصحابه فى ١٦٦٩ ونشر الطريقة الجديدة فى ١٧٠٤ ، وضع ليبنتز نظاما منافسا لها فى ماينز وباريس . وفى ١٦٧١ أرسل الى أكاديمية العلوم بحثا يحوى جرثومة حساب التفاضل (١٤) ، وقابل ليبنتز أولدنبرج فى زيارة للندن ، من يناير الى مارس ١٦٧٣ ، وكان قد تبادل الرسائل معه ومع بويل . وقد ظن أصحاب نيوتن فيما بعد أن لبنتز فى رحلته هذه تلقى الماعا لفروق نيوتن - ولكن المؤرخين يتشككون فى هذا الآن . وفى يونيو ١٦٧٦ ، بناء على طلب أولدنبرج وكولنز ، كتب نيوتن خطابا ليبلغ الى لبنتز ، شارحا فيه طريقته فى التحليل . وفى أوغسطس رد لبنتز على أولدنبرج ، وضمن الرد بعض الامثلة من شغله فى حساب التفاضل ، وفى يونيو ١٦٧٧ ، فى خطاب آخر لأولدنبرج ، وصف نوع حساب التفاضل الذى توصل اليه ، وطريقته فى التنويت notation أى التدوين بمجموعة من الرموز الرموز () ، وهما يختلفان عن حساب نيوتن وطريقته . ثم عاد فى مجلة Aeta Eruditorum عدد أكتوبر ١٦٨٤ يشرح حساب التفاضل،

X وطبقا لهذه النظرية فان أى قوة ذات حدين (وهو تعبير جبرى مؤلف من حدين تربطهما علامة زائد أو ناقص) يمكن ايجادها بصيغة جبرية بدلا من ايجادها بالضرب . وقد سبق نيوتن حزئيا الى هذه النظرية فبييت ويسكال .

وفى ١٦٨٦ نشر طريقته فى حساب التكامل ، وفى الطبعة الاولى من « المبادئ » (١٦٨٧) قبل نيوتن بشكل واضح اكتشاف ليبنتز لحساب التفاضل مستقلا . قال :

« فى رسائل تبادلتها مع عالم الهندسة الالمعى ج . و . ليبنتز ، قبل عشر سنوات ، حين اشرت الى أننى أعرف طريقة لإيجاد الحدود القصوى والدنيا ، ورسم المماسات ، وما الى ذلك . . . رد السيد المبجل بأنه اهتدى هو أيضا الى طريقة من نفس النوع ، وأنهى الى طريقته ، التى لم تكد تختلف عن طريقتى . . . الا فى أشكال ألفاظه ورموزه (١٦) » .

وكان خليقا بهذا الاعتراف المذهب أن يمنع الجدل . ولكن فى ١٦٩٩ أشار رياضى سويسرى فى رسالة للجمعية الملكية الى أن ليبنتز استعار حساب تفاضله من نيوتن . وفى ١٧٠٥ ذكر ليبنتز تضمينا ، فى نقد غفل من التوقيع لكتاب نيوتن « البصريات » أن فروق نيوتن تحويل لحساب التفاضل اللبنتزى . وفى ١٧١٢ عينت الجمعية الملكية لجنة لفحص الوثائق المتصلة بالموضوع . وقبل أن ينصرم العام نشرت الجمعية تقريرا *Commercium Epistolicum* أكد اسبقية نيوتن ، دون أن تخوض فى موضوع أصالة ليبنتز . وفى رسالة كتبها ليبنتز بتاريخ ٩ أبريل ١٧١٦ الى قسيس ايطالى بلندن اعترض بقوله ان تعليق نيوتن قد حسم الأمر . ومات ليبنتز فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ . وبعد موته بقليل نفى نيوتن أن التعليق « أقر له - أى لللبنتز باختراع حساب التفاضل مستقلا عن اختراعى » وفى الطبعة الثالثة من « المبادئ » (١٧٢٦) حذف التعليق (١٧) . ولم يكن النزاع مما يليق بالفلاسفة ، لأن كلا المدعين كان يصح أن ينحنى احتراما لغيره لأنه كان رائدا لهما فى هذا المضمار .

٢ - الفيزيائى

على أن الرياضة ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهى لم تزعم أنها تفقه الحقيقة أو تصفها . فلما تحول نيوتن من الاداة الى البحث الجوهري ، عكف أولا على استكناه سر الضوء . وتناولت محاضراته الاولى فى كمبريدج الضوء ، واللون ،

والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة ، فى ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر .

وفى عام ١٦٦٦ اشترى منشورا من سوق ستوربردج وبدأ التجارب فى البصريات . وفى عام ١٦٦٨ فصاعدا صنع سلسلة من التلسكوبات . فصنع بيديه ، على أساس النظريات التى شرحها مرسين (١٦٣٩) وجيمس جريجورى (١٦٦٢) ، تلسكوبا عاكسا ليتفادى بعض العيوب الملازمة للتلسكوب الكاسر ، وقدمه للجمعية الملكية بناء على طلبها عام ١٦٧١ . وفى ١١ يناير ١٦٧٢ انتخب لعضوية الجمعية .

وكان قد توصل (١٦٦٦) الى أحد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات - وهو أن الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الاحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . فلما مرر شعاعا صغيرا من ضوء الشمس خلال منشور شفاف وجد أن الضوء الذى يبدو أحادى اللون انقسم الى كل ألوان الطيف هذه ، وأن كل لون مكون خرج من المنشور عند زاويته أو درجته أو انكساره الخاص ، وأن الألوان نظمت نفسها فى صف من الحزم ، مؤلفه طيفا مستمرا ، فى أحد طرفيه اللون الاحمر وفى الآخر البنفسجى . وقد أثبت الباحثون اللاحقون أن المواد المختلفة ، اذا جعلت مضيئة بحرقها ، تعطى أطيافا مختلفة . وبمقارنة هذه الاطياف بالطيف الذى يحدثه نجم معين ، أصبح فى الامكان تحليل مكونات النجم الكيميائية الى حد ما . ثم دلت الملاحظات الأدق لطيف النجم على السرعة التقريبية لتحركه نحو الأرض أو بعيدا عنها ، ومن هذه الحسابات استنبط نظريا بعد النجم . وهكذا تمخض كشف نيوتن لتكوين الضوء ، وانكساره فى الطيف ، عن نتائج كونية تقريبا فى ميدان الفلك .

ولم تتكشف هذه النتائج لنيوتن فى ذلك الحين ، ولكنه أحس (كما كتب لأولدنبرج) أنه توصل « الى أغرب كشف الى الآن ان لم يكن أهم كشف فى عمليات الطبيعة (١٨) » فأرسل الى الجمعية الملكية فى بواكير عام ١٦٧٢ بحثا عنوانه « نظرية جديدة فى الضوء واللون » . وقرئ البحث على الأعضاء فى ٨ فبراير ، فأنار جدلا عبر المانش الى القارة . وكان هوك قد وصف فى كتابه « ميكروجرافيا »

﴿ ١٦٦٤ ﴾ تجربة شبيهة بتجربة نيوتن بالمنشور ، ولم يكن قد استنتج منها نظرية ناجحة فى اللون ، ولكنه أحس بأن فى افعال نيوتن لفضله السابق غضا من قدره ، فانضم الى بعض أعضاء الجمعية فى نقد النتائج التى خلص اليها نيوتن ، واستمر النزاع ثلاثة أعوام . كتب نيوتن المرفه الحس يقول « اننى مضطهد بالجدل الذى أثارته نظريتى فى الضوء اضطهادا جعلنى ألوم حماقتى لأننى ضحيت بنعمة عظمى ، نعمة هدوء البال ، جريا وراء سراب (١٩) » وحدثته نفسه حيناً بأن « أطلق الفلسفة طلاقاً بئنا لا رجعة فيه ، الا ما أفعله أرضاء لذاتى (٢٠) » .

وشارت نقطة أخرى من نقط الجدل مع هوك حول ناقل الضوء . وكان هوك قد اعتنق نظرية هويجنز ، التى زعم فيها أن الضوء ينتقل على موجات « اثير » . ورد نيوتن بأن هذه النظرية لا تفسر مسار الضوء فى خطوط مستقيمة . واقترح بدلا منها « نظرية الجسيمات أو الدقائق corpuscular theory » : فالضوء سببه اطلاق الجسم المضيء جزيئات دقيقة لا حصر لها ، تسير فى خطوط مستقيمة خلال الفضاء بسرعة ١٩٠.٠٠٠ ميل فى الثانية . ورفض نظرية الاثير ناقلا للضوء ، ولكنه قبله بعد ذلك وسيطا لقوة الجاذبية X .

وجمع نيوتن مناقشاته حول الضوء فى كتابه (البصريات Opticks فى ١٧٠٤ . ومما له دلالة أنه كتبه بالانجليزية) فى حين كان كتاب المبادئ Psincipia باللاتينية) ، ووجهه « الى القراء الحاضرى الذكاء والفهم ، الذين لم يتضلّعوا بعد فى البصريات » . وفى نهاية الكتاب وضع قائمة لواحد وثلاثين سؤالاً تتطلب مزيداً من البحث . وكان السؤال الأول ارهاصاً بهذه النبوءة « ألا تؤثر الاجسام فى الضوء عن بعد ، فتنحني أشعته بهذا التأثير ، وألا يكون هذا

X فصل الفيزيائيون اللاحقون نظرية التموجات التى قال بها هويجنز على أساس أن فرض الجسيمات الذى قال به نيوتن لا يعلل تعليلاً مرضياً ظواهر الانحراف ، والتداخل ، والاستقطاب . ويميل الفيزيائيون المعاصرون الى الجمع بين الرايين تفسيراً لظواهر تبدو أنها تشتمل على الجسيمات والامواج معا . والفوتونات أو الكمات التى يقول بها الفيزيائيون اليوم تعبد الى الذاكرة حسبما تبت نيوتن ، أما الاثير فقد فقد الآن اعتباره .

التأثير على أشده فى أدنى الأبعاد X ؟ » والسؤال الثلاثون « لم لا تغير الطبيعة الأجسام الى ضوء والضوء الى أجسام ؟ » .

٣ - أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن . شهدت بداية جهوده فى البصريات ، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته أن شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد الجاذبية الى مدار القمر . . . بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره ، وقوة الجاذبية على سطح الأرض ، ووجدتهما متفقتين تماما تقريبا . . . فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى (٢١) » .

وفى عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبريدج ، فعاد نيوتن الى موطنه وولزثورب طلبا للسلامة . وهنا نلتقى بقصة لطيفة . كتب فولتير فى كتابه « فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) :

« ذات يوم من أيام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاستغرق فى تفكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط اذا مد مر قريبا جدا من مركز الأرض (٢٢) » .

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة . وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى ، ولا فى روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة . وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير ، وهى أن غريبا سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها (٢٣) » ومما لا ريب فيه أنه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس (٢٤) . ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاه جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الاعوام الثمانية عشر التالية .

ولم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن . فقد ذهب بعض فلكيى القرن الخامس عشر الى أن السماوات تؤثر فى الأرض بقوة تشبه قوة تأثير المغنطيس فى الحديد ، وما دامت الأرض تنجذب بالتساوى من جميع الاتجاهات فانها تبقى معلقة فى مجموع هذه القوة (٢٥) . وقد نبه كتاب جلبرت « المغنطيس » (١٦٠٠) اذهانا كثيرة الى التفكير فى التأثيرات المغنطيسية المحيطة بكل انسان ، وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانية وأربعين عاما (١٦٥١) يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغنطيسية للأرض تعم-منطقة القمر ، وكلتاهما تتجاوب وتتألف بتأثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تأثير الأرض اكبر نتيجة لكبر كتلتها (٢٦) » .

وكان اسماعيلس بوريار قد قرر فى كتابه " Astronomia Philolaica " (١٦٤٥) أن جذب الكواكب بعضها لبعض يتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينهما (٢٧) ، وذهب الفونسو بوريللى فى كتابه «نظريات الكواكب المديشية » (١٦٦٦) الى أن « كل كوكب وتابع يدور حول كرة كبرى فى الكون بوصفها مصدرا للقوة ، تجذب الكوكب وتابعه وتمسكها بحيث لا يمكن اطلاقا أن ينفصلا عنها ، بل يضطران لاتباعها أينما ذهبت ، فى دورات ثابتة مستمرة » ، وقد فسر مدارات هذه الكواكب والتتابع بأنها نتيجة القوة المركزية الطاردة لدورانها (« كما نجد فى العجلة أو الحجر يدوم فى مقلع ») تقابلها قوة شمسها الجاذبة (٢٨) . وذهب كبلر الى أن الجاذبية ملازمة لجميع الاجرام السماوية ، وقدر فى فترة من حياته أن قوتها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع المسافة بينها ، وكان هذا خليقا بأن يكون سبقا واضحا لنيوتن ، ولكنه عاد فرفض هذه الصيغة ، وافترض أن الجذب يتناقص تناقصا طرديا مع زيادة المسافة (٢٩) . على أن هذه المداخل الى نظرية فى الجاذبية حرفت عن طريقها نظرية ديكارت فى الدوامات التى تكونت فى كتلة بدائية ، ثم عينت عمل كل جزء ومداره .

وقد فكر كثير من المستفسرين اليقظين فى الجمعية الملكية تفكيراً

عميقا فى رياضيات الجاذبية . وفى ١٦٧٤ سبق هوك بكتابه « محاولة
لاكتبات حركة الارض السنوية » « اعلان » نيوتن لنظرية الجاذبية
بأحد عشر عاما . قال هوك :

« سأشرح نظاما للكون مختلفا فى تفاصيل كثيرة عن أى نظام
عرف الى الآن ، متفقا فى جميع الاشياء مع القواعد الشائعة للحركات
الميكانيكية . وهو يعتمد على فروض ثلاثة : (أولاها) أن كل الأجرام
السماوية أيا كانت ذوات قوة جاذبة الى مراكزها ، لا تجذب بهما
أجزاءها فحسب وتحفظها من أن تتطاير منها ... بل تجذب كذلك
سائر الأجرام السماوية الواقعة فى مجال نشاطها ... (وثانيها) أن
جميع الأجسام أيا كانت ، التى تحرك حركة طردية وبسيطة ، تستمر
فى الحركة قدما فى خط مستقيم الى أن تحرفها عن طريقها قوى فعالة
أخرى ... (وثالثها) أن قوى الجذب هذه يشتد فعلها بقدر قرب
الجسم الواقع تحت حاذبيتها من مراكزها » (٣٠) .

ولم يحسب هوك فى بحثه هذا أن الجذب يتناسب تناسبا عكسيا
مع مربع المسافة ، ولكنه أنهى هذا المبدأ الى نيوتن - اذا صدقنا رواية
أوبرى - بعد أن توصل اليه مستقلا (٣١) . وفى يناير ١٦٨٤ شرح
هوك صيغة المربعات العكسية لرن وهالى ، اللذين كانا قبلاهما من
قبل . فذكرا لهوك ان الحاجة ليست الى مجرد فرض ، بل الى ايضاح
رياضي يثبت أن مبدأ الجاذبية يفسر مسارات الكواكب . وعرض رن
على هوك وهالى جائزة قدرها أربعون شلنا (١٠٠ دولار) ان أتاه
أحدهما ببرهان رياضى على الجاذبية . ولم يأت به البرهان على قدر
علمنا (٣٢) .

وفى أحد أيام أغسطس ١٦٨٤ ذهب هالى الى كمبردج وسأل
نيوتن ماذا يكون مدار كوكب ما اذا تناسب جذب الشمس له تناسبا
عكسيا مع مربع المسافة بينهما . وأجاب نيوتن أنه يكون قطعاً ناقصاً
(اهليلجا) . ولما كان كبلر قد استخلص من دراسته الرياضية
لمشاهدات تيكو براهى أن مدارات الكواكب اهليلجية ، فقد بدا أن
الفلك الآن تأيد بالرياضة ، والعكس بالعكس . وأضاف نيوتن أنه
أجرى الحسابات تفصيلا فى ١٦٧٩ ، ولكنه نحاهما جانبا ، من جهة

لأنها لم تتفق تماما مع التقديرات السائدة يومها لقطر الأرض والبعد بين الأرض والقمر ، وأرجح من هذا السبب أنه لم يكن واثقا من أنه يستطيع تناول الشمس ، والكواكب ، والقمر على أنها نقط مفردة في قياس قوتها الجاذبة . ولكن في عام ١٦٧١ أذاع بيكار قياسه الجديد لنصف قطر الأرض ولدرجة من درجات خطوط الطول ، التي حسب أخيرا أنها تبلغ ٦٩١ ميلا تقريبا انجليزيا ، وفي عام ١٦٧٢ تمكن بيكار بفضل بعثته الى سايبين من حساب بعد الشمس عن الأرض فقرر أنه ٨٧٠٠٠.٠٠٠ ميل (والرقم الحالي ٩٢.٠٠٠ ر) واتفقت هذه التقديرات الجديدة اتفاقا طيبا مع رياضية نيوتن في الجاذبية ، وأقنعه المزيد من الحسابات في ١٦٨٥ بأن الكرة تجذب الاجسام وكان كتلة هذه الكرة كلها تجمعت في مركزها . وشعر الآن بمزيد من الثقة في فرضه .

ثم فارن سرعة حجر على الأرض بسرعه سقوط القمر على الأرض اذا نفصت قوة جذب الأرض له بمربع المسافة بينهما . فوجد أن نتائجه تتفق وآخر البيانات الفلكية . فخلص من هذا الى أن القوة التي تسقط الحجر ، والقوة الجاذبة للقمر نحو الأرض رغم قوة طرد القمر المركزية ، هما قوة واحدة . وسر الانجاز الذي حققه هنا كامن في تطبيقه هذه النتيجة التي انتهى اليها على جميع الاجسام التي في الفضاء ، وفي نظوره أن جميع الأجرام السماوية مترابطة في شبكه من التأثيرات الجاذبية ، وفي بيانه كيف أن حساباته الرياضية والميكانيكية تتفق وملاحظات الفلكيين ، لا سيما قوانين كبلر الكوكبية X .

وبدا نيوتن اجراء حساباته من جديد ، وأنهاها الى هالي في نوفمبر ١٦٨٤ . وأدرك هالي أهميتها فحثه على تقديمها للجمعية

X قوانين كبلر (١٦٠٩ ، ١٦١٩) : (١) ان الكواكب ترسم مدارات اهليلجية ، فيها الشمس بؤرة واحدة (٢) ان الخط الذي يربط كوكبا بالشمس ينتشر فوق مساحات متساوية في اوقات متساوية . (٣) ان مربع فترة دوران الكوكب يتناسب مع مكعب متوسط بعده عن الشمس . وهذه الصيغة أفضت الى قانون المربعات العكسية .

الملكية فوافق ، وأرسل الى الجمعية رسالة فى « قضايا الحركة » (فبراير ١٦٨٥) ، لخص فيها آراءه فى الحركة والجاذبية . وفى مارس ١٦٨٦ بدأ عرضا أوفى ، وفى ٢٨ أبريل ١٦٨٦ قدم للجمعية مخطوط الكتاب الاول من كتب الحركة ، عن المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية . وللتو لفت هوك النظر الى أنه سبق نيوتن فى ١٦٧٤ . ورد نيوتن فى رسالة الى هالى أن هوك اخذ فكرة المربعات العكسية عن بوريللى وبويار . وتفاقم الخلاف حتى أصبح سخطا من الطرفين ، وحاول هالى أن يصلح ذات البين ، وهذا نيوتن ثائرة هوك بتضمين مخطوطته حاشية ، تحت القضية الرابعة ، أقر فيها بفضل « أصدقائنا رن ، وهوك ، وهالى » ، فى أنهم « استنتجوا من قبل » قانون المربعات العكسية . ولكنه ضاق بالنزاع أشد الضيق حتى انه حين أعلن لهالى (٢٠ يونيو ١٦٨٧) أن الكتاب الثانى جاهز ، أضاف قائلا « فى نيتى الآن أن أوقف الكتاب الثالث . فالفلسفة أشبه بامرأة مشاكسة وقحة تزج بمن يتعامل معها فى قضايا أمام المحاكم » . وأقنعه هالى بأن يواصل الكتاب . وفى سبتمبر ١٦٨٧ نشر المؤلف كله برعاية الجمعية الملكية ورئيسها آنئذ ، صموئيل بيببس . ولما كانت الجمعية فى ضائقة مالية ، فقد أنفق هالى على النشر بأكمله من جيبه الخاص ، مع أنه لم يكن بالرجل الميسور . وهكذا ، وبعد عشرين عاما من الاعداد ، ظهر أهم كتاب فى علم القرن السابع عشر ، كتاب لا يضارعه فى عظم تأثيره فى ذهن أوربا المثقفة سوى كتاب كوبرنيك فى الدورات (١٥٤٣) ، وكتاب دارون فى أصل الأنواع (١٨٥٩) . هذه الكتب الثلاثة هى أهم الأحداث فى تاريخ أوربا الحديثة .

٤ - كتاب المبادئ « Principia » برنكيبيا

فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا فى بحثهم فى الاشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد ان نحوا أشكال المادة (التى قال بها السكولاستيون) والصفات الغيبية ، حاولوا إخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة ، فقد

١٦ - قصة الحضارة

طورت الرياضة فى هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية)
... وعليه فانا نقدم هذا المؤلف على أنه المبادئ الرياضية
للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هى فى بحث قوى الطبيعة من
ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الاخرى من هذه القوى .

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهر الطبيعية بنفس
نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكية ، لأن مبررات كثيرة تحملتى على
الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على قوى معينة تدفع بواسطتها
جزيئات الاجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضها نحو البعض ،
وتتماسك فى أشكال منتظمة ، أو تصد وتتراجع بعضها عن البعض ،
وإذا كانت هذه القوى مجهولة ، فقد حاول الفلاسفة الى الآن البحث
فى الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادئ الموضوعة هنا بعض
الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة » .
وبعد أن وضع نيوتن بعض التعاريف والبدهييات ، صاغ ثلاثة
قوانين للحركة :

- ١ - كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة
فى خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه .
- ٢ - تغيير الحركة يناسب مع القوة المحركة الواقعة ، ويتم فى
اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة .
- ٣ - كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له .

أما وقد تسليح نيوتن بهذه القوانين ، وبقانون التربيع العكسي
فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية . وصورة المبدأ الحالية ، وهى أن
كل جزيء من المادة يجذب كل جزيء بقوة تتناسب تناسبا طرديا مع
حاصل ضرب كتلتيهما وتناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما ، هذه
الصورة لا نجد بها هذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادئ ، ولكن
نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى :
« ان الجاذبية ... تعمل ... حسب كمبة المادة الجامدة التى تحتويها
(الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ... متناقصة

أبدا بما يتناسب مع المربع العكسي للمسافات (٣٣) « . وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهليلجية التى استنتجها كبلر . وزعم أن الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة ، وتحفظ فى مداراتها ، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسباً عكسياً مع مربع أبعادها عن مركز الشمس . وعنى أساس مبادئ مماثلة فسر جذب المشتري لتوابعه ، والأرض للقمر . وبين أن نظرية ديكرت فى الدوامات باعتبارها الشكل الأول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانين كبلر . وحسب كتلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء . (والرقم الحالى ٥٥) . وعلل رياضياً تفرطح الأرض عند القطبين ، وعزا انبعاجها عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمر الموحد للبحار ، ويمثل هذا الفعل القمري - الشمسي فسر مبادرة نقطتى الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهذا أيد نبوءة هالى . وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل ، لأنه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم ينظر اليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخر . ولكن فى هذا الحشد المعقد من الاجرام السماوية وضع نيوتن قانونا يحكمه : فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض . أن رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجراءة .

ونفدت الطبعة الأولى من « المبادئ » سريعا ، ولكن لم تظهر طبعة ثانية الا فى ١٧١٣ . وعزت نسخه حتى أن عالما نسخ الكتاب كله بيده (٣٤) . واعترف القراء بأنه عمل فكري من أرفع طراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه . فرفضت فرنسا النظام النيوتنى لتشبهها بدوامات ديكرت ، الى أن عرضه فولتير فى ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب والتبجيل . واعترض كاسيني وفونتنيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالوا إن نيوتن شرح بعض العلاقات بين الاجرام السماوية ، ولكنه لم يكشف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله . وقال ليبنتز بأنه

ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلال فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميال ، فإنه لا يمكن قبول الجاذبية على أنها شيء أكثر من مجرد كلمة (٣٥) .

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبول السريع حتى فى إنجلترا . وزعم فولتير أن المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاما . وبينما شكا النقاد فى فرنسا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقدر الكافى إذا قيسست بدوامات ديكارت البدائية ، كانت الاعتراضات عليها فى إنجلترا فى أغلبها دينية ، فأسف جورج باركلى فى كتابه « مبادئ المعرفة الانسانية » (١٧١٠) لأن نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية . فالميكانيكية تطغى على النظام النيمتنى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله .

فلما وافق نيوتن بعد ما عهد فيه من تسويات على أن يعد طبعه ثانية الكتاب ، حاول أن يهدىء من ثائرة نقاده . فأكد لليبنتز والفرنسيين أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل ، رغم أنه لن يحاول وصفه . ثم اعترف بصراحة أنه لا يفقه طبيعة الجاذبية . وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانية كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى أنه « لا يضع فرضا (٣٦) » . وأضاف « يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العامل مَادى أو غير مَادى (٣٧) » .

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه . فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم أدلة على وجود خطة الهية ، فالآلة الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لا بد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسي شذوذات فى المسلك يصححها تعالى دوريا كلما ظهرت (٣٨) . ولكن يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة . وافترض الآن أن آلة العالم تفقد بعض طاقتها بمرضى الوقت ، وستفقد كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها

قوتها (٣٩) . واختتم بهذه العبارة « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه (٤٠) » . وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى ، أو تفسر بمعنى ميكانيكى قال :

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الاجسام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزيئات الاجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاوزت ، وتعمل الاجسام الكهربائية الى أبعاد أعظم ، فتصد وتجذب الجزيئات المجاورة ، ويرسل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويثنى ، ويسخن الاجسام ، وكل احساس يثار ، وتتحرك أعضاء الاجسام الحيوانية بأمر الإرادة ، أعنى بتموجات هذه الروح ، ماثوتة بالتبادل على خيوط الاعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجية الى المخ ، ومن المخ الى العضلات . على أن هذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التحارب التى يتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمل وفقا لها هذه الروح الكهربائية المرنة (٤١) » .

ترى ماذا كان ايمانه الدينى الحقيقى ؟ لقد تطلبت أستاذيته فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخدمات الكنسية الانجليكانية . أما صلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيه « لا أستطيع أن أقول عنها شيئا ، وأميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمته من النصيب الأفضل (٤٢) » . ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون . وقد أثنى عليه رئيس أساقفة بقوله « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين (٤٣) » وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة « لست أعرف من أمثاله الا القليلين (٤٤) » وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية .

وقادته دراساته الى نتائج أشبه بالأريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها أن المسيح وان كان ابن الله الا أنه ليس مساويا لله الاب فى الزمن أو القوة (٤٥) . وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما . ويبدو أنه آمن بكل كلمة من كلمات

الكتاب المقدس على أنها كلمة الله ، وأنه قبل سفرى دانيال ورؤيا يوحنا على أنهما الحقيقة بحذافيرها . لقد كان أعظم علماء عصره صوفيا نسخ فى شغف فقرات طويلة من يعقوب بومى ، وطلب الى لوك أن يناقش معه معنى « الحصان الابيض » الوارد فى سفر الرؤيا . وقد شجع صديقه جون كريج على كتابه « الاسس الرياضية للاهوت المسيحى » (١٦٩٩) الذى حاول أن يثبت بالرياضة تاريخ مجيء المسيح الثانى ، والنسبة بين أقصى ما يمكن بلوغه من السعادة الأرضية وسعادته المؤمن التى يجزى بها فى الفردوس (٤٨) . وقد كتب تعليقا على سفر الرؤيا ، وزعم أن المسيح الكاذب المتنبا به فى السفر هو بابا روما . لقد كان ذهن نيوتن مزيجا جمع بين ميكانيكا جاليليو وهوانين كبلر وبين لاهوت بومى . ولن يطالعنا الزمان بمثله عن قريب .

٥ - الأصل

لقد كان بمعنى آخر مزيجا شاذا ، رجلا مستغرقا بشكل واضح فى النظرية الرياضية والصوفية ، وهو مع ذلك ذو مقدرة عملية وفطرة سليمة اختارته جامعة كمبردج عام ١٦٨٧ ليذهب مع آخرين للاحتجاج لدى جمبس الثانى على محاولة هذا الملك أن يفرض على الجامعة أن تمنح راهبا بندكتيا درجة جامعية دون أن يحلف الايمان العادية التى يستحيل على الكاثوليكى أن يقبلها . وفشلت البعثة فى ثنى الملك عن قراره ، ولكن لا بد أن الجامعة رضيت عن رئاسة نيوتن لها ، لأنه اختير عضوا ممثلا لكمبردج فى برلمان ١٦٨٩ . وظل عضوا حتى حل البرلمان عام ١٦٩٠ ، ثم أعيد انتخابه عام ١٧٠١ ، ولكنه لم يشارك فى السياسة بدور مذكور .

وتخللت حياته العملية عام ١٦٩٢ سنتان من المرض الجسمى والعقلى . فقد كتب الى بيبس ولوك رسائل يشكو فيها من الارق والسوداء ، ويعرب عن مخاوف الاضطهاد ، ويتحسر على فقده « تماسك ذهنه القديم (٤٧) » . وفى ١٦ سبتمبر ١٦٩٣ كتب الى لوك يقول :

سيدى : ان ظنى أنك حاولت توريطى فى علاقات نسائية وبطرق.

أخرى أثر في نفسي تأثيرا شديدا ، حتى أنني أجبت حين أخبرني أحدهم بأنك مريض ولن تعيش ، بأن من الخير أن تموت . وأود أن تغتفر لي هذه القسوة لأنني الآن مقتنع بأن ما فعلته صواب ، وأسالك الصفح عن اساءتي الظن بك في هذا الأمر ، وعن قولي أنك أصبت الفضيلة في الصميم بمبدأ وضعته في كتاب « الأفكار » الذي ألفته ، ونويت أن تواصله في كتابه آخر ، وعن أنني حسبتك خطأ من أنصار هوبز . كذلك أسالك الصفح عن قولي أو ظني بأن هناك خطة لبيع منسبا ، أو لتوريطي ...

واني خادمك الخاضع المنكود الحظ

اسحاق نيوتن (٤٨)

وذكر بيبيس في خطاب تاريخه ٢٦ سبتمبر ١٦٩٣ « اضطرابا في الرأس أو العقل » تدل عليه رسالة تلقاها من نيوتن . وقد خلف هويجنز عند وفاته (١٦٩٥) مخطوطة دون فيها تحت يوم ٢٩ مايو ١٦٩٤ أن « مستر كولين ، وهو رجل اسكتلندي ، أنبأني أن عالم الهندسة الشهير اسحاق نيوتن أصابته لؤثة قبل ثمانية عشر شهرا » ولكنه استعاد صحته فبدأ يفهم كتابه « المبادئ » . وأرسل هويجنز التقرير الى لينتز في رسالة مؤرخة ٨ يونيو ١٦٩٤ قال فيها : « ان الرجل الطبيب المستر نيوتن أصيب بنوبة من الخبل لازمته ثمانية عشر شهرا ، وقيل أن اصحابه شفوه منها بالعقاقير وإبقائه محبوسا (٤٩) » وظن البعض أن هذا الانهيار العصبي صرف نيوتن عن العلم الى سفر الرؤيا ، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا . وقيل « إنه لم يركز قط كما ألف أن يركز ، ولم يقم بأى جهد جديد (٥٠) » ومع ذلك ففي ١٦٩٦ حل على الفور تقريبا مسألة حسابية اقترحها يوهان برنوللى « على أذكى الرياضيين فى العالم » ، وكذلك فعل بمسألة وضعها لينتز عام ١٧١٦ (٥١) . وقد أرسل رده على برنوللى غفلا من الاسم بطريق الجمعية الملكية ، ولكن برنوللى حزر على الفور أن صاحبه نيوتن ، اذ تبين « الأسد من مخلبه » على حد قوله . وفى عام ١٧٠٠ اكتشف نظرية آلة السدس ، ولم يكشف النقاب عنها الا بخطاب لهالى ، ووجب أن يعاد اختراعها عام ١٧٣٠ . ويبدو أنه شرف المناصب العسيرة التى بادرت الدولة بتعيينه فيها .

وكان لوك ، وببيس ، وغيرهما من أصدقاء نيوتن قد فاضوا حيناً للحصول له على منصب حكومى يخرجهم من سجن حجرته ومختبره فى كمبردج . وفى عام ١٦٩٥ اقنعوا اللورد هاليفاكس بأن بعرض عليه وظيفة أمين دار سك النقود . ولم تكن الوظيفة شرفية ولا صدقة ، اذ أرادت الحكومة أن تفقد من علم نيوتن بالكيمياء والمعادن فى ضرب عملة جديدة . وفى ١٦٩٥ انتقل الى لندن ، حيث عاش مع ابنة أخته كاترين بارتون ، خلية هاليفاكس (٥٢) . وفد خبل الى فولتير أن افتتاح هاليفاكس ببنت الاخت هذه حمل هاليفاكس وهو وزير للخزانة على أن يعين نيوتن مديراً لدار سك النقود فى ١٦٩٩ (٥٣) ، ولكن هذه الشائعة لا تكاد تفسر استمرار نيوتن فى شغل ذلك المنصب طوال الثمانية والعشرين عاماً الباقية له فى أجله ، وسُغله على نحو حاز الرضاء العام .

وكان خليفاً بشيخوخته أن تكون سعيدة . فقد كرمته الدولة بوصفه أعظم العلماء الأحياء ، ولم يحظ رجل من رجال العلم حتى وقتنا هذا بمثل ما حظى به من ثناء عربى . وقد انتخب رئيساً للجمعية الملكية عام ١٧٠٣ ، وظل ينتخب سنوياً بعد ذلك حتى وفاته . وفى عام ١٧٠٥ خلعت عليه الملكة آن لقب الفروسية . وحين ركب عربته مخترقاً شوارع لندن تفرس الناس برهبة فى وجهه الوردى ، وقد فاض جلالاً وطيبة تحت لمة من الشعر الأبيض . ولم يستطيعوا طوال الوقت أن يلحظوا أنه قد عرض بأكثر مما يتناسب مع طوله المتواضع . وكان يستمتع براتب طيب بلغ ١٢٠٠ جنيه فى العام ، وقد استثمر مدخراته بحكمة حتى انه خلف عند وفاته ٣٢٠٠٠ جنيه (٥٤) ، رغم سخائه فى الهدايا والصدقات . وقد أفاق من خسارته فى انهيار شركة « ساوث مي » . على أنه كان متقلب المزاج ، وأحياناً سريع الغضب سيئ الظن ، كتوما ، ودائماً شديد التهيب رغم كبريائه (٥٥) . كان يحب اعتقال الناس ولا يصنع الاصدقاء بسهولة . وفى عام ١٧٠٠ عرض الزواج على امرأة غنية ، ولكن العرض لم يسفر عن نتيجة ، ولم يتزوج قط . واذ كان عصبى المزاج . حساساً بشكل مرضي ، فقد كان لا يطيق النقد الا متألماً ، ويغتاظ منه غيظاً شديداً ، ويرد الصاع صاعين فى الجدل . وكان يعرف قدر عمله وكفايته ، ولكنه عاش متواضعاً الى أن أثار له راتبه

ومدخراته أن يستخدم ستة خدم ويستمتع بمكان مرموق فى المجتمع اللندنى .

فلما بلغ التاسعة والسبعين بدأ يرد دينه للطبيعة . فاصابته الأمراض التى لا تقيم للعبقريّة وزنا - حصاة المثانة وسلس البول ، وحين بلغ الثالثة والثمانين أصيب بالنقرس ، وفى الرابعة والثمانين بالبواسير . وفى ١٩ مارس ١٧٢٧ اشتدت به آلام الحصاة حتى فقد وعبه . ولم يبق قط ، ومات فى الغد وقد بلغ الخامسة والثمانين ، ودفن فى كنيسة وستمنستر بعد أن شيع بجنازة تصدرها رجال الدولة والنبلاء والفلاسفة ، وقد سجد فى نعش حملته الأذواق والايولات . وأغرقه الشعراء بمراثيهم ، وألف بوب قبرة شهيرة قال فيها : « ان الطبيعة وقوانينها كان يلفها ظلام الليل ، وقال الله ليكن نيوتن ، فأصبح الكل ضياء » ولم يملك فولتير عواطفه ، حتى فى شيخوخته ، وهو يروى كيف شاهد ، أثناء منفاه فى انجلترا ، رياضيا يدفن بمظاهر تكريم الملوك (٥٦) .

وبلغ صيت نيوتن ذرى أشرفت على السخف . فقد رايينت أن اسهامات منافسه فى الرياضة تعدل فى قيمتها كل المؤلفات السابقة فى ذلك العلم (٥٧) . وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم وأندر عبقرى ظهر نيشرف النوع الانسانى ويعلمه (٥٨) » ووافق فولتير فى تواضع (٥٩) . ووصف لجرانج كتاب المبادئ بأنه « أعظم انتاج انتجه الذهن البشرى » ، وضمن له لابلاس الى الابد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » ، وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ (٦٠) . ومثل هذه الاحكام لاثبات لها ، لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تذبل كالزهرة .

ولو أننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشار تأثيره وطول بقاء هذا التأثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسي الاديان «العالمية والفلسفات المحورية . لقد كان تأثيره على الرياضة الانجليزية - حيننا - نائيرا ضارا ، لأن « فروقه وتنويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما ليينتر على القارة . ويبعدو أن فظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض

الطلاب الآن عوناً كبيراً في نظرية نيوتن (٦١) . أما في الميكانيكا فقد أثبت عمله أنه خلاق إلى غير حدود . كتب أرست ماخ يقول : « إن كل ما أنجز في الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويراً استنتاجياً ، شكلها ، رياضياً ... على أساس قوانين نيوتن (٦٢) » .

وقد خشي اللاهوتيين لأول وهلة من تأثير كتاب « المبادئ » على الدين ، ولكن محاضرات بويل التي ألقاها بنتلي (١٦٩٢) ، بسجبع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة إلى العالم إلى تأييد الإيمان ، لأنها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله . على أن هذا النسق النيوتوني ذاته قبله الربوبيون على أنه يدعم إيمانهم ، وهو القبول البسيط لآله واحد ، أو حتى اعتبار الله واحداً هو والطبيعة وقوانينها ، بدلاً من اللاهوت المسيحي . وأغلب الظن أن تأثير نيوتن النهائي في الدين كان ضاراً ، فقد افترض أحرار الفكر أنه برغم تأكيدات ، وملايين الكلمات التي احتوتها كتاباته اللاهوتية ، أنه تصور عالمًا قائماً بنفسه ، وأنه أدخل الآله فيه فكرة لاحقة معزية . وفي فرنسا على الأخص شجعت كونيات نيوتن ، رغم عرض فولتير لها عرضاً ربوياً ، الحاد الكثيرين من « الفلاسفة » الحاداً بقوم على ميكانيكية الكون .

وفي الفترة بين اضمحلاء نظرية ديكارت في نشأة الكون في فرنسا (حوالي ١٧٤٠) وظهور نظريات النسبية وميكانيكا الكم في القرن العشرين ، لم يصادف « نسق العالم » النيوتوني أي تحدٍ خطير ، وبدا مؤيداً من كل تقدم أو كشف في الفيزياء أو الفلك . والخلافات الرئيسية بين الفيزيائيين المعاصرين وميكانيكا نيوتن ، على قدر ما يستطع غير المتخصص فهم هذه الالغاز ، هي :

١ - ذهب نيوتن إلى أن المكان والبعد ، والزمان والحركة ، أشياء مطلقة - أي أنها لا تختلف كما باختلاف أي شيء خارجها (٦٣) . أما أينشتاين فقد اعتبرها نسبية - تختلف باختلاف موقع وحركة المشاهد في المكان والزمان .

٢ - افترض أول قوانين نيوتن للحركة ، في وضوح ، أن الجسم قد « يستمر في حالة سكون ، أو حركة منتظمة في خط مستقيم » ولكن

« السكون » نسبى دائما ، كسكون مسافر فى طائرة مسرعة ، وكل الاشياء تتحرك ، ولا تتحرك أبدا فى خط مستقيم ، لأن كل خط حركة أو فعل تحرفه الأجسام المحيطة (كما أدرك نيوتن) .

٣ - كانت فكرة نيوتن عن الكتلة أنها من الثوابت ، وفكرة بعض الفيزيائيين المعاصرين عنها أنها تختلف باختلاف السرعة النسبية للمشاهد والشيء .

٤ - النظرة السائدة الآن الى « القوة » هى أنها فكرة ميسرة . ولكنها ليست ضرورية فى العلم ، الذى يهدف الى الاكتفاء بوصف التتابعات ، والعلاقات ، والنتائج . فلسنا نعلم ، ولا حاجة بنا الى أن نعلم (كما يقول لنا العلماء) ما هو « هذا » الذى يسرى من جسم متحرك الى آخر يصدمه ذلك الجسم ، فالحاجة فقط لنسجيل التتابعات ، والعلاقات ، والنتائج ، وللافتراض (دون أى يقينية مطنثة) بأن هذه ستكون فى المستقبل ما بدته فى الماضي . والجاذبية وفقا لهذا الرأى ليست قوة ، بل نظام علاقات بين الأحداث فى الزمان والمكان .

ومما يعزينا أن نعلم أن هذه وغيرها من التنقيحات الطارئة على ميكانيكا نيوتن لا أهمية لها الا فى ميادين (كالظواهر الكهربائية - المغنطيسية) تبدو الجزيئات فيها تتحرك بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، وفى غير هذا فالفرق بين الفيرياء القديمة والحديثة يمكن أن نتجاهله مطمئنين . وللflasفة - الذين شفافهم التاريخ من اليقينية - أن يحتفظوا بارتياحية متواضعة من نحو الافكار المعاصرة ، بما فى ذلك أفكارهم هم ، وسوف يحسون نسبية متدفقة فى صيغ النسبية ، وسوف يذكرون كل المنقبين فى الذرات والنجوم بتقدير نيوتن النهائى لانجازه الخطير :

« لست أعلم كيف أبدو للعالم ، ولكنى أبدو لنفسى وكأننى صبى يلعب على شاطئ البحر ، ألهو بين الحين والحين بالعثور على حصاة أملس أو صدفة أجمل من العادة ، بينما ينبسط محيط الحقيقة العظيم مغلق الأسرار أمامى (٦٤) » .

راجع
الجزء ٣٢ ٣٣

CHAPTER VII

1. Firth, *Oliver Cromwell*, 228.
2. *Ibid.*, 230.
3. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 218-219.
4. Firth, 244.
5. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 168.
6. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 294.
7. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 427.
8. *Ibid.*, 428; Gardiner, S.R., *History of the Commonwealth and Protectorate*, I, 48.
9. Gooch, 183-84; Bowle, *Western Political Thought*, 343.
10. Gooch, 189-90.
11. D'Alton, *History of Ireland*, IV, 308.
12. *Camb. Mod. History*, IV, 533.
13. Carlyle, *Cromwell*, I, 458.
14. *Ibid.*
15. Firth, 255.
16. *Camb. Mod. History*, IV, 538.
17. Firth, 259.
18. Lingard, *History of England*, VIII, 178.
19. Churchill, Winston, *History of the English-speaking Peoples*, II, 235.
20. Lingard, VIII, 146.
21. Lang, Andrew, *History of Scotland*, III, 233.
22. Morley, John, *Oliver Cromwell*, 319.
23. Gooch, 165.
24. Lingard, VIII, 194-95.
25. Firth, 312; Hallam, *Constitutional History of England*, II, 219-30.
26. Gardiner, *History of the Commonwealth*, II, 208-10; *History Today*, October 1953, p. 690.
27. Morley, *Cromwell*, 336.
28. Firth, 319.
29. Hume, David, *History of England*, IV, 551n.
30. Churchill, II, 245.
31. Guizot, *History of Civilization*, I, 240-1.
32. Lingard, VIII, 207.
33. *Ibid.*, 211; Trevor-Roper, 188.
34. Morley, *Cromwell*, 427.
35. Firth, 445.
36. Hume, D., *History*, IV, 578.
37. Walpole, Horace, *Anecdotes of Painting in England*, I, 425.
38. Lingard, VIII, 271.
39. Hallam, *Constitutional History*, II, 241-243; Morley, *Cromwell*, 390.
40. Morley, 400.
41. Plato, *Republic*, 555b-65.
42. Evelyn, *Diary*, I, 331.
43. Morley, *Cromwell*, 413.
44. Macaulay, *History of England*, I, 128.
45. Lingard, VIII, 203.
46. Firth, 355; Morley, 412.
47. Hume, D., *History*, V, 45.
48. Churchill, II, 248.
49. Firth, 344.
50. In Masson, David, *Life of John Milton*, V, 23.
51. Fox, George, *Journal*, 34.
52. *Ibid.*, 4-5.
53. 8-9.
54. 11.
55. 12.
56. 20.
57. 22.
58. 27.
59. 36.
60. 43.
61. 51.
62. 105-6.
63. Firth, 357.
64. Lingard, VIII, 243-44.
65. Beard, Miriam, 397; Firth, 392.

66. Beard, 396.
67. Churchill, II, 249.
68. Hume, D., *History*, IV, 592.
69. Firth, 433.
70. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 118.
71. Lingard, VIII, 267.
72. *Ibid.*, 268.
73. Macaulay, *History*, I, 152.
74. *Enc. Brit.*, VI, 745d.
75. *Camb. Mod. History*, IV, 542.
76. Masson, *Milton*, V, 619.
77. Bowle, *Western Political Thought*, 337.
78. *Camb. Mod. History*, IV, 554; Bryant, Sir Arthur, *Charles II*, 58.
79. Lingard, VIII, 236.
80. Hallam, II, 328.
81. *Ibid.*, 329.
82. Bryant, 60.
83. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 66.
84. Bryant, 64.
85. Lingard, VIII, 304.

CHAPTER VIII

1. Allen, J. W., *English Political Thought*, 268.
2. Walton, Izaak, *Complete Angler*, 15.
3. Palgrave, *Golden Treasury*, 67.
4. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 2, in *Entire Works*, I, 5-6.
5. *Ibid.*, No. 4.
6. No. 8.
7. In Froude, *Bunyan*, p. 8.
8. Bunyan, *Grace Abounding*, No. 14.
9. *Ibid.*, No. 97.
10. No. 96.
11. No. 104.
12. Coulton, *Life in the Middle Ages*, I, p. 20.
13. *Grace Abounding*, No. 116.
14. Froude, *Bunyan*, p. 59.
15. *Ibid.*, 65.
16. 72.
17. 74-82.
18. *Pilgrim's Progress*, 7.
19. Acts xvi, 31.
20. *Pilgrim's Progress*, 169-71.
21. *Ibid.*, 193.
22. 196.
23. 11.
24. *Camb. History of English Literature*, VII, 197-98.
25. Froude, *Bunyan*, 86.
26. Milton, *Defensio Secunda*, in *Areopagitica and Other Works*, 191.
27. Johnson, Samuel, *Lives of the Poets*, I, 57.
28. Saintsbury, *History of English Literature*, 159.

29. Milton, *Reason of Church Government*, in *Areopagitica, etc.*, 305.
30. Milton, *Poetical Works*, 46.
31. *Comus*, II, 768f.
32. *Defensio Secunda*, loc. cit., 193.
33. *Reason of Church Government*, loc. cit., 301.
34. "Letter to Mr. Hardlib," in *Areopagitica, etc.*, 46.
35. Johnson, *Lives*, I, 63.
36. Milton, "Letter to Mr. Hardlib," loc. cit., 48.
37. As indicated in *Apology for Smectymnus*, in *Areopagitica, etc.*, 113.
38. Masson, *Milton*, II, 215.
39. Milton, "Of Reformation," in *Areopagitica, etc.*, 58.
40. *Ibid.*, 102.
41. 103.
42. Masson, II, 257.
43. *Ibid.*, 390, 396.
44. Milton, in *Areopagitica, etc.*, 123.
45. *Ibid.*, 121.
46. 124.
47. 304.
48. *Reason of Church Government*, in Masson, II, 371.
49. *Areopagitica, etc.*, 302.
50. *Ibid.*, 303.
51. 304.
52. 146.
53. Masson, II, 487.
54. Aubrey, *Brief Liver*, 201.
55. Milton, *Doctrine and Discipline of Divorce*, in Taine, *History of English Literature*, 181.
56. Pattison, Mark, *Milton*, 58.
57. *Areopagitica, etc.*, 198.
58. *Ibid.*, 225.
59. 195.
60. Masson, III, 320-21.
61. *Ibid.*, 269.
62. *Areopagitica*, 4-5.
63. *Ibid.*, 21.
64. 13.
65. 35.
66. 36.
67. 38.
68. 34.
69. Masson, IV, 64.
70. *Ibid.*, 92.
71. *Areopagitica, etc.*, 4.
72. Masson, IV, 35n.
73. In *Areopagitica, etc.*, 289.
74. Masson, IV, 108.
75. *Ibid.*, 235-5.
76. 261.
77. 263-67.
78. Johnson, *Lives*, I, 69.
79. Masson, IV, 520.
80. *Defensio Secunda*, in Johnson, I, 72.

81. Masson, IV, 455-56.
82. *Ibid.*, 457.
83. *Ibid.*, 458.
84. Disraeli, *Curiosities*, I, 154.
85. Masson, IV, 627.
86. *Ibid.*, 581.
87. 599.
88. 605.
89. 612-15.
90. 609.
91. 610.
92. *Ibid.*
93. Masson, V, 206.
94. *Ibid.*, 115.
95. 369-70.
96. 573.
97. *Ready and Easy Way*, in *Areopagitica*, etc., 166-69.
98. *Ibid.*, 186.
99. 181.
100. Masson, V, 603.
101. Aubrey, 202.
102. Masson, VI, 447, 649; Johnson, *Lives*, I, 87.
103. Patison, *Milton*, 148.
104. Masson, VI, 476.
105. Aubrey, 201.
106. *Paradise Lost*, vii, 26.
107. Hutchinson, F. E., *Milton and the English Mind*, 118.
108. Johnson, I, 85.
109. *Ibid.*, 102, 108.
110. *Paradise Lost*, i, ll. 106f., 105-40.
111. *Ibid.*, I, 253-55.
112. IV, 800.
113. IV, 515f.
114. IV, 703-8.
115. viii, 66f.
116. IV, 738f.
117. ix, 1051f.
118. x, 884, 888f.
119. Cf. IV, 634-38.
120. *Samson Agonistes*, 1053-60.
121. Masson, VI, p. 830.
122. *Paradise Lost*, iii, l. 183; Masson, VI, p. 831.
123. Masson, 818.
124. *De Doctrina Christiana*, Ch. xxx, in Willey, *Seventeenth-Century Background*, 71-72.
125. Masson, VI, 827.
126. John Toland in Hutchinson, 152.
127. Johnson, I, 192.
128. Masson, VI, 683; Hutchinson, 104.
129. Aubrey, 201.
130. Masson, II, 473.
131. *Ibid.*, I, 312.
132. Johnson, I, 60.
133. *De Doctrina Christiana*, in Masson, VI, 837.
134. *Paradise Lost*, i, l. 496; iv, 765f.

135. Masson, VI, p. 654.
136. *Paradise Regained*, II, ll. 352f.
137. *Ibid.*, IV, 338.
138. IV, 606.
139. Masson, VI, p. 655.
140. Johnson, I, 88.
141. *Samson Agonistes*, ll. 68-72, 80-81.
142. *Ibid.*, 1034-60.
143. *Ibid.*, 597-98.
144. Masson, VI, p. 727.
145. Johnson, I, 92.
146. Dryden, *Essays*, 108.
147. *The Spectator*, Jan. 5-May 3, 1712.

CHAPTER IX

1. Evelyn, *Diary*, I, 341.
2. Bryant, *Charles II*, 85.
3. Gooch, *English Democratic Ideas in the 17th Century*, 171.
4. Taine, *English Literature*, 314.
5. Hume, *History of England*, V, 61.
6. Bryant, 90.
7. *Ibid.*, 89; Churchill, II, 264.
8. Cf. his speech in Peterson, H., *Treasury of the World's Great Speeches*, 96.
9. Pepys, *Diary*, Oct. 13, 1660.
10. Evelyn, *Diary*, I, 350.
11. As by Macaulay, *History of England*, I, 135; cf. Bryant, 128.
12. Burnet, *History of His Own Times*, 71.
13. Bryant, 133.
14. *Ibid.*, 159.
15. Pepys, July 27, 1667.
16. Burnet, 101.
17. *Grammont Memoirs*, 115n.
18. *Ibid.*, 116.
19. Pepys, May 19, 1668.
20. Bryant, 238.
21. Evelyn, Oct. 4, 1683.
22. Taine, *English Literature*, 314.
23. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 43.
24. Burnet, 103.
25. Evelyn, Feb. 4, 1685.
26. *Grammont Memoirs*, 350.
27. *Ibid.*, 356.
28. Aubrey, 188.
29. Bryant, 168.
30. Burnet, 33.
31. Bryant, 82.
32. Robertson, J. M., *FreeThought*, II, 84.
33. Buckle, Ia, 161n.
34. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 363.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 137.
36. Hallam, *Constitutional History*, II, 327.
37. *Ibid.*
38. Burnet, 41.
39. Dick, O. L., Introd. to Aubrey, *Life* lxxviii.

40. Besant, Walter, *London in the Time of the Stuarts*, 87; Lecky, W. E., *History of . . . the Spirit of Rationalism in Europe*, II, 66.
41. Burnet, 45-46; Ure, Peter, *Seventeenth-Century Prose*, 136-38.
42. Burnet, 45.
43. Quoted on title page of Toland's *Christianity Not Mysterious*.
44. In Allen, J. W., *English Political Thought*, 297.
45. Markun, Leo, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*, 122.
46. Weber, Max, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, 158-9.
47. Macaulay, *History*, I, 377-79.
48. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 152; Green, J. R., *Short History of the English People*, III, 1338.
49. *Ibid.*
50. Aubrey, 234; *Enc. Brit.*, XVII, 473d.
51. Buckle, Ia, 301n.
52. Churchill, II, 271.
53. Bryant, Charles II, 162n.
54. Fillop-Miller, *The Jesuits*, 344; Macaulay (*History*, III, 261) estimated the Catholics as 2 per cent of the population of England in 1690.
55. *History Today*, March 1954, p. 150.
56. Trevelyan, *English Social History*, 276; Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 5; Macaulay, *History*, I, 121.
57. Toynbee, A. J., *Study of History*, ed. Somervell, 237.
58. Trevelyan, *Social History*, 322; Marx, *Capital*, 300n.
59. Nussbaum, *Economic Institutions*, 216.
60. Wolf, *History of Science . . . in the 16th and 17th Centuries*, 616.
61. Macaulay, *History*, I, 320.
62. Besant, *London in the Time of the Stuarts*, 287.
63. Macaulay, I, 324.
64. Mousnier, *Histoire générale*, 146.
65. Rogers, J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 267.
66. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 167.
67. Nussbaum, 108.
68. Wingfield-Stratford, 579.
69. *Ibid.*, 577.
70. Lipson, E., *Growth of English Society*, 176-7.
71. *Ibid.*, 182.
72. Hume, *History*, V, 429; Cunningham, W. C., *Western Civilization in its Economic Aspects*, II, 216; Lecky, *England in the 18th Century*, I, 194.
73. Bryant, Charles II, 278.
74. Besant, 184.
75. *Camb. Mod. History*, V, 206.
76. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 112.
77. Besant, 122.
78. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 47; *Los Angeles Times*, Dec. 21, 1958.
79. Howard Kennedy in *Los Angeles Times*, March 2, 1958.
80. Besant, 223.
81. Defoe, *Journal of the Plague Year*, 7-8.
82. Evelyn, Feb. 7, 1666; cf. Pepys, Sept. 2, 1666.
83. Pepys, Sept. 2, 1666; Evelyn, Sept. 7, 1666; Lingard, IX, 65; Churchill, II, 277.
84. Besant, 251.
85. *Ibid.*, 245.
86. Summerson, *Sir Christopher Wren*, 55.
87. *Ibid.*, 134.
88. Fergusson, *History of Modern Styles of Architecture*, 194.
89. In Wingfield-Stratford, 605, where Riley is handsomely restored.
90. Duke of Marlborough Collection.
91. Pepys, Mar. 25, 1667.
92. *Ibid.*, Oct. 20, 1662.
93. London, National Portrait Gallery.
94. In Hampton Court Palace.
95. Pepys, Sept. 2, 1666.
96. *Ibid.*, Jan. 16, Feb. 3, Mar. 5, Apr. 9, 1660, etc.
97. Jan. 16, 1660.
98. Brockway and Weinstock, *The Opera*, 32.
99. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 383.
100. *Ibid.*, 399.
101. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 98.
102. Hallam, *Constitutional History*, II, 344n.
103. Pepys, Mar. 26, 1666.
104. In *Grammont Memoirs*, 90; Macaulay, *History*, I, 561.
105. Taine, *English Literature*, 315.
106. *Grammont Memoirs*, 281f.
107. Pepys, Aug. 31, 1661; Nov. 9, 1663.
108. Pope, *Essay on Criticism*, II, 536-43, in *Collected Poems*, p. 71.
109. *Grammont Memoirs*, 112.
110. *Ibid.*, 284n.
111. Evelyn, I, 366.
112. Ure, 36.
113. Markun, *Mrs. Grundy*, 127.
114. *History Today*, October 1958, p. 672.
115. Trevelyan, *Social History*, 313.
116. *History Today*, loc. cit., 668.
117. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 529.
118. James, B. B., *Women of England*, 295.
119. *Camb. Mod. History*, V, 213.
120. Besant, 345.
121. Macaulay, I, 327.
122. Saintsbury, *Dryden*, 182.

123. Bryant, 119; *Camb. Mod. History*, IV, 265.
124. Macaulay, I, 140; II, 416.
125. Hallam, II, 377.
126. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 376.
127. *Camb. Mod. History*, V, 218.
128. Pepys, Nov. 1, 1663.
129. *Ibid.*, Aug. 18, 1664.
130. Besant, 303.
131. Day, *Ninon*, 181.
132. Traill, H. D., *Social England*, IV, 489.
133. Ashton, J., *Social Life in the Reign of Queen Anne*, 163.
134. Pepys, Sept. 15, 1666.
135. *Camb. Mod. History*, V, 108.
136. Pepys, June 1, 1667.
137. *Camb. Mod. History*, V, 201.
138. *Ibid.*; Lingard, IX, 85.
139. Text in Lingard, IX, Appendix of Bryant, 168; Acton, *Lectures*, 310; *Camb. Mod. History*, V, 204.
140. *Ibid.*, 226; Lecky, *History of England*, I, 18.
141. Bryant, 183.
142. Burnet, 34.
143. Trevelyan, *England under the Stuarts*, 347.
144. Macaulay, I, 183.
145. *Camb. Mod. History*, V, 110.
146. *Enc. Brit.*, XVI, 662c.
147. Hallam, II, 413.
148. Macaulay, I, 186.
149. Trevelyan, *Stuarts*, 400-2.
150. Macaulay, I, 186; Bryant, 215.
151. Hume, *History*, V, 320.
152. Trevelyan, *Stuarts*, 387-88.
153. Hallam, II, 421.
154. Acton, 215.
155. Churchill, II, 298.
156. Acton, 215; Hume, V, 320.
157. *Enc. Brit.*, XX, 616b; Guizot, *History of Civilization*, I, 158.
158. Macaulay, *Essays*, I, 63; Wingfield-Stratford, 621; Lecky, *History of England*, III, 53.
159. Bryant, 270.
160. Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 481.
161. Bryant, 183.
162. *Ibid.*, 282.
163. Turner, E. S., *Call the Doctor*, in *Time*, Dec. 8, 1958, p. 63.
164. Macaulay, *History*, I, 335; Bryant, 294.
165. Macaulay, I, 337; Bryant, 296.
166. Macaulay, I, 338.

CHAPTER X

1. Turin Gallery.
2. London National Gallery.

3. Macaulay, *History*, I, 560-64.
4. Burnet, 65.
5. *Camb. Mod. History*, V, 265, 268.
6. Macaulay, II, 387.
7. Rowse, *Early Churchills*, 152; Lingard, X, 90.
8. Hume, *History*, V, 359; Macaulay, I, 406.
9. Acton, 221; *Camb. Mod. History*, V, 233.
10. Hume, V, 345.
11. Lecky, *History of England*, I, 21.
12. Macaulay, I, 359, 525.
13. *Camb. Mod. History*, V, 239.
14. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 61.
15. Lingard, X, 128.
16. Macaulay, III, 170.
17. Lord Dartmouth's notes to Burnet's *History*, in Lingard, X, 136n.
18. Burnet, 251.
19. Lingard, X, 136.
20. *Ibid.*, 131.
21. Trevelyan, *Stuarts*, 441.
22. *Camb. Mod. History*, V, 243.
23. Shrewsbury, Duke of, *Correspondence*, 4.
24. Churchill, *Marlborough*, I, 263.
25. Robinson, J. H., *Readings*, 367-69.
26. Mantoux, *Industrial Revolution*, 97.
27. Macaulay detailed these in his essay on Hallam (1818), and countered them in his *History of England* (1848), end of Ch. X.
28. Halifax, *Thoughts and Reflexions*, in Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Augustan Age*, 10.
29. *Ibid.*
30. Ure, *Seventeenth-Century Prose*, 72.
31. Hearnshaw, 60.
32. Halifax, *Character of a Trimmer*, in Trevor-Roper, 255.
33. Hearnshaw, 53.
34. Livy, *History of Rome*, v, 47.
35. Buckle, Ia, 297.
36. *Ibid.*, 298.
37. Bowen, *William Prince of Orange*, 277-8.
38. Burnet, 306.
39. Lecky, *England*, I, 275.
40. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 141.
41. *Camb. Mod. History*, V, 317.
42. *Ibid.*, 321; Lecky, I, 279-80; D'Alton, *Ireland*, 467; Wingfield-Stratford, 665.
43. *Camb. Mod. History*, V, 323.
44. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 95.
45. Day, *History of Commerce*, 161.
46. Groom, *History of Money*, 41-46.
47. *Ibid.*

48. *Camb. Mod. History*, V, 149.
49. Macaulay, III, 418-19; Churchill, *Marlborough*, I, 302.
50. *Ibid.*, 348.
51. Rowse, 134.
52. Goldsmith, *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1032.
53. *Ibid.*; cf. Chesterfield, *Letters*, I, 161 (Dec. 22, 1749).
54. Lecky, *England*, I, 128.
55. *Enc. Brit.*, XXIII, 725.
56. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 247.
57. Churchill, *English-speaking Peoples*, III, 76.
58. Rowse, 170.
35. Pepys, Feb. 3, 1664.
36. Scott, *The Pirate*, 147-49.
37. Macaulay, *History*, I, 285.
38. Johnson, *Lives*, I, 187.
39. *Ibid.*, 219; *Camb. History of English Literature*, VIII, 231-32.
40. Johnson, I, 216.
41. As Macaulay believed (*History*, I, 657).
42. Dryden, *The Hind and the Panther*, in *Poems*, 123.
43. Butler, Samuel, *Hudibras*, 3-9.
44. Pepys, Dec. 10, 1663.
45. *Camb. History of English Literature*, VIII, 68.
46. An excellent edition, *Brief Lives*, appeared in 1957, with a lively and learned introduction by O. L. Dick.
47. *Camb. History of English Literature*, IX, 151.

CHAPTER XI

1. Mousnier, 308.
2. Desnoiresterres, I, 212.
3. Swift, *Journal to Stella*, Aug. 7, 1712.
4. Theater History Exhibition, New York Public Library, Sept. 28, 1956.
5. Johnson, *Lives*, I, 201.
6. Besant, *Stuarts*, 323.
7. Holzknicht, *Background of Shakespeare's Plays*, 417.
8. Besant, 321.
9. Hume, *History*, V, 436; *Camb. History of English Literature*, VIII, 209.
10. Farquhar, *Beaux' Stratagem*, I, i, in Gosse, *A Volume of Restoration Plays*.
11. Congreve, *Way of the World*, II, iv, in Gosse, 185.
12. Macaulay, *Essays*, II, 426.
13. Gosse, 151.
14. Vanbrugh, *The Relapse*, III, in Gosse.
15. *Ibid.*, IV, i.
16. Vanbrugh, *Provoked Wife*, I, i.
17. *Ibid.*, I, ii.
18. *Enc. Brit.*, XVI, 574b.
19. Johnson, *Lives*, II, 2.
20. Macaulay, *Essays*, II, 446.
21. *Enc. Brit.*, VI, 255d.
22. Congreve, *Way of the World*, II, v.
23. *Ibid.*, IV, v.
24. Macaulay, *Essays*, II, 449.
25. Thackeray, *English Humorists*, 139.
26. Lecky, *England*, I, 539.
27. Dryden, Preface to *Fables, Ancient and Modern*, in *Essays*, 290.
28. Pepys, Feb. 23, 1663.
29. Nettleton, G. H., *English Drama of the Restoration*, 5.
30. Dryden, *All for Love*, IV, i, in Gosse.
31. *Camb. Mod. History*, V, 134.
32. Dryden, *Poems*, 75.
33. *Ibid.*, 78.
34. *Ibid.*, 89.
48. A good example in Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 131.
49. Macaulay, *Essays*, I, 195.
50. Temple, Sir William in Taine, *English Literature*, 333.
51. Evelyn, I, 229f. The passage on his son is under Jan. 27, 1658.
52. Pepys, June 13, 1662; June 17, 1663.
53. *Ibid.*, July 16, 1660.
54. Jan. 23, (1670).
55. Apr. 5, 1664.
56. Dec. 19, 1664.
57. Aug. 18, 1667.
58. Sept. 6, 1664.
59. July 15, 1660.
60. Aug. 23, 1663.
61. May 21, 1662.
62. July 30, 1663.
63. Sept. 4, 1660.
64. Sept. 24, 1663.
65. Feb. 28, 1662.
66. *Enc. Brit.*, VII, 139.
67. Defoe, *Moll Flanders*, 295.
68. Steele, *Tatler*, No. 151.
69. Thackeray, *English Humorists*, 183.
70. Steele, *Tatler*, No. 95.
71. Johnson, *Lives*, I, 330; Macaulay, *Essays*, II, 465.
72. *Ibid.*, 486; Johnson, I, 328.
73. Addison, *Spectator*, No. 4.
74. *Ibid.*
75. No. 112.
76. Macaulay, *Essays*, II, 499; *Enc. Br.* I, 161d.
77. Thackeray, 157n.
78. Voltaire, *Works*, XIXb, 137.
79. Stephen, Leslie, *Swift*, 81.
80. *Id.*, Alexander Pope, 60.
81. *Id.*, Swift, 15.
82. Hardy, Evelyn, *The Conjured Spirit*: Swift, 40.

83. *Ibid.*, 62.
84. Stephen, *Swift*, 52.
85. *Ibid.*, 37.
86. Swift, *Tale of a Tub*, etc., 56.
87. *Ibid.*, 72.
88. 77.
89. 78.
90. 81.
91. 121.
92. 103.
93. 105.
94. 106.
95. 109.
96. 110.
97. Stephen, *Swift*, 42.
98. Rowse, 169.
99. Hardy, *Conjured Spirit*, 148.
100. Swift, "A Critical Essay upon the Faculties of the Mind," in *Tale of a Tub*, etc., 192.
101. In Stephen, *Swift*, 47.
102. *Ibid.*, 161.
103. *Ibid.*, 57.
104. Hardy, 125.
105. In Trevelyan, *Social History*, 444.
106. In Rowse, 165.
107. *Ibid.*, 166.
108. *Ibid.*, 169.
109. Stephen, *Swift*, 103.
110. *Ibid.*, 102.
111. Swift, *Journal to Stella*, Letters xxvii and xxxiii.
112. *Ibid.*, 172 (Letter xxviii).
113. *Ibid.*, 103 (Letter xxvii).
114. Stephen, *Swift*, 143.
115. Hardy, 57.
116. Swift, "Strephron and Chloe," in Hardy, 59.
117. In Hardy, 176.
118. Stephen, *Swift*, 120.
119. *Journal to Stella*, Letter xvi.
120. Swift to Pope, Sept. 29, 1725, in Thackeray, *English Humorists*, 118n.
121. Stephen, *Swift*, 108.
122. Hardy, 164.
123. *Ibid.*, 157.
124. Stephen, 131.
125. Johnson, II, 258; Hardy, 174f; Stephen, 133f.
126. Hardy, 219.
127. Swift, *Gulliver's Travels*, Book II, Ch. vi, p. 120.
128. *Ibid.*, III, viii, p. 183.
129. III, x, pp. 198f.
130. IV, vii, p. 240.
131. IV, v, p. 250.
132. IV, xi, pp. 272-73.
133. Stephen, 168.
134. Hardy, 230.
135. Stephen, 160.
136. In Taine, *English Literature*, 436.

137. *Ibid.*
138. Stephen, 184.
139. *Ibid.*, 195.
140. In Woods, George, etc., *The Literature of England*, I, 813.
141. Stephen, 195.

CHAPTER XII

1. Morton, J. B., *Sobieski*, 41.
2. *Ibid.*, 57.
3. *Cambridge History of Poland*, I, 510.
4. Morton, 47.
5. *Camb. History of Poland*, I, 521.
6. *Ibid.*, 537.
7. Morton, 5.
8. *Camb. History of Poland*, I, 545.
9. *Ibid.*, 547.
10. *Ibid.*, 556.
11. Ogg, *Europe in the 17th Century*, 499.
12. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 263; Michelet, V, 154.
13. Kluchevsky, V., *History of Russia*, III, 334.
14. *Ibid.*, 282.
15. *Ibid.*, 367.
16. Waliszewski, *Peter the Great*, 63.
17. *Ibid.*, 75.
18. Florinsky, M. T., *Russia: History and an Interpretation*, I, 321.
19. Schuyler, E., *Peter the Great*, I, 350.
20. Waliszewski, 87.
21. *Ibid.*, 91.
22. Schuyler, I, 358.
23. *Ibid.*, 374.
24. Macaulay, *History*, IV, 374.
25. Voltaire, *Charles XII*, 37.
26. *Camb. Mod. History*, V, 595.
27. *Ibid.*; Schuyler, II, 85.
28. *Camb. Mod. History*, V, 596.
29. Waliszewski, 322.
30. Voltaire, *Charles XII*, 163; Schuyler, II, 138; *Camb. Mod. History*, V, 600.
31. Schuyler, II, 160.
32. *Ibid.*, 162.

CHAPTER XIII

1. In Buckle, *History of Civilization*, Ib, 580.
2. Frederick to Voltaire, Mar. 6, 1737, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 55.
3. Florinsky, I, 327, 334.
4. Schuyler, I, 374.
5. Waliszewski, *Peter the Great*, 105.
6. *Ibid.*, 143.
7. 133.
8. 137.
9. 218.
10. 152-53, 161-63; Florinsky, I, 319; Schnyler, I, 422.

11. Schuyler, II, 405.
12. Rambaud, *History of Russia*, I, 104.
13. Réau, L., *L'Art russe*, II, 18n.
14. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, 348.
15. Robinson, J.H., *Readings*, 390.
16. Schuyler, I, 411.
17. Waliszewski, 448f.
18. Ogg, 511.
19. Schuyler, II, 492.
20. Rambaud, I, 94.
21. Pokrovsky, M., *History of Russia*, 279.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
23. Pokrovsky, 287; Florinsky, I, 380.
24. Mavor, *Economic History of Russia*, I, p. xxix; *New Camb. Mod. History*, VII, 319.
25. Pokrovsky, 285; Schuyler, II, 471.
26. Schuyler, II, 453; Florinsky, I, 382.
27. Waliszewski, 436.
28. Rambaud, I, 99.
29. Schuyler, II, 609-10.
30. *Ibid.*, 283.
31. *Ibid.*, 338.
32. Waliszewski, 517.
33. *Ibid.*, 518.
34. Schuyler, II, 345.
35. *Ibid.*, 410.
36. Waliszewski, 534.
37. *Ibid.*, 538.
38. Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 269.
39. Pokrovsky, 330; Florinsky, II, 334.

CHAPTER XIV

1. Westermarck, *History of Human Marriage*, III, 51; Bebel, *Woman under Socialism*, 71.
2. Rocker, *Nationalism and Culture*, 125.
3. *New Camb. Mod. History*, VII, 193.
4. *Camb. Mod. History*, IV, 426.
5. Acton, *Lectures*, 286.
6. Quennell, *Caroline of England*, 5-7.
7. Montagu, Lady Mary W., *Letters*.
8. Francke, K., *History of German Literature*, 175.
9. Richard, E., *History of German Civilization*, 332.
10. Thieme, *Women of Modern France*, 199.
11. Wormeley, *Correspondence of Mme. Princess Palatine*, letter of Nov. 22, 1714.
12. Hurlimann, *Germany*, 232; La Farge, H., *Lost Treasures of Europe*, 33.
13. Dresden.
14. Spitta, K., *Bach*, I, 257. The walking is doubtful.
15. Morton, *Sobieski*, 130.
16. *Ibid.*, 132.

17. *Camb. Mod. History*, V, 355.
18. *Ibid.*, 355-56; Ogg, 490.
19. Ogg, 488.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 126.
21. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 165.
22. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 445.
23. Morton, 101; Coxe, II, 447.
24. Ogg, 496.

CHAPTER XV

1. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 53-54.
2. *Ibid.*, 49.
3. *Ibid.*, 57. Lea adds, "I cannot but regard this as a truthful report."
4. Ranke, *History of the Popes*, II, 381n.
5. *Ibid.*, 380; III, Appendix, 145.
6. Ranke, II, 325.
7. Funk, *Manual of Church History*, II, 148.
8. Ranke, II, 330.
9. *Ibid.*, 333; Funk, II, 177.
10. Ranke, II, 418.
11. Funk, II, 178.
12. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 135.
13. Churchill, *English-speaking Peoples*, II, 317.
14. Acton, 226.
15. Sismondi, *History of the Italian Republics*, 789.
16. Bonacossi Collection, Florence.
17. Wadsworth Athenaeum, Hartford, Conn.
18. Dresden and Rome.
19. Wallace Collection.
20. Dresden.
21. Vatican.
22. Rome, Santa Maria in Vallicella.
23. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 1152.
24. *Ibid.*, 1154.
25. *Ibid.*, 1101.
26. *Enc. Brit.*, X, 361b.
27. *Ibid.*
28. Garnett, *History of Italian Literature*, 283.
29. *Ibid.*, 284.
30. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 213.
31. Bain, F. W., *Christina, Queen of Sweden*, 253.
32. Motteville, *Memoirs*, III, 104.
33. *Ibid.*, 106-8.
34. *Ibid.*, 109-10.
35. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
36. Motteville, III, 110.
37. Day, *Ninon*, 149.
38. Bain, 321.
39. In Voltaire, 405.
40. Bain, 339.

44. Fox-Bourne, *John Locke*, II, 123-25.
45. Boyle, Robert, *Sceptical Chymist*, 1.
46. *Ibid.*, 2.
47. *Ibid.*, 17.
48. Butterfield, *Origins of Modern Science*, 105.
49. Wolf, 349.
50. *Ibid.*, 545.
51. Kirby, R. S., *Engineering in History*, 154.
52. Wolf, 550.
53. Beard, Miriam, 465.
54. Wolf, 551.
55. *Ibid.*, 552.
56. Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 611.
57. Evelyn, *Diary*, Nov. 7, 1651.
58. Wolf, *18th Century*, 406.
59. *Hamlet*, II, ii.
60. Locy, W. A., *Growth of Biology*, 212.
61. *Ibid.*, 214-16.
62. *Ibid.*, 236.
63. Castiglioni, *History of Medicine*, 537-538.
64. Brett, G. S., *History of Psychology*, 337.
65. *Ibid.*, 339; Sigerist, *The Great Doctors*, 184.
66. Garrison, *History of Medicine*, 313.
67. Dick in Aubrey, xix.
68. Lewis, *Splendid Century*, 181.
69. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
70. Macaulay, *History*, III, 78.
71. Sévigné, *Letters*, I, 106 (April 8, 1671).
72. Michelet, *Histoire*, V, 29.
73. Motteville, *Memoirs*, I, 186.
74. Castiglioni, 560.
75. *Ibid.*, 562; Garrison, 304.
76. Dick in Aubrey, xix.
77. Garrison, 252.
78. *Ibid.*, 253.
79. Dick in Aubrey, xix.
80. Hallam, *Literature of Europe*, IV, 341.
81. Wolf, *16th Century*, 438.
82. *Ibid.*
83. Garrison, 295.
84. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 374.
85. Pepys, Nov. 14, 1666.
86. MacLaurin, C., *Post Mortem*, 170f.
87. Dick in Aubrey, xx.
88. Castiglioni, 566.
89. Whitehead, Alfred North, *Science in the Modern World*, 58.
90. Sprat, *History of the Royal Society* (1667), 113, in Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 336.
91. Newman, *World of Mathematics*, I, 280.
92. Wolf, *16th Century*, 668-70.
93. *Enc. Brit.*, V, 994c.

94. In Smith, P. I, 150.
95. In Hazard, *Critical Years*, 316; Mousnier, *Histoire générale*, IV, 331.

CHAPTER XIX

1. Brewster, *Newton*, I, 4.
2. *Ibid.*, 92.
3. Newton's secretary, in Brewster, II, 96.
4. Keynes, J. M., in Newman, J. R., *World of Mathematics*, I, 182.
5. Smith, D. E., *Isaac Newton*, 207.
6. Keynes in Newman, *loc. cit.*
7. Brewster, II, 96-97.
8. *Ibid.*, 93.
9. *Ibid.*, 413.
10. Andrade, E. N., *Sir Isaac Newton*, 77.
11. Newton, *Principia*, 546.
12. *Ibid.*, xvii, preface to first edition.
13. Newton, *Opticks*, Appendix "De Quadratura Curvarum," in Wolf, *16th Century*, 211.
14. Brewster, II, 242.
15. Wolf, 217.
16. *Principia*, scholium to Prop. 7 of Book II.
17. Cf. *ibid.*, 656.
18. Wolf, 266.
19. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
20. Brewster, I, 96.
21. *Enc. Brit.*, XVI, 361b.
22. In Parton, *Voltaire*, I, 213.
23. *Ibid.*
24. Brewster, I, 26.
25. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, IV, 158.
26. Gilbert, W., *De Mundo Nostro Sublunari Philosophia*, in Whewell, *Inductive Sciences*, I, 394.
27. Brewster, I, 281.
28. Whewell, I, 393.
29. Brewster, I, 287.
30. Aubrey, 166.
31. Butterfield, 118.
32. Brewster, I, 293.
33. *Principia*, 546.
34. Brewster, I, 337.
35. Leibniz, Letter to Hartsoecker, Feb. 10, 1711.
36. *Principia*, 546, General Scholium.
37. *Ibid.*, 634.
38. Cajori in *Principia*, 677.
39. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 96.
40. General Scholium.
41. *Principia*, 547.
42. Brewster, II, 97.
43. *Ibid.*, 84.
44. Andrade, in Newman, I, 274.
45. Robertson, *Freebought*, II, 112-13.
46. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 249.

47. Keynes, address at tercentennial celebration of Newton's birth by the Royal Society, July 1946, in Newman, I, 183.
48. In Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 113.
49. Brewster, II, 132-35.
50. Keynes, *loc. cit.*
51. Andrade, in Newman, I, 174.
52. Keynes, *loc. cit.*
53. Parton, *Voltaire*, I, 213.
54. Andrade, *Newton*, 121.
55. Keynes' in Newman, I, 278; Locke in Brewster, II, 163.
56. Parton, I, 213.
57. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 404.
58. Hume, *History of England*, V, 433.
59. Voltaire, *Works*, XXIIb, 66.
60. Smith, D. E., *Newton*, 15; Brewster, I, 343.
61. S. Brodetsky in Smith, D. E., *Newton*, 8.
62. Andrade in Newman, I, 275.
63. *Principia*, First Scholium.
64. Andrade, *Newton*, 131.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

